يا كبيكج يا كبيكج يا كبيكج

الجزء الخامس

من كشف الأسرار وهتك الأستار

١٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر واعن واختم بخير يا رحيم

سورة يس ٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم يس والقرآن الحكيم المحكم
لانه كتاب احكمت اياته فاقسم به انك لمن المرسلين على صراط
مستقيم ثم قال ما تقديره هذا القول تنزيل العزيز الرحيم لتنذر
قوما ما قيل هي بمعنى الذي اي لتخوفهم الذي خوف اباؤهم منه لان
الارض لا تخلوا من حجة بدليل لقد وعدنا هذا نحن واباؤنا من قبل
فتكون الاشارة هاهنا الى اهل الكتاب الذي انذر اباؤهم لان من لا
ينذر لا يعاقب ولا يحق عليه القول وليس هذا مراد الاية بل المراد
مشركوا العرب فان هذه الاية تطلق على بعضهم كما نبين وذلك ان
هذه السورة كان نزولها بعد نزول سور قبلها وبعد انذار منه عليه
السلام لهم فلما لم يؤمنوا حق القول ولهذا قال على اكثرهم ولا يعارض
قوله وان من امة الا خلا فيها نذير لقوله ما انذر اباؤهم لان المعنى
وان من امة مهلكة واما قوله تعالى لقد وعدنا هذا نحن واباؤنا
فليس ذلك من قول مشركي العرب بل هو حكاية عمن وعد والدليل
على ان ما نافية قوله لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك ومثله
وما ارسلنا اليهم قبلك من نذير وليس المراد بقوله قبلك الى المذكورين
المخصصين في زمن محمد فقط بل الى جملة العرب من قبل محمد صلى الله
عليه وسلم والمراد لم ياتهم نذير بكتاب كما اتى موسى بني اسرائيل

ولا شك ان العرب لم يكن لهم كتاب واليهم الاشارة بقوله ما انذر
اباؤهم فهم غافلون واعلم ان من العرب من كان في تكليف العقول
لا تكليف الرسول وهم الاباء الذين لم ياتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه
وسلم ولا يقال انهم ليسوا في النار مع كونهم مشركين وذلك لانهم
لو وقفوا مع عقولهم دون اهوائهم لعرفوا التوحيد لانه فطرة
الله التي فطر الناس عليها ولقد كانوا يعرفون الله كما اخبر عنهم بقوله
تعالى ولئن سالتهم من خلق ولا يلزمهم اقامة فرائضه لانهم لم ياتهم
كتاب وانما تعليل كون الاباء لم ياتهم كتاب فيحتمل ان يقال لما علم الله
منهم انهم لا يؤمنون لم يكن في ارسال الرسول اليهم فايدة فابقاهم
الله الى ان وجب الابنا فلما كان منهم من يتبع ومنهم من لا يتبع
وجب الارسال ولقد بين الله ذلك بقوله انما تنذر من اتبع وبقي
من لم يتبع ملحقا بالاباء جزا كما الحق نفسه بهم اعتقادا فاستحق
الاستيصال اذ كفر بالرسول عنادا او ان طبع على قلبه بكسبه
وهو معنى قوله لقد حق وجب القول على اكثرهم فهم بعد
اليوم لا يؤمنون فلما حق القول ذكر نوعا من العقاب هو في
الدنيا لا اعظم منه فقال عن اكثرهم انا جعلنا في اعناقهم اغلالا
الغل حلقة من حديد وقد كانت العرب تعملها من قد لعدم الحديد
وصانعه عند احتياجهم اليها فكان يتمل ومنه قيل للمراة غل
قمل قال الله تعالى اذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل اي في الاغلال

التي في اعناقهم يسحبون بها فهي الى الاذقان الذقن مجمع اللحيين
واذا كان في العنق حلقة عرضها في طول العنق بل تغطيه الى الذقن فان
صاحبها لا يقدر ان يلتفت الى اسفل لانه يمنعه علوها من قدام
ولا الى فوق لانه يمنعه علوها من خلف فاشار بذلك الى امتناعهم
من الالتفات لما يرد عليهم من السماء وهو كلام الله والى امتناعهم
من السجود لله فهم مقمحون قمح البعير اذا رفع راسه عن الورد
ولما كان هذا ولا يستطيعون لما في رقابهم من الاغلال التي هي الى
الاذقان ان يسجدوا اشبههم بالانعام وشبه القرآن الذي يعرض عليهم
بالماء من لازم قوله فهم مقمحون ولم يقل قامحون ليعرفنا انهم جعلوا كذلك
عقابا بهذه الحالة والقمحة بضم القاف مل الفم وجعلنا من بين ايديهم
سدا ومن خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون ما بين ايديهم
ولا ما خلفهم فلا يعتبرون بما جرى على الامم السالفة ولا يزدجرون بما
تواعدهم الله به في المدة الآتية فهم لا يتقدمون ولا يتأخرون ولا يبصرون
والاغلال في اعناقهم وهم مقمحون وسواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم
لا يؤمنون والمد لالف أنذرتهم انما هو من اجل ان الالف الزائدة
تقدمت على الاصلية تقول سواء على زيد اضربته ام لم تضربه ولو
اسقطت الالف لجاز فليس المراد ها هنا الاستفهام انما تنذر اى
فيفيد انذارك من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة
واجر كريم انا نحن نحيي الموتى اى كما لا تقدر على ان تحيي الموتى كذلك

لا تقدر على هدايتهم لانهم معاقبون زمنا ونكتب ما قدموا وآثارهم
وهو ما اثروه من البناء وغيره وكل بالفتح اى لا تظنوا ان ما نكتبه مما
قدموه في الدنيا وما اثروه لم نكن عالمين به بل كل شيء قد احصيناه
اي من قبل الايجاد في امام مبين هو العلم الازلي ولما كان علمه سبحانه
متقدما تقدما لا اول له كان اولى ما عرف الينا به هذه اللفظة
ومنه تقدم الامام على المأموم واضرب لهم مثلا اصحاب منصوب
بالضرب القرية ليس المقصود ان تحقق انها انطاكية او غيرها
فان الله قد جعلها مثلا فلنفهم المثول باي قرية كانت واذا كانت
الدنيا قد سماها الله دارا فلا غرو ان تسمى قرية ويكون المرسلون
بها موسى وعيسى ومحمدا صلى الله عليهم وسلم وانما خصصها لهؤلاء
لان كتبهم الباقية المشهورة وهي الحجج السماوية على اهل الارض
وهم اصحاب الامم اولي الدين دون غيرهم ولا تظن ان المثل لم يكن
بل كانت قرية ما وجاء اليها رسولان فكذبوهما فجاء الثالث وانما ضرب
الله مثلا بهذه القرية للدنيا فافهم قوله واضرب لهم فالمثل لكل قرية
اذ جاءها المرسلون اذ ارسلنا اليهم اثنين والرسول لا يكون
الا واحدا والمعنى رسولا بعد رسول فكذبوهما فعززنا فقوينا
وشددنا امرنا بثالث يقال المطر يعزز الارض اي يشددها ويصلبها
فقالوا انا اليكم مرسلون يحتمل انهم اجتمعوا في القرية ويحتمل
ان كل واحد اتى في زمن بمفرده ولم ير الاخر فوصف الله مقالة

كل واحد ومقالتهم لكل واحد قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا وما أنزل
الرحمن من شيء ان أنتم الا تكذبون قالوا ربنا يعلم أنا صادقون
قسما انا اليكم لمرسلون وما علينا الا البلاغ المبين قالوا انا
تطيرنا بكم التطير هو التفاؤل بفال الشؤم لئن لم تنتهوا
لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم ما كل رجم يقتل
ولا بد بل هو على سبيل الطرد كما بيناه في سورة مريم قالوا طائركم
لما قالوا اطيرنا ذكر الطائر استعارة ونسبه اليهم لأنهم هم الذين
جعلوه لأنفسهم فالا وقد تقدم فيه كلام معكم المعنى ان الذي جعلتموه
كالطائر لكونه علامة الشؤم هو معكم ولهذا قال طائركم أي انه لا
يفارقكم بل هو مقيم معكم ويريد به ما هم عليه من شؤم الكفر
وشؤم الاسراف في المعاصي ولهذا بعده أين ذكرتم تطيرتم واكتفى
بذكر ما قبل ولهذا بعده بل أنتم قوم مسرفون وجاء من أقصى المدينة
رجل يسعى وفي القصص قال وجاء رجل فقدم الرجل والمعنى هاهنا
انه اراد ان يعلم المخاطب ان رجلا جاء من مكان بعيد الى مجتمع
الناس حيث لم يحضر موضع الدعوة ولا شهد المعجزة
نصحهم ما لم ينصحوا لأنفسهم مثله ولم يكن ممن يعرف الرسل
وتعرفه الرسل لئلا يظن الظان ان ذلك حيلة وأمر قد تقرر
بينهم وبينه من قبل فقدم هاهنا ما تبكيت القوم به أعظم
والتعجب منه أكثر وأما في القصص جاء من يعرف موسى ويعرفه

موسى عليه السلام فصار اليه من مكان بعيد فنصحه والعرب تقدم
المذكور للاهتمام به فقدم في كل موضع بحسب قصده فيه قال يا قوم
اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون وما
وأي شيء لي لا أعبد الذي فطرني واليه ترجعون أأتخذ من دونه
آلهة استفهام بانكار أي كيف أفعل وهذا وصفهم ان يردن الرحمن
بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئا ولا ينقذون من عذابه اني
اذا ان فعلت لفي ضلال مبين اني آمنت بربكم فاسمعون أي
فاسمعوا مني بمعنى فاقبلوا وهذا من كلام الرجل لقومه وليس هذا
القول للرسل وهو كما تقول لصاحبك اسمع مني ما أشير به عليك
أي اقبل ثم قال تعالى ما أنبأ به عن أنهم قتلوه أو توفاه الله قيل
ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما أي بسبب أي شيء غفر
لي ربي وجعلني من المكرمين لعلهم يؤمنون بالرسل ثم أخبر تعالى
فقال وما أنزلنا على قومه قوم المؤمن من بعده أي بعد
قتله من جند من السماء وما كنا منزلين المعنى لم نكن منزلين
جندا على الأمم السالفة أي ملائكة حتى أنهم يؤمنون ان كانت
الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون اشارة الى سرعة الأمر
وسهولته ثم قال قولا يدل على ان العباد قد أحلوا أنفسهم في
محل من يتحسر عليه يا حسرة اللفظ لفظ النداء والمراد غيره
ومثله كن فيكون لفظ الأمر ومعناه الخبر ومثله فليمدد له

الرحمن مردا والمعنى انهم لما احلوا انفسهم في محل من يتحسر عليهم
خاطبهم بما يعلمونه ويتخاطبون بمثله ليعلموا محلهم منه لا محله
منهم وحذفت الفها لان اصلها يا حسرتاه على العباد لكونهم
ما ياتيهم من رسول الا كانوا به يستهزؤن الم يروا كم اهلكنا
قبلهم من القرون سموا قرونا لاقترانهم انهم ان القرون اليهم
الى الرسل اي اهلكناهم بسبب انهم الى رسلنا لا يرجعون ولا اشارة
الى المخاطبين اي الم يروها ولا ان القرون لما لم يرجعوا الى الرسل
اهلكناهم فافهم هذه جيدا فانها من المشكلات وهي من باب وقوم
نوح لما كذبوا الرسل اغرقناهم وتمام الايات هنالك شاهد الى
قوله افلم يكونوا يرونها ولما قدم هاهنا ذكر الرسل ثم ذكر القرون
قال هاهنا اليهم ولهذا لم يقل اليها وقوله بالكسر والتخفيف وان
كل لما اي وانه كل للذي جميع لدينا محضرون اي لا يحضرون قوما
بعد قوم بل يحضر جميع ورفع الكلمتين على ما لم يسم فاعله ثم
قال ما يدل على البعث الذي به يكون الجزاء فهو شاهد لصدق الاخبار
بالاحضار وآية لهم دالة على البعث الارض الميتة من هاهنا
الى قوله هذا ما وعد الرحمن آيات دالات على البعث هذا بدا بقوله
احييناها واخرجنا منها حبا فمنه ياكلون وجعلنا فيها جنات
من نخيل واعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره
ثمر النخيل والاعناب وما عملته ايديهم ما نافية والضمير

في عملته عايد على الثمر والدليل عليه قوله ما كان لكم ان تنبتوا
شجرها فكيف ثمرها وكقوله أفرأيتم ما تحرثون أانتم تزرعونه ام
نحن الزارعون ولو كان قد اراد بلفظة ما انها هاهنا بمعنى مما
اي ومن الذي لقال عملته بغيرها والدليل الاكبر على ما قلناه
ما سياتي مثله في آخر السورة بقوله مما عملت ايدينا اي لا
ما عملته ايديهم ولهذا قال افلا يشكرون ليؤكد ما قلناه
لان ما لم تتعب في عمله الايدي هو اولى بان يشكر عليه باذله
وان يمجد المنعم سبحانه ثم اكد ذلك بقوله بعده ما يعلم به الشكر
ويزيل الشبهة وينسب خلق الجميع الى الله سبحانه فقال سبحان الذي
خلق الازواج كلها سميتها ازواجا لان الله سبحانه لم يخلق شيئا
واحدا بل اثنين فصاعدا فلا تجد ثمرة ولا ورقة ولا بزرة ولا
شيئا واحدا لا مثل له وهذا صريح يشهد بضد ما قاله الفلاسفة
من ان الواحد لم يخلق الا واحدا بل خلق الازواج كلها واعلم انه
قد يقال الازواج ولا يريد بها الذكر والانثى بل الزوج والفرد
وقد يراد بها الاشكال وكما تقول هذا اخو هذا اي مثله وكذلك
اذا قلت هذا وهذا زوج اي كشكله فالكل ازواج مما تنبت
الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون وهذا من باب اعطيتك
المال من العين والغلة والنعم وقوله ومما لا يعلمون كقوله
ويخلق ما لا تعلمون وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فقال

أنسلخ الليل من النهار المتصل إذا أتى آخر الليل ودخل أول النهار
وبالضد ومثله تقول اليوم سلخ الشهر وسلخت الشهر بمن بينه
كله ولهذا قال بعده فإذا هم مظلمون أي في ظلمة ولم يحتج أن
يقول ضده أعني النهار ينسلخ منه الليل وإنما ذكر الليل ولم يذكر
النهار عوضه لأنه تعالى أراد أن يعرفنا في بقية الكلام ما هو
عجيب من مخلوقاته وهو الكواكب وأرانا ذلك بوجود الظلمة
فرأينا سباحة الكوكب وذلك لا نراه إلا في الليل فقدم ذكره واقتصر
عليه ولزم في النهار ما يماثل الليل من سلخه والكلام التام يفهم
عنه ويشهد له ورفع والشمس على الخبر وتقديره وآية لهم
الشمس وكذلك قوله والقمر بعد قوله والشمس تجري لمستقر
لها أي إلى مستقر جعله الله لها والمراد الزمان لا المكان فمستقرها
هو إذا كورت وإلا فهي لا تزال تجري واعلم أنه إذا طلعت الهقعة
فالسادس من طلوعها أطول الأيام في السنة وتلك الليلة أقصر
الليالي والنهار خمس عشرة ساعة والليل تسع ساعات ثم يأخذ
في النقصان فإذا طلعت الصرفة استويا إلى أن تطلع الشولة ففي
السابع من طلوعها يكون ذلك اليوم أقصر الأيام ثم يزيد إلى رابع من
طلوع الفرغ المقدم فيستويان ثم يأخذ في الزيادة كذلك إلى أن
تطلع الهقعة وتطلع كل ثلاثة عشر يوماً منزلة أول ذلك في ثامن
عشر نيسان يطلع الشرطين ثم يستمر الأمر كذلك على توالي

[illegible]

[illegible]

المنازل وتوالي الشهور ذلك تقدير العزيز العليم وعطف على قوله
وآية لهم والقمر قدرناه يجري لمستقر له منازل حتى عاد كما
بدا وهو كالعرجون وهو ما بين الشماريخ إلى المنابت في النخلة من
العذق القديم الذي تقادم عهده فهو عتيق قد قطع من زمان
فاعوج وبقي كالهلال في رأي العين من أول الليلة وهذه العودة في المنازل
التي يمر بها تارة بدراً وتارة دون ذلك ومنازله كواكب وهي تجري
أيضاً لمستقر لها والحركات مختلفة بمقادير لا الشمس ينبغي لها
أن تدرك القمر لكن القمر دائماً يدركها في سيره ويفوتها ثم
يدركها أبداً وهي لا ينبغي لها أن تدركه مع أن ضوءه مكتسب منها
وذلك بحكم منها لتعلموا عدد السنين والحساب وغير ذلك وقوله
ولا الليل سابق النهار ولم يقل يسبق لئلا يبقى تقدير الكلام ولا الليل
ينبغي له أن يسبق النهار فكان يلزم عن ذلك أن النهار يسبق الليل
كما فهمناه من القمر بعد الشمس فغير العبارة ليفهم بها غير المعنى
الأول وذلك هو ما معناه لا الليل سابق النهار ولا النهار سابق
الليل وأما الزيادة والنقصان فأمر آخر غير السبق وكل منهما
يزيد على الآخر في زمن وقوله وكل في فلك يسبحون يشير إلى
الأطلس صاحب الدورة اليومية الذي يحرك الجميع حركة واحدة
قهرية في اليوم والليلة وقوله في فلك لا يدل على أن سائر الكواكب
في هذا الفلك الأدنى إلينا فلك القمر بل لما كان كل كوكب من السيارة

في فلك والمنازل في فلك وسائر الأفلاك بكواكبها في فلك فكل في فلك وهو
الأعلى فظهر معنى قوله يسبحون من جهة لفظ الجمع لهذا لم يقل
يسبح وظهر معنى قوله في فلك فإن كان في عدة أفلاك فالسباحة
لفظة جاءت بصورة التمثيل وهذا الفلك الأطلس الأعلى هو السماء
ذات الرجع والجميع فيه يسبحون وهو توسع في الكلام كما تقول
تحركت الشجرة وإنما حركت واعلم أن الكلام بأوله وأوله وآية
لهم الليل ثم قال بواو الحال والشمس تجري والقمر قدرناه وإن
كان كل آية أيضا ثم غير المسبوق وبعبارة يلزم أن لا يكون أبدا إلا
مسبوقا وهي عدم الإدراك ولزم من هذا التعيين أنه لا يزال القمر
سابقا لكونها لا تدركه في السير ثم عاد إلى ذكر الليل والنهار الذي
بدأ بذكرهما وجعلهما آية ثم نبه على ما يزيد التعجب ويؤكد في العقول
الاعتراف بعظيم القدرة والحكمة بقوله وكل في فلك وذلك أنه لما كان
سلطان الليل وهو القمر لا يزال سابقا سلطان النهار وهو الشمس
وكان الذي يظهر للعقل أن يكون الليل سابقا للنهار كما سلطانه سابقا
لسلطانه نبه الله سبحانه على حكمة أفعاله بما هو عجيب في العقل
لمضادته والعقل أبدا يتوق إلى معرفة ما يتعجب منه وإذا كان المسبوق
لا يلحق السابق وما أضيف إلى السابق لا يكون سابقا لما أضيف إلى
المسبوق والسابق والمسبوق في فلك واحد كان هذا من العجائب
الذي يقتضي العقل بالتفكر فيه فيفضي به التفكر إلى التعلم فيصل

إلى الحقيقة الاعتراف بوجود الصانع الحكيم العليم سبحانه وذلك
هو المراد من قوله وآية لهم والذي يريد العلم بهذه الأمور وتعا صيلها
فعليه بعلم الهيئة بما لا يفضي به إلى الخلاف لكتاب العزيز بل يقتضي
بتصديقه وتبيين الطريقة ولما فرغ من ذكر هذه العلامة الدالة
عطف عليها بمثلها من الآيات فقال وآية لهم أنا حملنا ذريتهم
في الفلك المشحون سفينة نوح حمل الآباء الأقدمين وكان الآباء
المحمولون ذرية لمن تقدمهم من القرون من آدم فقال للحاضرين
وآية لهم أنا حملنا ذرية القرون المهلكة بتكذيبها وهذا منسوق
بقوله ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون وقوله وخلقنا لهم
للذرية والمخاطبون منهم وكذلك من بعدهم من مثله من مثل
الفلك ما يركبون وهو ما يركب من أنعام وخيل وغيره ولهذا
قال هاهنا وخلقنا لأن الجميع أهلكوا بالطوفان ثم خلق الله بعد
من كل زوجين اثنين كما خلق من ذرية القرون المكذبة وقوله
وإن نشأ نغرقهم أي بطوفان آخر جميعا هم وذرياتهم كما أغرقنا
الآباء المكذبين فلا صريخ لهم يصرخ به ليغيثهم لأن الجميع إذا
أغرقوا لم يبق صريخ ولا هم ينقذون من الإغراق بوجه
أي لا من الصريخ ولا منا وهذا فائدة قوله ولا هم والفلك يذكر
ويؤنث ويقال على الفرد مثل سفينة نوح وعلى الجمع مثل قوله
وترى الفلك مواخر فيه والنظم على ما تقدم هو أنه لما ذكر سبحانه

سباحة الكواكب في السماء ذكر سباحة الفلك في الماء ثم نبه على شكره
الواجب عليهم له سبحانه بذكر السبب المانع من اغراقهم مع استحقاقهم
فقال الا رحمة منا ومتاعا للظالمين منهم الى حين تمتعهم
قليلا ثم نضطرهم واذا قيل لهم اي مع رؤية هذه الايات اتقوا
ما بين ايديكم من عذاب الدنيا وما خلفكم من عذاب الاخرة
تعين لهم الذي يخافونه في الدنيا وهو ما بين ايديهم ليستدلوا به
على قدرته على تعذيبهم في الاخرى وهذا كله من محتمل اللفظ والاولى
انه لما ذكر الاغراق حكى ما تقوله الانبيا واتباعهم وهم العلما للمكذبين
اي اتقوا ان يجري عليكم كما قد جرى على من كذب الان او كما قد جرى على
من كذب من قبل واذا راى المكذبون في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ما جرى
على امثالهم من فتح بلادهم واذلالهم بايدي المومنين فهو ما بين ايديهم
واذا سمعوا ما جرى للامم السالفة كطوفان نوح فهو ما خلفهم فتعاد
المعنى واذا قال لهم قايل اتقوا ان يجري عليكم ما قد جرى على من قد كذب
هذا الرسول بين ايديكم وما جرى على من كذب رسوله فيما سلف
خلفكم لعلكم ترحمون تقديره اعرضوا وحذفه لما دل عليه
من قوله وما تاتيهم من اية من ايات ربهم الا كانوا عنها معرضين
اي اتاتيهم هذه الايات المتقدم ذكرها وغيرها ولا يومنون واذا قيل
لهم انفقوا مما رزقكم الله اي تصدقوا قال الذين كفروا للذين امنوا
وهم القايلون انفقوا انطعم من لو يشا الله اطعمه قالوا ذلك مستهزئين

بالمومنين وهذا بعده من تمام قولهم للمومنين ان انتم الا في ضلال
مبين ويقولون ايضا للمومنين متى هذا الوعد اي بعذاب الدنيا
وهو ما بين الايدي ان كنتم صادقين لانهم قالوا لهم اتقوا ما بين
ايديكم فقال الله تعالى ما ينظرون ينتظرون الا صيحة واحدة
تاخذهم وهم يخصمون من قراها بضم الياء وكسر الصاد اراد
انهم يخصمون بعضهم بعضا او من يخاصمهم بمعنى يغلبونه في الخصومة
ومن قراها كذلك لكن فتح الصاد اراد المعنى لكنهم هم المفعولون
ويقال ايضا خصمه اذا جعله خصما ومن قرا بفتح اليا وكسر
الصاد اراد يختصمون ونقل فتحة اليا الى الخا والاقرب في المعنى انهم
يكونون في غفلاتهم وخصامهم في دنياهم فتاتيهم بغتة فلا يستطيعون
توصية وهذه هي النفخة الاولى كما قيل ولا الى اهلهم يرجعون
لا يدل على اهل لهم خلفهم بل يدل على انهم لم يبق لهم اهل يرجعون
ها ولا اليهم وذلك ان الكلام عن الجميع وما بعد ذلك الا القيامة
ونفخ في الصور وهي النفخة الثانية فاذا هم من الاجداث
القبور الى ربهم ينسلون النسلان ضرب من السير ونسلت
الخيط من الابرة اذا اخرجته بسرعة والمعنى انه بنفخة واحدة
التامت الاجزا ووجد المعدوم وقاموا مسرعين دليل على سرعة
الامر وعظم القدرة قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ثم
تذكروا ما قيل لهم في الدنيا على السنة الرسل فقالوا معترفين

هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ويحتمل ان يكون هذا من
كلام الشفع الاول الاولى وبين بقوله ان كانت الا صيحة واحدة ان
الصيحة الاولى هي النفخة الاولى في الصور لانه ذكرها هنا نفخة
واحدة وسماها صيحة وذكر من قبلها صيحة ونبه على قوله اولا
وان كل لما جميع لدينا محضرون بقوله ها هنا فاذا هم جميع
لدينا محضرون فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون الا ما
كنتم تعملون ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون من فكه
يفكه فهو فاكه على وزن فقه بضم القاف وليس من فقه يفقه
فهو فقيه ومعناه المتلذذ المتنعم في النعمة لقوله ونعمة كانوا
فيها فاكهين اي ناعمين متلذذين هم وازواجهم في ظلال على الارائك
جمع اريكة وقد تقدم متكئون لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون
اي ما يتمنون وهو من الدعوى اي مهما ادعوا وطلبوا فهو لهم ولهم
سلام قولا اي تحية من رب رحيم وامتازوا اليوم اي
انفصلوا متميزين ايها المجرمون يقول الله لهم الم اعهد اليكم
وقوله يا بني ادم يذكرهم ما جرى على ابيهم ادم من الشيطان
بطاعته له في واحدة فكيف حال من يعبده ان لا تعبدوا الشيطان
انه لكم عدو مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم والعبادة
ها هنا الطاعة لان الطاعة ثمرة العبادة وان عارضت بطاعة
اولي الامر فتلك طاعة لله اذ امر وذلك كطاعة الملائكة في السجود

لادم

لادم ومن اطاع هواه فهو له كالاله واتباع الشهوات هو من جنس عبادة
الشيطان وذلك لتمكنه فينا وتقويته علينا فيضلنا عن الواجب بالميل الى
ضده ولقد اضل منكم جبلا كثيرا تقدم افلم تكونوا تعقلون
اي افلم يكن لكم من العقل ما ينهاكم عن نبذ عهدنا وهذا امر يجب ان يجعله
الانسان نصب عينيه لينظر ابدا اليه ولا شك ان الملحوظ من احكام
صورة الانسان ظاهرا وتفصيله بالعقل والقدرة باطنا انه انما
كان كذلك لامر الهي غير عبثي والمكاشفون اخبروا انه مركز تحل
فيه ملائكة وشياطين ويصرفونه دائما الى اغراضهم المتعلقة
باغراضه من حيث لا يعلم وذلك بنفس دعايهم له والامر اليه في
الاجابة واغراض الملائكة طاعة الرحمن واغراض الشياطين انواع
العصيان فالانسان في ساير الاحيان مرآة مقابلة لملك او شيطان
وقد بينهما القرآن فانظر الى نفسك وساير الناس على عدد الانفاس
واعتبر الحال في ساير الاقوال والافعال التي ترتبط من الخواطر ما يجب
وتجيبه فما كان شيطانيا فارفضه ونبه عليه وما كان ملكيا
فالزمه وامر بالمبادرة اليه ومهما اشكل فزنه بالكتاب المنزل
وتان في امره ولا تعجل تعقل منه ما تجهل واذا صحت رؤياك فاستحي
ممن يراك واقف رضى من سواك في نفسك وفي سواك فقد نصب
لك سواك اشراك الاشراك ليبلوك فيما اتاك ويجازيك على علم عندك
بضلالك او هداك فمن اجاب شيطانه اذا دعاه فقد اتخذ الهه

هواه فيحق يقول له الله هذه جهنم التي كنتم توعدون اصلوها اليوم
بما كنتم تكفرون اليوم نختم على افواههم قال ههنا وتكلمنا ايديهم
وتشهد ارجلهم وقال في فصلت وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا
اشارة الى ان الكل يشهد بما كانوا يكسبون عرفنا الله بقوله هذا
انه يختم على الناطق وينطق الصامت لان الذي انطق اللسان هو
القادر على ان ينطق البنان وغيرها من اعضاء الانسان فتقول اليد
انا سرقت وتشهد الجوارح بكسبها وما ذلك الا ان هذه الجوارح
خلقت لتعين على امتثال الامر والانتهاء عن النهي فهي قادرة على الفعل
وعلى الترك ولا يصح ان تكون قادرة على ترك القبائح الا ان تكون قادرة
على فعلها فخلقت قادرة على المليح لتفعله وعلى القبيح لتتركه وقد بين
الله السبيلين بقوله اما شاكرا واما كفورا ولهذا قدم قبله انا خلقنا
الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ولما
كان الابتلا لا يصح الا بعد القدرة على الشيء وضده وكان جماع الخير في
الصراط المستقيم وجماع الشر في سلوك غيره ضرب المثل
للبصيرة بالبصر فقال ولو نشا لطمسنا على اعينهم في الدنيا
عن روية الشر فاستبقوا الصراط اي الى سلوك الصراط
المستقيم وهي الافعال الجميلة فقط فلا يرون المعاصي فلا يفعلونها
لان الافعال تتقدمها الابصار فاذا لم يبصر استحال ان يفعل والمراد
بالبصر البصيرة اذ لو عدمت البصيرة لما افاد البصر والمعنى انه

سبحانه اخبر عن قدرته انه لو شا لاجبرهم على ان لا يكون منهم عصيان
فاستبقوا الى الصراط حينئذ ثم قال فانى يبصرون اي فكيف يبصرون
اشارة الى ان الذي جعل لهم الابصار قادر على طمسها مطلقا فيلزم
من كونه قادرا على طمسها عن ان ترى الخير والشر معا ان يكون
قادرا على طمسها عن ان ترى الشر فقط فجعل قوله فانى يبصرون
كالبرهان على ما قاله قبله ثم قال ولو نشا لمسخناهم على
مكانتهم تقديره من الشر ولهذا عبر بلفظ المسخ فما استطاعوا
حينئذ مضيا ولا يرجعون اي ولا رجوعا وغير لاجل الوزان
والمعنى انهم كانوا يستمرون على حالتهم حين المعصية فلا
يستطيعون تقدما الى معصية اخرى ولا رجوعا الى التوبة والايمان
وهذا انفصاح معرب عن غاية القدرة وعن انهم مكلفون وتلخيصه
انه تعالى لو شا لاجبرهم على ان لا يفعلوا شرا ولو شا لاجبرهم
على ان لا يفعلوا الا شرا فهذا معنى الايتين فافهمه من اللفظ جيدا والمعنى
في قوله مكانتهم ليس المراد به المكان بل المكانة من كان يكون مثل المجاعة
من جاع يجوع وانظر كونه تعالى سمى منعه لهم عن ان يروا الشر طمسا
وعن ان يروا الخير مسخا فافهمه جيدا لان من لا يرى الشر ليتقيه
حكمه حكم الاعمى ومن لا يرى الخير ليفعله حكمه حكم الممسوخ كالقرد
الذي يحاكي فعل الانسان وليس بانسان فاشار سبحانه على انه خلقهم
على غاية من الكمال وذلك هو القدرة على الترقي بالشيء وضده وانه

لو شاء المسخ هم فيبقى حكمهم كحكم الفرس والحمار الذي له مكانة معروفة
فلا سبيل له الى ان يتقدم عنها ولا ان يتأخر وليس المقصود بالانسان
ذلك اذ لو لم يكن قادرا على التقدم والتأخر لما خوطب بقوله تعالى
لمن شاء منكم ان يتقدم او يتأخر ولكان ممسوخا على مكانته كبقية
الحيوان الذي لا يستطيع ان يزيد في اعماله ولا ينقص منها ولهذا لم
يكن مكلفا واذا تحققت هذه الجملة فهمت ان المجبرة حكمهم كحكم من
احل نفسه في محل من مسخ فانحط عن رتبة الانسان الى مكانة احد
الحيوان وان هذا المسخ انما وقع فيه من جهة نفسه لا من جهة ربه
الا ان كان عقابا فهو ممسوخ بلا شك وجعل منهم القردة والخنازير
الاية وفي هذا الموضع كلام اذا لم يمد الله السامع بوعي لا يفهمه
الناطق البليغ منه شيئا بل من نور الله قلبه راى بعين الاعتبار وا جنب
الافتكار حقيقة الامر بما قاله الله تعالى مما فعله في الوجود ورأى
حقيقة ما فعله في الوجود بما قاله في كتابه ولا شاهد اصدق من
الكتاب ولا مشاهدة اوضح من العيان فتبصر وتدبر وكرر وتفكر
فكل لما خلق له ميسر فلما عرفنا سبحانه انه لو شاء طمس ومسخ
لكنه لم يفعل بل مكن وكلف فزجر وعنف ضرب لنا مثلا
بما فعله لنفهم بما فعله ما ذكر انه لو شاء لفعله فقال ومن نعمره
ننكسه في الخلق اي نجعله منكوسا في خلقه وفسر ذلك بقوله ومنكم
من يرد الى ارذل العمر وبين ارذل العمر بقوله لكيلا يعلم من بعد

علم شيئا فعرفنا سبحانه بما قاله وفعله انه كما جعل ذلك المعمر
ضعيفا بعد القوة جاهلا بعد العلم فكذلك هو قادر على ان يسلب
الانسان معرفته ويغشي بصيرته في الدنيا فلا يرى قبيحا ولا مليحا
واذا صح في العقل ان القادر سبحانه قادر على ان يسلب الانسان حا لتين
فقد صح انه قادر على ان يسلبه احدهما فلو سلبه الشر لكان
ملكا ولو سلبه الخير لكان شيطانا وعلى كلي التقديرين لم يكن كاملا
اذ كماله بالترقي فلو سلبه الشر لكان مترقيا بالخير فقط دون اجتناب
الشر وانما اراد الله ان يمكنه من الطرفين معا دون احدهما
فيكون انسانا جامعا وجاءت الالفاظ بامثال ظاهرة والكلام
بالفاظ تدل على البصر وان كان المراد بها البصيرة وانما جاء كذلك
ليفهم الخاص خاصا والعام عاما ولتكون اذا فهمت في ظاهرها
فهمت تامة المعنى في باطنها كذلك ثم ان الله سبحانه لما ذكر ما
ذكره من البصر والاستطاعة وجعل ذلك برهانا بالعيان دالا
على قدرته قال افلا يعقلون من افعالنا في الدنيا وما شهدوه
بالعيان ما يوجب لهم الايمان بالقران ولما ذكر العقل امرهم بالاستدلال
به والتعقل لهذه المعجزة الكبرى وهي القران فاتبع الكلام بقوله
وما علمناه الشعر اشارة الى انه سبحانه هو المعلم للشعر
وغيره وانه لم يجعل في قدرة النبي صلى الله عليه وسلم ولا في فطرته
شعرا وان ذلك ليس بنقص فبين ذلك بقوله وما ينبغي له وذلك ليتحقق

الناس ان ما جاء به ليس من معدن الشعر ان هو الا ذكر وقرآن مبين
لينذر من كان حيا من سائر الناس ويحق القول على الكافرين
منهم اولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها
مالكون وقوله ايدينا اشارة الى انا لم نكل ذلك الخلق الى غيرنا بل
نحن تولينا عمله كما يتولى احدهم عمله بيده فهو خطاب للناس
بما يفهمونه من عاداتهم واحوالهم وكذلك فافهم في اسماء الصفات
فلا يجوز ان يتعالى عن الذات او غير الذات لانه تعالى فوق العقول المدركات
وهو القديم الذي لا تتسلط عليه المحدثات فهو فوق الاسماء والمسميات
وانما هذه الايات والاسماء المعلومات اشارات معروفات تدرك
بحسب سامعها الى تلك الذات فلا تحمل الالفاظ المتشابهة عن فهم
المعاني الواضحة بل انظر الصانع بالصنعة ولا تحجب بها عنه
فان المراد بقوله وذللناها لهم الاستناد لانها عليه ولهذا نسب
ذلك اليه وقوله فمنها ركوبهم بفتح الراء فهو المركوب ومنها
ياكلون ولهم فيها منافع ومشارب افلا يشكرون ثم قال
ما معناه انه بعد تنبيههم بهذه النعم بالانعام وغيرها من ضروب
الانعام يشركون فقال تعالى واتخذوا من دون الله آلهة
لعلهم ينصرون بهم في الدنيا ثم اخبر عنهم بقوله لا يستطيعون
نصرهم في الدنيا وهم لهم في الاخرى جند محضرون اي محضرون
معهم في جهنم لقوله فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم

وكقوله فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس ولهذا سماهم
جنداً فانهم فقد اختلف في تفسيره فلا يحزنك قولهم اي دعواهم
واعتقادهم تقول هذا قول الرافضة تريد دعواهم واعتقادهم
ولهذا بعده انا نعلم ما يسرون وما يعلنون اي وعلينا الجزاء اولم
ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مخاصم مبين
وضرب لنا مثلا اي من المخلوقين لانهم لا يقدرون على الخلق
ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم من الرمة بالكسر
وهي العظام البالية والجمع رمم ورمام تقول رم العظم يرم
رمة اي بلي فهو رميم والرم بالكسر الثرى ايضا ورمة الشيء
بالضم جملته قل يحييها الذي انشاها اول مرة وهو بكل خلق
يريد خلقه المخلوق وانه العالم بهذه الصنعة عليم الذي جعل
لكم من الشجر الاخضر نارا وفي النار عجايب ليس هذا موضع التطويل
بذكرها وكونها تكون من الشجر الاخضر اعجب لانه لما كان الشجر من الماء
والماء ضد النار كان جعل الشيء من ضده من اعجب العجايب ولما كان
يبعد على الاذهان لو قال الذي جعل لكم من الماء نارا خاطبهم
بالقريب المالوف ودل به على البعيد المعروف فاذا انتم منه
توقدون اوليس الذي خلق السماوات والارض وهما اكبر من
خلق الناس بقادر على ان يخلق مثلهم ولم يقل مثلهما لان
المراد الناس الذين انكروا البعث فلا يكون جواب هذا السؤال الا

بلى وهو الخلاق العليم ثم انه قال ابلغ ما يحصل به القدرة في افهامنا
فقال انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون ولا تصغ
الى ما قيل من خطاب المعدوم فهو معدوم عندنا موجود في
علمه سبحانه حيث لا قبل ولا بعد وقد بينا في مسئلة العلم انه
لا يقال هذا في العلم قد تم بل العلم به قد تم ولا معنى للعلم الا الاحاطة
بالمعلوم علما لا وجودا ثم نبهنا على انه لا يقال له سبحانه عالم
الا من جهتنا اي من جهة المعلوم وهو العلي العظيم فلا تقف
مع احتمالات شكول العبارات اذا فهمت بها الاشارات بل
تجرد عن الامثلة والالفاظ التي هي معابر تعبر بها الى المقاصد لك
فان تقف معها عاد ما من شانه ان يهدي مضلا لك واذا اضل
ما من شانه ان يهدي فمن يهدي فسبحان الذي بيده ملكوت
كل شيء والملكوت هو الملك وفيه تفخيم وتعظيم وقيل الملكوت
يشاهد بالبصائر مما يدرك بالابصار ومما يتعقل والملك بالابصار
فقط ومن بيده ملكوت الكل واليه ترجعون اي فيجزي العباد
باعمالهم في المعاد يجب ان يستعدوا للقائه غاية الاستعداد

سورة والصافات

آية ١٨١

بسم الله الرحمن الرحيم والصافات صفا
جمع صافة وهي الجماعة من الملائكة وفيه اشارة الى النفوس
البشرية وصفوفهم في الصلاة وفيه اشارة الى الطير
لقوله اولم يروا الى الطير فوقهم صافات والمراد الملائكة
فالزاجرات زجرا زجرته اذا منعته في قول او فعل عما
لا يجب والاشارة ايضا الى الملائكة لانهم ياتون بالكتب المنزلة
وفيها الزواجر عن الله لعباده وفيه الاشارة الى الانفس الطاهرة
الزكية الزاجرة لغيرها كانفس الانبياء والاولياء او يزجرون
خواطر السوء والشياطين عند القاء الوساوس في صدورهم
حين الصلوات وغيرها ولهذا بعده فالتاليات اشارة الى
ساير الجماعات الصافات الزاجرات التاليات واللفظ يتناول
العموم من جميع الزاجرات ومن زجر نفسه عن الوقوف في
مواطن التهم هو اهل ان يذكر في القسم وانظر الى قوله فالتاليات
ذكرا ولم يقل تلوا كما قال صفا وزجرا وذلك لان اللفظ الذي هو
تلى يتلو يحتمل ان يكون المراد به التلاوة ويحتمل ان يراد به معنى
التبعية كقوله والقمر اذا تلاها فلما جاز الاشتباه ازاله بقوله
ذكرا ليعلم انهم الملائكة يتلون الوحي عند الانزال ويتلون التسبيح
لا يفترون وقيل ان التسبيح من الملائكة يجري مجرى التنفس
من بني ادم وفيه اشارة الى الجماعات من المومنين لقوله ان
الذين يتلون كتاب الله ويجب ان تفهم من الالفاظ المطلقة مطلقا
فان الصافات والزاجرات والتاليات يحتمل ان تكون ضروبا
من الملائكة في كل مقام ملائكة لهم حال معلوم فاقسم الله

بمن حاله ذلك من جميع ملائكته وجميع مخلوقاته ثم قال إن
إلهكم لواحد رب السموات والأرض وما بينهما ورب
المشارق ذكر المشارق لأن منها يكون النور ولولا النور
لما ظهرت السموات والأرض وما بينهما ولهذا قال في سورة
الشعراء بعد ذكر السموات رب المشرق والمغرب ولما
ذكر المشارق التي تدل على مشرق كل كوكب من الكواكب السيارة
كما بيناه ذكر بقية الكواكب بقوله إنا زينا السماء الدنيا معرفا
لنا أنه رب الكل سبحانه والسماء الدنيا هي القريبة إلى الأرض من
السبع الطباق وقال بزينة الكواكب ولم يقل بالكواكب
لأنها ليست في السماء الدنيا بل زينتها في الأولى من جهتنا.
فانظر إلى تحرير العبارة وما يلزم عنها من معرفة أن السموات
شفافة وأن نور الكواكب وصورها تخترق الكل حتى تظهر
لأعين البشر فيعلمون باختلاف حركات مؤتلفة وائتلاف
حركات مختلفة بنظرها ولولا النظر ويفهمون بها أمورا أخر
بعد الاهتداء بها في ظلمات البر والبحر ومن هاهنا نعلم أن قوله تعالى
وجعلناها رجوما أن الرجم ليس بنفس الكواكب لأنه كان يكون الرجم
بالزينة فتزول الزينة وإنما هي راجعة بأثرها كما يوقد من
السراج سراج آخر ولا ينقص فهذه تخلق الله منها الشهاب
ولهذا قال فأتبعه شهاب ومعنى قوله وحفظا أي وحفظناها

وحفظا من كل شيطان مارد ثم ذكر صورة الحفظ المشار
إليه فقال لا يسمعون إلى الملأ الأعلى بيانه أنهم عن السمع
لمعزولون وقوله إلى الملأ كما تقول اسمع إلى والفرق بين قولك
سمعت الحديث وإلى الحديث أن الأول يفيد الإدراك والثاني يفيد
الإصغاء وإلى هاهنا هي كقوله ألم تر إلى ربك وقوله ويقذفون
من كل جانب أي من جوانب السماء والأرض وهو مطلق دحورا
دفعا يدحر دحرا ودحورا ولهم عذاب واصب في
الآخرة وقد تقدم في النحل ويحتمل أن يكون من معنى الوصب
وهو التعب إلا من خطف الخطفة تمثيلا لفرط السرعة
بالخطفة ويشبه أن تكون الإشارة بالأوائل المذكورين هاهنا
إلى شياطين الإنس كالكهنة وأمثالهم وهؤلاء أمثل بالجن لقوله
بعد فأتبعه شهاب ثاقب الشهاب تقدم والثاقب كأنه
يثقب البصر بضوئه والاستثناء هاهنا منقطع وليس من
استثناء يسمع من السماء إلى الملأ وإنما عطف خطفة دون
السماء والخطفة بالسمع وهذا فيما كان وليس هو الآن ولهذا
قال خطف ولم يقل يخطف خطفة بل الخطفة كما سنفهمه في
موضعه فاستفتهم يشير إلى الناس أهم أشد خلقا أي أقوى
خلقة أم من خلقنا من الجن والملأ الأعلى الذي لا تصل الجن إلى أن
تسمع إليهم ثم قال ما يعرفهم به ضعفهم إنا خلقناهم من طين

لا ريب بمعنى لا شك تقول رابني الشيء يريبني ريبا بضم الراء في المستقبل
وفتحها في الماضي واللازب الثابت المعروف تقول صار الشيء ضربة
لازب وهو افصح من لازم ويريد بالضربة ما يضربه ضربة
واحدة بالطين المحكم عجنه فيلصق في ضربة واحدة لصوقا
تاما فشبه به الغريم والثقيل من الناس اذا لزمك فلم يتحول
عنك بل عجبت منهم كيف يظنون انهم يعجزون الله مع ضعفهم
ويسخرون بل وبما جئت به كقوله ان يتخذونك الا هزوا واذا ذكروا
لا يذكرون واذا راوا اية يستسخرون اي يريد بعضهم من بعض
ان يسخر فهم يسخرون ويستسخرون ويحتمل انهما لازم وغير
ليلا يتكرر ويكون الاول عايدا الى النبي صلى الله عليه وسلم والثاني
الى القران ولهذا عين الاية في الثاني وقالوا ان هذا الا سحر مبين
ءاذا متنا وكنا ترابا وعظاما ءانا لمبعوثون هذا القول بصورة
الاستهزاء اوءاباؤنا الاولون قل نعم وانتم داخرون تقدم
فانما هي زجرة واحدة من الملائكة بامرنا ويحتمل ان تكون الاشارة
بقوله في اول السورة فالزاجرات زجرا الى معنى هذه الزجرة فاذا
هم ينظرون ما وعدوا به وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين
فيقول الله تعالى هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون الفصل
من قوله ان الله يفصل بينهم يوم القيامة احشروا الذين ظلموا
وازواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله لان منهم من كان

يعبد مع الله الها اخر فاهدوهم الى صراط الجحيم وقفوهم اي
احبسوهم على الصراط انهم مسؤولون ماذا اجبتم المرسلين
ويحتمل ان يكون السؤال ما لكم لا تناصرون ثم اخبر عنهم
بقوله واقبل بعضهم على بعض يتساءلون قالوا لاوليائهم انكم
كنتم تاتوننا في الدنيا عن اليمين هذا معروف عند النصارى
يقول راهبهم احذروا الشيطان ان ياتيكم من ناحية اليمين
اي من طريق الامر بالمعروف والخير يعني ليوقعكم في الفتنة
والمراد ها هنا اي انكم كنتم شياطيننا وذلك معلوم من قوله
ثم لاتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم
يريد بالايمان صور الخير وبالشمائل صور الشر وقوله من بين
ايديهم كالامل ومن خلفهم كالاسف على الغائب والفاني فافهم
الاتيان كيف ذكره في الموضعين وافهم قوله في الموضعين عن اليمين
ويزيدك ما سياتي بعد قالوا اولياؤهم ليس كما ادعيتم بل انتم
لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان كقوله في
سورة ابراهيم وحذف ها هنا ما بينه هناك للزومه وهو قوله
الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا انفسكم واكتفى
بقوله ها هنا بل كنتم قوما طاغين فحق علينا قول ربنا
لاملان جهنم من الجنة والناس انا لذائقون العذاب الاليم
فاغويناكم كما غوينا انا كنا غاوين اي فلو كان الموجب لكم

وغيّكم غيّنا اللزوم ان يكون الموجب لغيّنا غيّ آخر يقدم وليس كذلك
بل كنا غاوين فاخبر الله تعالى بقوله فانهم يومئذ في العذاب مشتركون
انا كذلك نفعل بالمجرمين انهم كانوا اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون
ويقولون ائنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدّق
المرسلين لانهم اخبروا بمجيئه فيما انزل عليهم ولا يظهر من اخبارهم
الا دعوى فلما جاء صلى الله عليه وعليهم اجمعين صدّق الدعوى
بمجيئه ثم تمم الكلام لهم بقوله انكم لذائقوا العذاب الاليم
وما تجزون الا ما كنتم تعملون الا عباد الله المخلصين اولئك
لهم رزق معلوم فواكه وهم مكرمون في جنات النعيم
على سرر متقابلين يطاف عليهم بكاس من معين معين الما
اذا جرى على الارض ومعين جرى بيضاء لذة للشاربين لا فيها
غول ما يغول العقل ويشوشه كما يفعل الخمر ومنه الغول
ولا هم عنها ينزفون نزفت ما البير اذا نزحته والمعنى انه لا
تتغير عقولهم عن شربها وقد بيناه في سورة الواقعة وعندهم
قاصرات الطرف عين نجل الاعين وهي الواسعة ومنه قيل
لبقر الوحش عين والقاصرات قصرن الطرف على الازواج لا
غير كانهن بيض مكنون اشار الى در مكنون ولما كانت الدرة
تكون صغيرة ابقى لقبا للدر وهو المكنون وقال بيض اشارة الى
در كالبيض في المقدار فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون قال

قائل منهم اني كان لي قرين يقول ائنك لمن المصدقين ائذا متنا
وكنا ترابا وعظاما ائنا لمدينون لمجازون والدين هو الجزاء
لان من لم يعتقد الجزاء لا يعمل عملا لا للدنيا ولا للآخرة ولما
كثر استعمال لفظة الدين استعملت بمعنى ما يكون عليه الجزاء وهو
العمل في القرآن مثل ذلك في قوله ان الدين عند الله الاسلام
قال الله هل انتم مطلعون على اصحاب النار فاطلع القائل فرأى
قرينه فرآه في سواء الجحيم قال تالله ان كدت لتردين ولولا
نعمة ربي لكنت من المحضرين معك في جهنم افما نحن بميتين الا
موتتنا الاولى وما نحن بمعذبين وهذا يدل على شدة الفرح
والتعجب لعظم ما هو فيه من الفوز حين رأى ما هو فيه
قرينه من العذاب فقال ان هذا لهو الفوز العظيم وقوله
لمثل هذا فليعمل العاملون يحتمل ان يكون هذا من كلام القائل
ويحتمل ان يكون من كلام الله ثم قال الله تعالى اذلك خير ام شجرة
الزقوم انا جعلناها فتنة للظالمين ضرب مثلا بالشجرة وسماها
بهذا الاسم وعرف صورة طلعها تمثيلا ولهذا قال كانه وهذه
الشجرة هي التي اكل منها ادم وهي شجرة المعرفة المخالفة لما عرفه
الله فاهل النار كانوا في الدنيا مع معارفهم فاعيدوا في الآخرة
الى معارفهم وصارت لهم غذاء لان الله تعالى جعل هذه الشجرة
فتنة في الدنيا يمتحن بها ادم ومن بعده الى يوم القيامة وانما

عن الظالمين بالذكر لأن من ذاق هذه الشجرة افتتن ومن افتتن ولو بذوقها
فقد ظلم نفسه الا ترى ان آدم لما ذاق الشجرة قال ربنا ظلمنا انفسنا
فهي فتنة للظالمين وقد قال الله عن الانسان مطلقا انه كان ظلوما جهولا
اى في قوته الظلم لنفسه فمن لم يفتتن بما جعله الله فتنة للظالمين
فليس بظالم ولا مفتون وان كانت الشجرة قد جعلت فتنة والفتنة
لا تكون في الآخرة الا بعد ان تكون في الدنيا لأن الأمر هناك مبني على
ما هنا فهذه الشجرة هي لكل انسان ولا احد الناجي منها الا آدم ومن
تبعه في التوبة واما ان يكون احد من بني آدم ولم ياكل من هذه الشجرة
فهو من باب المستحيل لأن الولد تابع للأب واذا تأملت بقية هذه
الآيات تحققت ان المراد شجرة المعرفة كما بيناها في سورة البقرة
لأنها اصل كل بلاء وهي اصل الجحيم ولهذا ذكر الله لفظة الأصل بقوله
انها شجرة تخرج في اصل الجحيم فهي اصل كل بلاء وعذاب من عذاب
الدنيا وعذاب الآخرة لكل ضال وكافر ومخالف فهي تخرج في اصل
الجحيم بلا شك ولما كان ما يتولد عنها من الافكار الردية والمقاصد
المهلكة والنيات الموبقة كالرؤوس للأعمال الشيطانية لأن
الفكرة راس العمل شبهها الله بالنخلة فقال **طلعها كأنه رؤوس
الشياطين** وصورة الشيطان يمثل بها وان لم تر قط يقال
كأنه شيطان وكرأس شيطان ولما كان المثل المضروب يجب ان
يكون تاما في ظاهره قال تعالى **فانهم لآكلون منها فمالئون منها**

البطون ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم الشوب الخلط والمزج
يقال هذا شيء يشوبه شيء اى يمازجه ولما كان مزاج مشروب
اهل الجنة مسك وكافور كان مزاج شراب اهل النار من حميم
وقوله ثم ان لهم عليها اى زيادة والشوب هو الخلط وانما هو خلط
في المشروب **ثم ان مرجعهم لالى الجحيم** اى بعد شرب الحميم
بمعنى انهم يرجعون آكلين من الشجرة وهو معنى يطوفون بينها وبين
حميم آن وهذا لا يدل على خروجهم منها بل كما تقول يتردد بين
اكل وشرب من ذلك الطعام وذلك الشراب ابدا ثم بين الله ما ضرب
به المثل الظاهر بقوله على صورة الجزاء لما بدا منهم **انهم الفوا آباءهم
ضالين فهم على آثارهم يهرعون** يستحثون ويزعجون بالاسراع
فبين الله تعالى ان المذكورين لو لم يميلوا عن الأمر الالهي في الدنيا
الى ما قضت به معارفهم لما استحقوا في الأخرى ذلك فهذا الظاهر
لا يشك فيه عالم ولهذا قال تعالى بل هو آيات بينات في صدور
الذين اوتوا العلم فلما مالوا في الدنيا عن الأمر ابقاهم الله في الدنيا
مع ما مالوا اليه واعادهم في الأخرى الى ما مالوا اليه فعادوا الى
في بحر العدم لأن معارفهم محصورة معلومة ونعم الله التي اعدها
لهم في الآخرة جزاء على امتثال الأمر لا تحصى ولا تحصر ولهذا قال
تعالى فلا تعلم نفس ما اخفي لهم ولم يجعل وصفهم في الدنيا الا قوله
يؤمنون بالغيب والغيب ما غاب عن علم العالمين ولما كانت

شجرة المعرفة اصلا للضلال من ادم ومن بعده قال تعالى ولقد ضل
قبلهم اكثر الاولين ولقد ارسلنا فيهم منذرين ينذرونهم
الميل عن الامر الى معارفهم اذ لا ضلال الا من هذا الميل فانظر
كيف كان عاقبة المنذرين ثم قال الا عباد الله المخلصين
ولم يصفهم بغير الاخلاص فان المخلص من العبيد لا تكون له معرفة
تخالف معرفة مولاه ومن فهم هذا فهم ومن عمل به نجا والسلام
ولما ذكر الاخلاص نبه على عظم نفعه في الدعاء فقال ولقد
نادانا نوح فلنعم المجيبون ونجيناه واهله من الكرب العظيم
وجعلنا ذريته هم دون قوم نوح الباقين ولو لم يقل هم
لكان الجميع في موضع الابتداء ويحتاج الى الخبر وتركنا عليه في
الاخرين سلام على نوح في العالمين انا كذلك نجزي المحسنين
انه من عبادنا المؤمنين ثم اغرقنا الاخرين وان من شيعته
لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم اذ قال لابيه وقومه ما
ذا تعبدون أئفكا الكذبا تخلقون وآخر تريدون لاجل
الوزن والمعنى أكذبا تريدون تخلقون آلهة دون الله تريدون
فما ظنكم اي شيء تظنون برب العالمين هل تظنون انه لا يصلح
للعبادة او لا يعاقبكم على الكفر او آلهتكم خير فنظر نظرة في النجوم
فقال اني سقيم قوله في النجوم هو رؤيته الكوكب والشمس
والقمر ثم قال لنفسه معترفا اني سقيم اي ان كنت اعبد

هؤلاء وهو قوله لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين ولهذا
قال في النجوم ولم يقل اليها وقوله نظرة اعلام بانه لم يتردد
مرات بنظره في ذلك بل نظرة واحدة بها حصل الاعتراف
بالصانع وجحد ما سواه ثم عاد محتجا على قومه بعد تحققه
بمحجة يقينه وقيل بل فعل فعل داود عليه السلام وقصته
مشهورة في كلام انبياء بني اسرائيل تلخيصه ان الملك مرض
مرضا شفاؤه في استماع الانغام وكان داود يضرب بالعود
ويقرأ عليه الزبور فاحضروه الى الملك فلما ضاق عليه
وقته وتعطلت عبادته بما شغلوه به دخل على الملك في بعض
الايام وامسك بعضادتي الباب كالمتشبث بهما ثم غيب عينيه
وشخص ببصره الى السماء ثم وقع كأنه يشعر الملك انه تم بصرع
فصاح الملك وقال أناقص مجانين انا اخرجوه اخرجوه فاخرجوه
فذهب الى عبادة ربه ونجا منهم ولما قال ابراهيم لقومه ما
خاف منه القتل فعل مثل ما فعل داود ولهذا قال نظرة ودليله
فتولوا عنه مدبرين ولهذا بعده فراغ الى آلهتهم
وقيل انه راغ بطعام بحيث لو صادفه احد لقال جيت
لاقرب قربانا فقال الا تاكلون استهزاء والكلام الاول
اولى بالنص ولم يسمع عن ابراهيم شيء من ذلك ولا يلزم انه
احضر طعاما بل كما يقال للطفل الا تاكل وان لم يكن هنالك ما

يوكل ما لكم لا تنطقون فراغ عليهم اي اسرع في خفية ومكر
ضربا باليمين بيده اليمنى وانما قال الا تاكلون ما لكم لا تنطقون
تهجينا لعبادها اذا سمعوا عنه ما قاله وحجة عليهم فاقبلوا
اليه يزفون لفظ يقال على النعام اذا اسرع في مشيته زف
الظليم يزف زفيفا والزفيف كالذفيف واما زفاف العروس
فهو من زف يزف بضم الزاي وعبر بهذه اللفظة اشارة
الى انه اقبل اليه من يثقل عليه المشي مسرعا فكيف من يخف
قال اتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون من الاصنام
التي تنحتونها ويا للعجب من قلوب المجبرة كيف لا تفقه كلام الله
في هذه الاية بل قد جعلوها حجة لهم خصوصا اهل العلم منهم
ولو كانت الاشارة بقوله تعالى وما تعملون معنى واعمالكم وكان
المفهوم من خلق الاعمال اجبارا لكان الاحتجاج من قوم ابراهيم
على ابراهيم لان ابراهيم قد قال لهم ان الله خالق اعمالكم فيلزم
انهم مجبرون على عبادة الاصنام ولا تبديل لخلق الله ولا شك
ان الخلق لا يتعلق بالعمل المنسوب الى العباد والله تعالى قد اضاف
الاعمال اليهم وانما قال والله خلقكم وخلق هذه الاجسام التي
تعملونها وتنحتونها وتتخذونها الهة فان الاله لا يكون مخلوقا لله
معمولا للبشر ولهذا لم يقل والله خلقكم واعمالكم فالفرق
ظاهر بين قوله تعملون وبين قوله واعمالكم فمن ادعى ان خلق

الله

الله للاعمال اجبار على الاعمال فقد ابطل اعماله وخالف الله بقوله ولا
تبطلوا اعمالكم اذ لا ابطال لما يخلقه الله فيعود الامر بذلك لغوا تعالى
الله عن ذلك واما من لم يلتزم الجبر باعتقاده خلق الله للاعمال فهو
المراد كما بينا ذلك في موضعه والغرض ان نفهم من الكلام ما يقيم
الحجة على عباد الاصنام قالوا ابنوا له بنيانا واملوه نارا فالقوه
في الجحيم فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين من نار جهنم
وقال بعد النجاة وعلو القدر في الاعين اني ذاهب من ارضكم الى
عبادة ربي سيهدين هو مطلق الهدى الى رضاه واما تخصيصه
اي الى مكان اهاجر اليه فاتمكن فيه من عبادة ربي سبحانه وفي التوراة
انه كان ميلادا لابراهيم بأتور الكسدانيين وخرجوا ليصلوا الى كنعان
فجاوا الى حران وخرج ابراهيم من حران وعمره خمسة وسبعون
سنة وان الجوع اشتد فانحدر ابراهيم الى مصر وقال لزوجته انت
حسنة الوجه فاذا راك المصريون بسبب انني بعلك فقولي انك اختي فلما دخلوا
مصر ذكرت المراة عند فرعون واخذت الى بيته فضرب الله فرعون
بالاوجاع فاستدعى ابراهيم وقال لم لا قلت لي انها زوجتك خذ زوجتك
وكلما اعطيتك ووصى عليه فرعون فاخرج مكرما بجميع ما معه ومثل
ذلك لما رجع ابراهيم الى ملك فلسطين قال عن زوجته هي اختي فلما اخذها
الملك ولم يدن منها راى في نومه ان الله يقول له رد زوجة الرجل
ليستغفر لك فانه نبي والا تموت انت وكل من لك فدعاه ابو مالك

وهو الملك وقال له اي شيء عملت معي اتريد ان يهلك ملكي ويهلك قومي فاستغفر
لهم ابراهيم فشفاهم الله لانه كان الله قد جعلهم كلهم لا يأتيهم
نسل وكذلك جرى لاسحق في ارض فلسطين قال عن ربقة زوجته
انها اختي فرأى الملك في نومه كان اسحق يلاعب ربقة فدعاه وقال
ماذا فعلت معنا لو واحد اخذ زوجتك هلكنا كلنا بسببه واعلم
ان هذه القصص جاءت في التوراة متتابعة بعد قصة ادم ثم ذكر
قصة بعد قصة الى ان ذكر دينة ابنة يعقوب وان ابن الملك اغتصبها
نفسها فلما حضر ابوها قال ابن الملك لاخوتها تزوجوني بها فقالوا
بشرط ان يختتن منكم كل ذكر ففعلوا فقام اولاد يعقوب فقتلوا
كل ذكر في تلك المملكة وهم بالجراح عن الختان ثم تلا قصة يوسف ومن
قبله يهوذا مع زوجة ابنه ثم قصة لوط مع ابنتيه كل هذا بعد قصة
ادم فافهم التحذير وانظر كم قد ضرب له مثلا وكم قد اوضح وكون مثل
ملوك الكفرة لم يستجيزوا هذا الفعل ومن فعل منهم قبل هو وكل ذكر له
وافقه من كل قصة ما فيها من الحكم فلم اطول بتفصيل ذلك والجميع تحذير
من هذه الشهوة وما ذلك الا ان هذه الشهوة قوام الوجود فمن قدر
على تركها فقد قدر على ترك الوجود ولما كان هذا الجسم اذا قام بالامر
منزعة الانوار واذا خالفه اطاع ابليس وكان الانبياء اعلم بذلك من
غيرهم لم يكن ميلهم الى الذات الجسم من اجل الجسم بل من اجل ما لاجله
كان الجسم ولهذا لم يقصد ابراهيم التمتع بالزوجة بل قصد ما من اجله

امر
خلق الله الزوجة فقص علينا من ابراهيم توحيده ثم هجرته ثم مقصوده
من الزوجة مع ذكر الهجرة تعليما لنا ان المهاجر ليس من هجر الاوطان
فقط بل من هجر الشهوات ايضا حتى في المباح ولهذا قال رب هب لي
من الصالحين ولذا هذا السؤال لم يكن في اسحق بل في اسمعيل لانه
كان الاول باعتراف الخصوم واما اسحق فالبشارة كانت به من غير سؤال
وفي التوراة مكتوب ان ابراهيم لما بشر باسحق قال يا رب ليت اسمعيل
يحيى بين يديك فافقه هذين الدليلين احدهما من القران وهو ان اسحق
بشر به ابراهيم من غير ان يسأل وفي اسمعيل سأل والثاني من التوراة
يصدق ما قلناه من انه بشر باسحق من غير سؤال وكانت البشارة
به بعد سنين وبعد ما كبر اسمعيل وكان ابراهيم على قوته عندما
ولد اسمعيل وبعد ولادته ايضا كان على قوته لقوله واذ يرفع ابراهيم
القواعد من البيت ثم قال واسمعيل واما اسحق فانه جاء في كبر ابراهيم
بدليل وانا عجوز وهذا بعلي شيخا اي انه عجز عن اتيان النساء وكانت
سارة هي التي اذنت له في وطي هاجر ام اسمعيل ولم يقصد ابراهيم بذلك
التمتع بل الولد لان زوجته لم تكن تحبل ولهذا اذنت له باخذ الجارية
فلزم من هذا انه انما سأل الله الولد الاول وهو اسمعيل فبشرناه
بغلام حليم واما اسحاق وان كان بشر به ابراهيم فبشرت به سارة
لان البشرى كانت لها ابلغ فلا تنس فبشرناه بالفاء وبعدها بالواو
فلما بلغ معه السعي عرفنا الله عمر اسمعيل في ذلك الوقت بانه

بلغ الى حد يمكنه ان يسعى مع ابيه ولم يقل المشي او العدو وقوله معه اي
مع الاب لا وحده وهذا يدل على الصبي بحيث لم ينفرد في السعي بنفسه
قال يا بني اني ارى في المنام اني اذبحك ولم يقل رأيت وهذا عدل
به للتقابل ليكون اني ارى فانظر ماذا ترى وقيل انما ضرب له مثلا برؤيا
المنام لأن تنفيه ذلك والانبيا منامهم كاليقظة لصدقهم وقوله
اذبحك ولم يقل ذبحتك اذ لو قال لكان فهو رأى كأنه يذبح ولم ير
انه ذبح وبقي مع الامر ولم يرد يقظة قولا على ما رأى نوما فعلا ولم
يستطع بعد فعل ما رأى ان يفعل ما لم يره فكان الامر ونادينا ان
يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا وقوله فانظر ماذا ترى من
الرأي لهذا قال يا ابت افعل ما تؤمر ولم يقل ما امرت بل كأنه
ما كان في المستقبل من ذلك وغيره ستجدني من الصابرين
ولم يقل انني من الصابرين لأنه لا يعلم بما يحدث في قلبه ولهذا
اضاف المشيئة الى ربه راضيا بما يرضى له به فلما اسلما
لامر الله وتله للجبين تله اي شده والتلايل الشدائد كالزلازل
ومنه التلي وهو ما يوضع على اطراف السهام يلف عليها الغا وانما
فعل ابراهيم ذلك للجبين اي للجبن الذي هو ضد الشجاعة
لأنه يجبن عند الذبح واما من قال تله بمعنى جعله تلا على الارض
اي صرعه على جبينه كما يقال رماه لراسه اي على راسه فجائز
ذلك وناديناه ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا لأنه لم

يبر اكثر من ذلك وقوله ههنا انا كذلك نجزي المحسنين ثم
كررها في ما سياتي فذلك الجزا راجع الى السلام كما نبين واما
ههنا فمعناه لما احسن ابراهيم بذبح ابنه ابتغا لما
اريناه احسنا اليه بابنه وفديناه وكذلك جزيناه
فكان الجزا المعجل له في الدنيا على ولده ولده لما وهبه ابراهيم
لله وهبه الله لابراهيم جزا على هبته له ولهذا كرر
لفظ الجزاء للمحسنين ليكون الجزا دنيا واخرة فجزاه
قبل الموت بحياة الولد وبعد الموت بحياة الذكر والسلام
عليه ابد الابدين ولهذا مدحه بقوله ان هذا لهو البلا
المبين الاختبار البين من الله لابراهيم ومن ابراهيم
عليه السلام ومن ربه تعالى لاسمعيل واذا فكرت في
هذه الواقعة العظيمة كانك تشاهدها رايت عجبا من اب
كبير معه ابن له صغير وهو وحيده وحبيبه وهو يمضي ما
امر به من ذبحه بيده فاراد الله من غيرته على قلب ابراهيم
لئلا يسكن فيه حب غيره ان يختبره باحبهما اليه وانه
يفعل ذلك مباشرا له بيديه ومع هذا فانه تعالى اراد ان
يري ابراهيم ما سيكون من ولده اسمعيل في مستقبل
الزمان بهذه العلامة التي ظهرت عنه من القبول وفي
ذلك حكم لا خبر بفهمها اولوا العقول وفديناه بذبح

عظيم وفي هذا تعليم من الله لعباده اذا وقع احدهم في شدة
هو او ولده او غلامه ان يفدي تلك النفس والله سبحانه يقبل
التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ولقد نقل عن بعض
التجار انه مرض له مملوك حتى جزم الاطبا بموته فشكى التاجر
ما يجده من فقده لبعض العلماء فامره ان يعتق من مماليكه
ما يساوي قيمة المريض ففعل فشفي وسلم ذلك المريض وعاد
الى صحته وهذا من الفقه الحسن وفي التوراة ان ابراهيم
راى كبشا من كباش الجبل كالايل بعد ما اشتبكت قرناه في
الشجرة هذا نص التوراة وانما راه بعد اشتباك قرنيه
لئلا يتعب ابراهيم في مسكه اذ قدر عليه وتركنا عليه
في الاخرين من الامم وهم امة محمد صلى الله عليه وسلم
سلام على ابراهيم ورفع سلام على الحكاية اي ما هذا صورته
من القول وهو سلام ولما قدم قوله انا حذفها ها هنا ولان
كذلك تكررت في قصة ابراهيم خاصة فقال كذلك نجزي
المحسنين ثم تمم القصة بقوله انه من عبادنا المؤمنين
ولما فرغ من هذه القصة قال بالواو العاطفة وبشرناه باسحق
نبيا من الصالحين فلما ذكر احد الولدين باسمه وهو اسحق لزم ان
يكون الاخر هو الذبيح وهو اسمعيل وفي التوراة ان الملحمة وقعت
في بلاد الارض واخذ لوط في جملة الاخيذة وان ابراهيم لما سمع

ذلك جرد من اصحابه ثلثماية وثمانية عشر رجلا وفرقهم فرقا في الليل
ورد الاخيذة ورد لوطا وخرج ملك سدوم وعمورا وغيرهما
يلقونه وكان جل الاخيذة لملك سدوم فقال لابراهيم اعطني الانفس
وخذ لك رزق فقال معاذ الله ان اخذ شراك النعل سوى ما اكل الصبيان
فخاطب الله ابراهيم في المنام لا تخف اجرتك عندي فقال يا رب وما
اصنع باجرتي وليس لي وارث من صلبي فاراه الله كواكب السماء وقال
نسلك يكون هكذا كثرة فامن بما قاله الله فحسبه الله له صلاحا
واثابه ووعده الله ان يعطي نسله من نهر مصر الى نهر الفراة ولما
اشارت سارة باخذ هاجر وحملت هاجر باسمعيل بارك الله فيه
لابراهيم وقال له يلد ملوكا ويكون من ظهره امم وبعد اربعة عشر
سنة بشرته الملائكة باسحق عند عبورهم عليه لاجل اهلاك
قوم لوط فهذا نص التوراة الى يومنا هذا ومن قال انما كانت البشارة
الثانية بنبوة اسحق فقد ترك العقل واظهره ونبذ النص وما جا
به فاما العقل فانه يجب ان يسمى اولا مسمى ثم يخبر عنه ولم يسم اسحق
الا اخيرا وايضا كيف يذكر احد الولدين في موضعين ببشارتين والاخر
لا يذكره واما النص فقد رتب في الذكر ما رتبه في الوجود وايضا ان
النص انما بشر باسحق لا بنبوته وانما وصفه بعد البشارة به بالنبوة
ونص التوراة وسائر بني اسرائيل يعترفون بان اسمعيل كان مولودا
من قبل اسحق وقوله في التوراة خذ ابنك وحيدك فلو كان له ابنان

لما قال وجيدك وقد قال في التورية انه لما بشر الله ابراهيم باسحق
قال ابراهيم يا رب ليت اسمعيل يحيى بين يديك فاجابه الله ولاسمعيل
سمعتك ها انا باركته وقال ها هنا وباركنا عليه وعلى اسحق والضمير
في قوله عليه عايد على الذبيح المقدم ذكره ويحققه ما قلناه قوله بعده
ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين فقد صح بطريق المفهوم
والصريح واللزوم ان قوله ومن ذريتهما بالتثنية لا يريد الا ذرية
ولدي ابراهيم ولو اراد ذرية ابراهيم لاغنى قوله ومن ذريته ولكان
كلاهما سواء عاد اللفظ على ابراهيم او على اسحق لان اسحق هو ذرية
لابراهيم ولا جائز ان يعود على اسحق لانه قال بعده وعلى اسحق فان
قلت هو على ابراهيم قلنا يلزم ان يكون له ذرية غير اسحق حتى يصح قوله
ومن ذريتهما ولا يكون ذلك الا عن ذرية اسمعيل لا عن اسمعيل نفسه
فقط لان اسمعيل لم يكن ظالما لنفسه ولا اسحق بل من ذريتهما
فافهم هذه الجملة جيدا وانظر الى هذا الكلام الدال البين الواضح لقوم
يفقهون وافقه ولهذا لما فرغ من ذكر ابراهيم واسمعيل واسحق
قال بعده ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما من
الكرب العظيم ونصرناهم اي القوم فكانوا هم الغالبين واتيناهما
الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم وتركنا عليهما
في الآخرين سلام على موسى وهارون انا كذلك نجزي المحسنين
انهما من عبادنا المؤمنين انظر كيف اتبع ذكر النعمة على الاخوين

١

اسمعيل واسحق بنعمة على اخوين ايضا نبيين وهما موسى وهارون
وهو كما ذكرت لك انه يتبع الكلام بمثله ليفهم كل واحد منهما
بالآخر فافهم وان الياس لمن المرسلين اذ قال لقومه الا تتقون
اتدعون بعلا البعل بلسان العبري الصاحب وهو بفتح البا والعين
وهو ايضا عندهم صنم لانهم لقبوه بالصاحب وقوله وتذرون
احسن الخالقين ظن بعض الجهال انه لو قال اتدعون بعلا وتدعون احسن
الخالقين كان اولى وحمله على ذلك حب التجانس في اللفظ فظنه الفصاحة
وانما الفصاحة تمام المعنى ولو قال ذلك لوقع الخلل تقول دع فلانا
اي اتركه في دعة من غير اذى فكان يكون المعنى اتدعون بعلا وتتركون
احسن الخالقين في دعة اي بل اتركوه في اذى فافهم. الله ربكم ورب
آبائكم الاولين فكذبوه فانهم لمحضرون في جهنم الا عباد الله المخلصين
منهم وتركنا عليه ولم يقل عليهم او على آله بل عليه كما قال عن ابراهيم
في الآخرين سلام على الياسين المعنى الياس وانما هو مثل ميكال
وميكائيل وانما هو منون وغير لاجل الوزن وقرا ابن عامر بوصل الهمزة
جعل الاسم ياسين والالف واللام للتعريف وقرا غيره باظهار الهمزة
لتكون اصلية في الاسم وفي كتب انبياء بني اسرائيل اسم الخضر اليا واسم
غلامه اليسع ويحتمل ان يكون الياس اسم احدهما وان يكون غيرهما
انا كذلك نجزي المحسنين انه من عبادنا المؤمنين وان لوطا لمن
المرسلين اذ نجيناه واهله اجمعين الا عجوزا في الغابرين ثم دمرنا

الآخرين وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل اي ليلا ونهارا افلا
تعقلون وان يونس لمن المرسلين اذ ابق هرب الى الفلك المشحون
فساهم من المساهمة وهي القرعة وسهم الشخص نصيبه فكان
من المدحضين الدحض الزلق لانه يسقط عنه المار فيه ادحضه
ساقطه فالتقمه الحوت وهو مليم ملام وغير الملوم ان وقيل
هو الذي اجرم جرما يستحق عليه اللوم فاوجب لغيره ان يلومه
فهو مليم له وذلك هو اللائم وهذا لا يخالف الاول في المعنى وقد يكون
الملوم غير مليم فافهم وانما قال التقمه اشارة الى عظم الحوت وانه
اخذه لقمة واحدة ويكون مليم اصله من الام يليم مثل اقال يقيل
متعل فلولا انه كان في بطنه من المسبحين للبث في بطنه
الى يوم يبعثون فنبذناه القيناه من بطن الحوت عريانا بالعراء
بالمد وهو الفضا لا ستر به وهو سقيم لما جرى عليه من الهول
ويريد به هاهنا سقم الجسم ويحتمل انه سقيم عند نفسه اي معترف
بما بدا منه وهذا اولى لانه كقول ابراهيم اني سقيم وقد بيناه وانبتنا
عليه شجرة من يقطين يفعيل من قطن بالمكان اذا اقام به وقصة
الشجرة ويونس والمدينة مشهورة في كتب انبيا بني اسرائيل وكان
اسم المدينة نينوى واختصار القصة ان يونس عليه السلام لما اوحى
الله اليه ان ينادي في مدينة نينوى بعد اربعين يوما تنقلب هذه
المدينة قال الهي انت غفور واني اخاف ان انادي بذلك فيتوبوا اليك

فتعير لهم فادعى كذابا ثم هرب في سفينة لئلا يبعث الله غيره وهاولاء
الانبيا كانوا فيهم يتوبون من الخلق الى الحق فاذا كلفوا العودة الى الخلق كان
منهم حال المستقيل مما كلفه طمعا في رحمة ربه لا جهلا به وكان
لهم من الانس بالله والثقة برحمته وحلمه وما عودهم من ذلك ما
به اقدموا على مثل ذلك وكانوا سذجا وقد اختارهم الله لطهارة
قلوبهم فلما نزل في السفينة امر الله الريح فهاجت بالسفينة حتى
ايقن اهلها ان لا نجاة لهم ويونس يقول لهم احملوني والقوني في البحر يسكن
عنكم فبسببي جرى عليكم هذا وكانوا لا يقدمون على فعل ذلك فامرهم
ان يقترعوا الى ان وقع السهم عليه فلما رموه التقمه الحوت فسكن البحر
وهم يلومونه على ما قد فعل حتى استحق به ذلك وانه نادى في ظلمة بطن
الحوت في ظلمة البحر في ظلمة الليل وقيل سمعت الملائكة صوته فقالوا
الهنا نسمع صوتا معلوما من مكان مجهول فلما امر الله الحوت القاه
في بر ليس به ظل فانبت الله شجرة من يقطين في ليلة واحدة اظلته من
حر الشمس ففرح بها فامر الله دودة تعقر اصلها فيبست في ليلة
فحزن يونس لذلك فضربها الله مثلا له وقال يا عبدي حزنت وشفقت
على شجرة كانت في ليلة وبادت في ليلة فهلا اشفقت على مائة الف من عبادي
فمضى يونس وانذرهم فلبسوا المسوح وجلسوا على الرماد فكشف الله
عنهم ومتعهم الى حين فهذا مختصر ما في كتب انبياء بني اسرائيل الى
الآن وقوله وارسلناه الى مائة الف او يزيدون في راي العين

يكونون لا اقل من ذلك فالناظر اليهم يقول هاولاء مائة الف او يزيدون
وانما ينقصون في نظر الناظر فلا ولم يكن في تعريف العدة بالتحقيق فائدة
لان ذلك لا يقوم عليه برهان فلم يذكره الله سبحانه بل ذكر ما فيه فائدة
واما اهل المدينة فكانوا فيما قيل في كتب انبياء بني اسرائيل سبع مائة
الف بالنساء والاطفال ولا يناقض كلام القرآن لما جاء عندهم لان
الرسل انما يجب تصديقها على البالغين العاقلين اذا لم يكن ما عند بني اسرايل
مبدلا والله اعلم فآمنوا فمتعناهم الى حين ولما فرغ من ذكر
الانبياء عليهم السلام قال لنبيه عليه السلام فاستفتهم الربك
البنات ولهم البنون لانهم كانوا يستحبون البنين ويقتلون البنات
ويدسونهن في التراب احيا يزعمون ان ذلك قربة الى الله سبحانه ثم
اضاف الى ذلك امرا اخر هو من اقاويلهم ودعواهم فقال ام خلقنا الملائكة
اناثا وهم شاهدون وهذا كقوله اشهدوا خلقهم ثم قال نوعا اخر
من اقاويلهم الا تعتبرون يا قوم انهم من افكهم ليقولون ولد الله
وانهم اي جميعا لكاذبون ثم قال على طريق الانكار والتعجب بصورة
الاستفهام منسوقا بما تقدم من قوله ام خلقنا الملائكة اناثا اصطفى
البنات على البنين ما لكم اي شيء لكم كيف تحكمون بهذا الحكم لله ولا
ترضونه لانفسكم افلا تذكرون انكم تفترون وانما اخر هذه الآية
وجعلها بعد ذكر الولد لمشابهة اقوال النصارى في مريم لاقوال
المشركين في الملائكة ام لكم سلطان مبين برهان تتسلط به الحق

على المبطل وابلغ ما يكون ذلك كتاب من الله والكلام للنصارى والمشركين
ولمن يدعي هذه الدعاوى فقوله فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين
في دعاويكم المراد به ان يعم كل محجوج من اهل الكتاب والاعراب فتقدير
الخطاب للاعراب فأتوا بكتابكم ان كان لكم كتاب فايم يحكم ان
الملائكة اناث ويكون تقديره للنصارى على ظاهره وهو ان ليس
في الانجيل ان عيسى ولد الله بل ابن البشر ثم وصف من اقوالهم ما هو
باد بافعالهم فقال وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا اي من جهة
العبادة لهم كقوله بل كانوا يعبدون الجن ولهذا قال بين ولم يقل
وجعلوا الجنة انسابا بل بمعنى انهم نسبوا الجنة الى ما ينسب اليه
الاله من العبادة وهذا الكلام جا عن الكفار عاما اي منهم من يدعي
كذا في الملائكة ومنهم من يقول ولد الله ومنهم من يعبد الجن ولقد
علمت الجنة يريد من امن من الجن ولهذا قال علمت وقال بعده
انهم ولم يقل انها والمعنى ولقد علمت الجنة المومنة ان العابد من
الانس والمعبود من الجن لمحضرون في جهنم ثم قال سبحان الله
عما يصفون ثم استثنى من الاحضار بقوله الا عباد الله المخلصين
من الجن ومن الانس كقوله ثم ننجي الذين اتقوا والمراد من الاحضار الجزا
ولا يكون جزا اعداء الله الا النار ثم حكى الله مقالة الجنة المومنة في
الجنة الكافرة وان عمم الانس ايضا ولهذا جا بالفاء في قوله فانكم وما
تعبدون ما نافية انتم عليه على الذي تعبدون اي على عبادته

بما بينا الا من هو صال الجحيم فلزم ان يكون الفاتن والمفتون في النار
وهذا كما تقول ان المال محسوب الا ما وصل بالامس ثم تقول مبينا
بالفاء فان الاصل كيت وكيت والمراد عليه عليه كذلك فقولك فان
بالفاء هو برهان ما ادعيته من قبل ثم قال سبحانه حاكيا عن مقالة مومني
الجن ومومني الانس وعن الملائكة لان الجميع عادوا فية واحدة وما
عداهم في النار واتاها ولاء فهم المذكورون بقوله الا عباد الله المخلصين
وهم يقولون لكفرة الجن والانس وما منا الا له مقام معلوم اي في العبادة
والاولى في الجنة او النار ويكون المعنى ما منا اجمعين اي منا ومنكم ثم قالوا
عن انفسهم وانا لنحن الصافون اي لا انتم وهذا تمثيل بالطير في سرعة
السير فهم والملائكة بمنزلة واحدة وهذا مخصوص بمومني الجن
والملائكة وقوله وانا لنحن المسبحون يعم الجميع ويخص مومني
الانس وقد قيل ان هذا كلام الملائكة فقط وانما هذا كلام الجميع اذ
تميزوا فية واحدة عبادا مخلصين فاليهم الاشارة بالاستثناء فلما
قالوا للكفار من الجن والانس انكم لصالوا الجحيم الا عباد الله المخلصين
عللوا ذلك القول بقولهم فانكم وما تعبدون ثم قالوا عن انفسهم
وانا لنحن الصافون وانا اي والانس لنحن المسبحون لا انتم اي فكيف
يكون مقامنا ومقامكم واحدا او كيف تدعون عبادتنا ونحن عبيد
صافون مسبحون لانه قد تقدم ذكر المشركين وامثالهم من اهل
الكتاب فذكر الله اعتراف الجن والملائكة بانهم عبيد لا معبودون

احتجاجا بالمعبود على العابد المشرك ولهذا بعده وان كانوا ليقولون
اي جعلوا لله شركا من الجن والملائكة وان كانوا ينتظرون كتابا
ويقولون لو ان عندنا ذكرا من اذكار الاولين لكنا عباد اي
من عباد الله المخلصين تقديره فاتيناهم ذكرا فكفروا به
فسوف يعلمون في الدنيا ودل على ذلك بقوله ولقد سبقت
كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وتباعهم
ابدا لقوله بعده وان جندنا لهم الغالبون فتول عنهم
حتى حين اي حين قليل في الدنيا وابصرهم وبعدها وابصر
بغيرهم والمعنى ان الاولى في الدنيا بنصر المومنين عليهم وهي
تختص بالمذكورين والثانية في الاخرى وهي تعم سائر
المكذبين من المذكورين وامثالهم ولهذا في الاولى والثانية
فسوف يبصرون اي باعينهم في الدنيا ثم ذكر العذاب
الدنيوي افبعذابنا يستعجلون فاذا نزل بساحتهم الفضا
المتسع من الوطن ويدل على عظم العذاب فانه ينزل بالفضاء
الواسع من ديارهم فيملاه فكيف بالضيق فساء صباح
المنذرين اذا نزل وتول عنهم حتى حين اخر وابصر
حال كل مكذب مثلهم فسوف يبصرون ما تواعدناهم
به في الاخرة كما ابصروا ما تواعدناهم به في الدنيا ولما كان
هذا التواعد الثاني لهم بما يجري عليهم في الاخرة ختم بالحمد

فقال سبحان ربك رب العزة الذي لا يمتنع عليه جزاؤهم
عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

سورة ص

٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم ص والقرآن ذي
الذكر قسم وتقديره إنك لمنذر لقوله بعده وعجبوا
أن جاءهم منذر منهم وهذا كقوله يس والقرآن الحكيم
إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم ولهذا حسن أن يقول
هاهنا بعده بل الذين كفروا في عزة وشقاق كم أهلكنا من
قبلهم من قرن فنادوا حين أهلكنا لهم بذنوبهم أي
بالثبور والويل ولات حين مناص قيل إن التاء مضافة
إلى لا والواو واو ولكن والحين مدة من الزمن والمناص
مشتق من ناص ينوص نوصا ومناصا أي مفرا ناص بمعنى
فر وتأخر وقيل إن التاء دخلت في كلام العرب على لا كما دخلت
على ثم ورب تقول ثمت وربت وربما وربتما ويكون المعنى
فنادوا ولكن لا وقت مفر لأن الفرار إنما كان يمكن من قبل
وقد قال تعالى لا ملجأ لهم لا مفر لا محيص ويحتمل أنه لما
كان في لغة العرب أن لا بمعنى فات ركب عليها الواو
فصار المعنى فنادوا وفات حين مناص أي وقد فات ما يطلبونه
من النجاة حين المفر في الدنيا لأن المفر إنما هو في الدنيا فهاوكه

نادوا وقد فاتهم الفرار في حين المفر فافهم هذا ثم عطف على قوله بل الذين
كفروا فقال عنهم لا عن القرون المهلكة لكنه لما كان كلام المهلكين أيضا
لرسلهم كذلك جاء كلام المهلكين معترضا بين الآيتين ولهذا جاء في أول
الأولى بل الذين كفروا وفي آخر الأخرى وقال الكافرون ولم يقل وقالوا
ليعرفنا بلفظة الكفر وإن عم المهلكين أولا بل إن المراد تخصيص
هؤلاء الأواخر المخاطبين من النبي صلى الله عليه وسلم فقال
وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب
أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب العجب والعجيب
واحد والعجاب هو الذي تجاوز حد العجب وكذلك الطوال وانطلق
الملأ منهم وبلسان الحال يقول منهم أن امشوا واصبروا على عبادة
آلهتكم إن هذا لشيء يراد أي الصبر على آلهتكم يراد لا ما جاء به هذا
الساحر ما سمعنا بهذا أي بما يدعونا إليه من التوحيد في الملة
الآخرة يشيرون الى نسبتهم بدليل ما بعده إن هذا إلا اختلاق
أأنزل عليه الذكر من بيننا دون جميعنا بل هم في شك من ذكري
بل لما لم يذوقوه يذوقوا عذاب ولا يحتمل بل حين يذوقون عذابي
يؤمنون إذ لا يذوقونه إلا حيث لا ينفعهم الإيمان ولو كان ذلك
مراد الآية لم تكن يذوقوا مجزومة بل يذوقون أم عندهم خزائن
رحمة ربك العزيز الوهاب كما وهب هذا النبي من بينهم أم لهم
ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب أي

لقطع هذه الرحمة من السماء عن هذا النبي صلى الله عليه وسلم وكل
ما يتوصل به الى المطلوب من حبل او سلم او وسيلة او رحم او طريق
او نحو ذلك فهو سبب فافهم ذلك في مواضعه وقوله جند
ما هنالك مهزوم من الاحزاب الجند جمع معد للحرب والاحزاب
هم الذين يتحزبون مجتمعين على غيرهم وقد قيل ان المعنى فليرتقوا
في الاسباب جند من الاحزاب يشير الى المخاطبين ولم يوحد الفعل
مع الجماعة بل كقوله واسروا النجوى الذين ظلموا ثم قال ما هنالك
مهزوم منهزم من الاحزاب ولما ذكر الاحزاب في اخر الاية
فليرتقوا في الاسباب اي هؤلاء ثم قال ما هنالك جند مهزوم وهم
منهزمون من خوفه من الاحزاب ولما كان اللفظ مشتبها قدم قوله
جند لان المرتقين هم الاحزاب فلو لم يعبر بهذه العبارة لظن الظان
ان الجند الذين هم من الاحزاب لا ينهزمون ولما كان ما عبر به ايضا
فيه بذكر الاحزاب اشتباه قال في اخر الاية التالية اولئك الاحزاب
فافهم المراد بتكرير الكلمة ليزول الاشتباه قال في اخر الاية التالية
اولئك الاحزاب فافهم المراد بتكرير الكلمة ليزول الاشتباه
كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد اي ذو الجبال
العالية والجبال اوتادا واذا وصفه بانه صاحب الجبال وسكانهم
فهو صاحب السهول وقطانهم ويشير بذلك الى عظم الملك وثمود
وقوم لوط واصحاب الايكة ثم قال معظما اولئك الاحزاب اي

اولئك ذوو الباس والقوة لا هؤلاء وسموا احزابا لانهم تحزبوا على
انبيائهم فعرفنا بهذه الكلمة ان الاحزاب التي ذكرها من قبل يريد بها
احزاب المكذبين وانهم لو ارتقوا كلهم في الاسباب ليس لهم اثر ولا
هنالك جند منهزم منهم اي من خوفه من الاحزاب وتقديره
ومع تلك القوة والباس اهلكناهم فكيف يطمع هؤلاء بالنجاة وقد
كذبوا كما كذب اولئك ان كل الا كذب الرسل فحق عقاب وما
ينظر ينتظر هؤلاء الا صيحة واحدة ما لها من فواق ولم
يقل ما لهم بعدها فواق ومن لتبيين الجنس ويقال اذا حلبت الناقة
تركوها حتى تفوق بدرتها اي ترجع اليها لبنها ثم يقال قد فاقت فاحلبها
فنفى الله ذلك القدر وهذا لانه ضرب لهم الامثال بما يعرفونه
ثم بعد ما اخبر عن كفرهم اخبر عن حبهم للعاجلة وميلهم
الى الشهوات فطلبوا نصيبهم من الاخرى في الدنيا حتى يؤمنوا
والا فلا وذلك قوله وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم
الحساب اي حتى نؤمن ولهذا ذكر عنهم ذلك بلفظ العجلة
كقوله يحبون العاجلة فهم جعلوا نصيبهم سببا لايمانهم وانما
الايمان يكون سببا لما ينعم الله به عليهم في العاجلة من نصيبهم
ان شاء الله سبحانه ذلك والقط النصيب واصله القطع من
قولك قط الشمعة والقلم اذا قطعه وتقول منه ما رأيت قط
اي قطع الدهر الذي مضى فقال الله تعالى اصبر على ما يقولون
وضرب المثل لقدرته على ان يؤتيهم ما طلبوه بداود عليه

السلام فقال واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب
والأيد القوة على امتثال الأمر والانتهاء عن النهي والأواب
الرجاع إنا سخرنا الجبال معه يسبحن فقط فاعلم أنه تعالى
سخرها في التسبيح لا في السريان كما قيل ولولا قوله تعالى وإن
من شيء إلا يسبح بحمده لقلنا إن المراد بالجبال أهلها كقوله واسأل
القرية بالعشي والإشراق والطير محشورة وإنما الطير
دون الجبال سخرها محشورة كل له أواب يؤوب إلى ما يأمره
به لأنه هو وسليمان علما منطق الطير وهذا وإن فهم
منه التسبيح أيضا إذا أمرهم به لكنه أخره ليكون الطير زائدا
عما سخرت له الجبال وشددنا ملكه بعد ذلك بملائكتنا
وبما تشدد به الممالك وآتيناه الحكمة فيما يفعله وفصل
الخطاب فيما يقوله وهو أن يفصل بين المتخاطبين فيأتي بالبيان
الفاصل بين الحق والباطل وهل أتاك نبأ الخصم يتناول العدد
والفرد فإنه لفظ المصدر والمصدر للجنس والخصم يلزم
عنه خصم له ثم أوضح بعده فقال إذ تسوروا المحراب تسور
الدار إذا دخل من سورها لا من بابها وعرفنا أنهما كانا
ملكين أو ملائكة أرسلوا إلى داود ولهذا قالوا لا تخف كما قالت
الملائكة لإبراهيم والمسطور إلى الآن في كتب أنبياء بني
اسرائيل أن داود رأى زوجة أوريا وأنه سيّره إلى الحرب

ذكر

وكتب إلى مقدم الجيش أنه يقدمه أمام التابوت وهو الصندوق
الذي فيه التوراة وأن الله ضرب له مثلا ليعلم منه داود إثما
جناه فيتوب وهذه القصة بعينها مسطورة عندهم مطولة
مفصلة إلى الآن ويجب أن تعلم أن الله تعالى لم يذكر ذلك عن داود
وموسى ويونس ذما لهم ولا أنه تعالى أراد منا أن نتأول وننفي
الخطأ عنهم وإنما أراد أن لا يقنط أحد ولا ييأس من فضل الله وإذا أخطأ
بواحدة من هذه لا يظن أن الله أغلق عنه باب التوبة بل يدري أن
الإنسان من حيث هو بشر يخطئ ولو كان نبيا وأن الأنبياء كانوا بشرا
ولم يكونوا آلهة ولا ملائكة ولم يكونوا معصومين إلا من الكذب
خاصة كما بيناه وإذا كان مثل الأنبياء يجري لهم مثل ذلك ويستغفرون
ويغفر الله لهم فيجب أن نطمع نحن أيضا في المغفرة لأن الجهل منا
والتقصير والغفلة والبعد عذر لنا عند الله سبحانه ونحن أولى
بأن يعفو عنا إذا تبنا لأنا أولوية قرب لكنا كنا أولى بالخطاء فنحن أولى
بالعفو منه سبحانه لغلبة الجهل فينا وقوة دواعينا فإذا قهرنا
ما يقهرنا بالتوبة عنه كان جهادنا أشد من جهاد الأنبياء وعذرنا
أبلغ من عذرهم كما تعفو عن الطفل الذي لا يعقل ولا تعفو عنه
إذا عقل فافقه حكمة ما عرفنا الله به وفكر في مثله تجد كثيرا
من مثل ما ذكرته ويجب أن تقف مع المقاصد من ضرب الأمثال
لا مع المعارضات المحتملة للأمثال فإنك تعلم أن الملكين المتحاكمين

عند داود عليه السلام لم يعز أحدهما صاحبه في الخطاب وأن
أحدهما لم يملك تسعا وتسعين نعجة ولا يقال إن هذا من الأمور
من باب الافتراء ولا بقية الكلام كان المقصود به ظاهره بل المقصود
به صحيح في نفسه فلا تغتر من الجنة والنار والأمثال التي ذكرها
الله في البعث وتبديل الأرض والسموات ظواهر الكلم فقط بل افهم
المقصود به وإن كانت القدرة صالحة لذلك وغيره وكذلك فافهم
في قوله يد الله وفي سائر الأسماء كما بيناه في موضعه وفي كل ما يشكل عليك
وتريد أن تختلق له تأويلات لتمشي كلام الله على الصورة الظاهرة
التي تظن أنها المراد وعلى كثافته وتجسيمه مما لا يفهمه مثلك الى كنهك
ولا تضيع الوقت والزمان في مثل ما يضيعه البطالون من الجهلة
في بحثهم عن القرآن هل هو بحرف وصوت وقديم ومحدث ونقطه
وشكله وغير ذلك مما ليس من أهله وهو عند العالم معلوم واضح.
لا يحتاج إلى الكلام فيه فكأنهم عند ذلك يبحثون في تسع وتسعين
نعجة وكم كان فيهن ملقحا وقرنا وكم كان عمر كل واحدة وغير
ذلك مما يحتمله السؤال وهو على الباحث فيه وبال ومع
هذا يكفر بعضهم بعضا ويلعنه وتركوا ما لأجله ذكر الله
ما ذكره وشغلوا بغيره ويحسبون أنهم مهتدون واعلم
أن داود لما تسوروا عليه المحراب كان جالسا للحكومة وكانوا
جماعة من الملائكة وفيهم الخصمان لهذا قال إذ دخلوا على

داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم
بيننا بالحق ولا تشطط تبعد عن الحق فتعسف به ومنه
شطت الدار أي بعدت واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا
أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها
من قوله وكفلها زكريا وعزني في الخطاب قال لقد ظلمك
بسؤال نعجتك إلى نعاجه أي ليضيفها إلى نعاجه وإن
كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا
الصالحات وقليل ما هم ولما حكم داود بذلك اعتبر
نفسه أولا لتكون أقواله مطابقة لأفعاله فذكر قضية
أوريا فظن داود أنما فتناه اختبرناه بزوجة أوريا
وإرساله إلى نفسه بهذه الحكومة وقوله وظن أي حين
ما ظن ذلك رجع إلى الله وقد بينا في لفظ الظن ما يجب في
موضعه وعلمنا الله بهذه القصة كيف يجب أن نكون
فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب فغفرنا له ذلك
في الدنيا وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب وقلنا له بعد
المغفرة والرضى يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض
فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى بهذا يصير كل
حاكم حاكما ولا يحتاج إلى تعليم من مخلوق وتصير دنياه
سلما إلى آخرته وبالعكس فيضلك عن سبيل الله إن

الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا
يوم الحساب ثم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم
ما هو مبني على الكلام الأول وهو قولهم ربنا عجل لنا قطنا
اي في الدنيا فقال تعالى اذكر من عجلنا له وهو داود وما
خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا اي حتى اذا طلبوا
شيئا اجبناهم اليه اذ لا يتبع الحق اهوا الخلق ذلك ظن
الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ام نجعل الذين
امنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ام نجعل
المتقين كالفجار اي لو فعلنا ذلك لبطل غرض التكليف
الذي لأجله خلقنا السموات والأرض فنكون قد خلقناهما
باطلا وما كان هذا الطلب الذي هو عجل لنا قطنا انما هو دنيا
طلبوها قال ما معناه لم ننزل اليك دنيا نفرقها عليهم وتعطيهم
نصيبهم منها انما هو كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا
اياته وليتذكر اولوا الألباب به ووهبنا لداود سليمان
نعم العبد انه اواب لما ذكر انه نعم العبد بين ما ذا
فقال انه اواب فبهذا كان نعم العبد ولا يكون اوابا الا بان
يفتتن فيتوب من الفتنة سوا افتتن بها ام رجع عنها دون
الافتتان وهذا الذي يذكر عنه جميعه انما هو على سبيل
التعظيم له والمدح ولقد فتنا سليمان اي اختبرناه بما

بفضله وجربناه وامتحناه فوجدناه صابرا اوابا فلذلك قال بصوته
المادح انه اواب وذكر اوبة من اوباته فقال اذ عرض عليه
بالعشي الصافنات الجياد قيل الصافنات هي الخيل التي تقف على
ثلث وترفع اليد اليمنى وفي الحديث من احب ان تقوم له الرجال
صفوفا فليتبوا مقعده من النار والاشارة بالصافنات الى الخيل
تربط لغزوتها لا السايمة واصل الجياد من الجيد ثم صار اسما
علما وهذا يدل على خيل معروفة عنده وانما جي بها التعرض
عليه وكان في اخر النهار فقال معترفا وحاكيا لا مستفهما
بل بالانكار اني احببت حب الخير وليس المراد الا الخيل فكانه
قال اني احببت الخيل لحب الخير واضاف الحب الى الخير كقوله
بل مكر الليل والمعنى معلوم من قوله تعالى على طريق الذم وانه
لحب الخير لشديد اي الخير الفاني ومنه قوله تعالى ان ترك خيرا
فقال عليه السلام منكرا على نفسه لما راى منها اني احببت
هذه الخيل حب الخير الفاني اي لمحبة الخير لانه يجوز ان يحبها
ويكون ذلك لله تعالى فلا تكون المحبة لها من اجل الفاني بل من اجل
الجهاد والباقي وكذلك كل محبوب قد يحب لذاته الفانية
وقد يحب لغيره مما يبقى وحذف ذكر الخيل قبل قوله احببت
لبيان ما حذفه ولانه انما انكر على نفسه مطلق المحبة التي
هي لحب الخير وبينه بقوله عن ذكر ربي والذكر هاهنا

هو مطلق الذكر فقط لأن الأنبياء لا يغفلون فرأى من نفسه غفلة
لاشتغالها وهذا ميل عن معرفة بالميل لا عن جهل به ومعنى عن
ذكر ربي اي فضلا عن حبي ذكر ربي لأن حب الله يجب أن يكون
فوق كل حب لقوله والذين آمنوا أشد حبا لله وقوله حتى أي
الى أن توارت الشمس بالحجاب اي لم تغب بل توارت وهذا يدل
على زمن ولم يذكر الشمس لشدة دلالة ما ذكر على ما لم يذكر كقوله
ما ترك عليها من دابة لأن الدابة لا تكون الا على الارض ثم قال ردوها
علي اراد ان ينظر هل لنفسه بها تعلق بعد الاعتراف كما كان قبله
فردوها فطفق يقال طفق يطفق طفقا اي جعل يفعل بمعنى المبادرة الى
فعل الشيء فطفق سليمان يمسح مسحا أو الى مسح بالسوق جمع ساق
والأعناق وهذا لا يلزم عنه ان سليمان ضرب أعناق الخيل ولا سوقها
وانما مسح بيده على بعض السوق وعلى اماكن من الاعناق لأنها ردت عليه
بعد الغروب فمن حبه لها مسح عليها بيديه كما يفعل أحدنا اذا عرضت
عليه فرسه ليقلبها ويعتبر بدنها وعنقها مسحا بيده ولم يرد بقوله
مسحا قتلها لأن المسح اذا لم تضف اليه قرينة دالة على القتل كما يقال
مسح رأسه بالسيف فانه لا يفهم منه القتل بل هو كقوله تعالى وامسحوا
برؤوسكم فهذه الباء كذلك وأول ما يفهم القرآن بلفظ القرآن والواقع في الوجود
أن من احب فرسا فانه تارة اذا قلبها واستعرضها يمسح احيانا بسوقها
واحيانا بعنقها فكان المسح بيده مكان القبلة بفيه ولو كان قد قتلها لذكر الله

عنه الاستغفار والتوبة ولا جائز أن يذهب من نبي المال مثل
هذه ولا ذنب لها وان سليمان لأعلا قدرا من أن ينسب اليه مثل هذا
لأنه من أفعال السفهاء ولقد مدحه الله ومدح جيشه بقوله
عن النملة لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون وان اشارة
الى أنه هو وجنوده لا يؤذون نملة الا وهم لا يشعرون والمعنى والله
أعلم أنه عليه السلام لما وجد من نفسه ايثار حب الخير فضلا عن
حب الذكر أراد أن يعتبر نفسه بقوله ردوها علي ليعلم هل بعد
الاعتراف والتيقظ زال ذلك من نفسه أم لا فردوها فطفق فأخبر الله
عنه بعد الرد بقوله ولقد فتنا سليمان وليس المراد أن الله فتنه
بالخيل فقط وان كانت الاشارة ها هنا انما هي الى الفتنة بها لكن فتنه
في مدة حياته فتارة أعرض عن الفتنة وتارة افتتن ثم اعترف كقوله
ها هنا اني احببت حب الخير ولهذا هو أواب ولم يقل آيب وقوله
والقينا على كرسيه جسدا ثم اناب فيه تقديم وتأخير للوزان
وتقديره ولقد فتنا سليمان ثم اناب ثم أخذ يبين لنا ما يدل على
عظم المدح له بقوله والقينا على كرسيه جسدا لأنه كلما كانت الفتنة
أكثر كان قدر المفتون أكبر بشرط الانابة ولهذا أيضا مع الوزان أخر
ذكر الانابة وان كان الاخبار عما بعد كما نبين وذلك أن المراد بالجسد
الملقى على كرسيه انما هو ما جرى له بعد موته لنعلم بذلك عظمه
في حياته اشارة الى عظم الفتنة التي امتحنه الله بها في الحياة ولم يضل

بها وفي شدة طاعة الجن له ولا فتنة اكبر من الطاعة والملك ونفاذ الامر
وقد علمت قوله تعالى فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا
دابة الارض الآية وانما بين لنا بحديث موته صورة حاله في حياته
لنعلم انه بلغ الى حد بقيت طاعة الجن له بعد الموت كما كانت قبله
الى ان جرى ما جرى فلعظم هيبته في القلوب بقي على كرسيه حولا
بلا روح وهو يطاع وذلك اشارة الى عظم ما امتحنه الله به من كونه
اطيع الى هذا الحد ولم يلهه ذلك فالمقصود تعظيم سليمان ومدحه
بالقدرة والعلم لا ذم الجن واظهار جهلهم بالغيب لكنه تعالى افهمنا
في ضمن تعظيمه جهلهم بالغيب الى حد لا يفرقون به بين الميت والحي
مدة طويلة واما خطيئة سليمان التي استغفر الله بسببها هاهنا
فهي حب الخير الذي انما ظهر له من نفسه عند عرض الخيل فطلب
المغفرة لهذا الذنب وان يمتحن بما لا ينبغي لاحد من بعده الملك فكان
الامتحان العظيم بعد الذنب ولم يزل على ما يرضي الرب فلما فتن بالخير
واناب قال رب اغفر لي اي هذه المرة وهب لي من بعدها
ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي تقديره فلا افتتن به انك انت
الوهاب ولا شك ان سليمان عليه السلام كان يتحقق ان جملة الحياة
وما فيها من سائر الهبات فتن كما قال تعالى لنبلوهم ايهم احسن عملا
فلم يكن طلبه الا لما يبقى وهو حسن الصنيع فيما يفنى فلا ملك ابلغ
من ملك النفس ولا تملك الا بترك ما تملك فكان سليمان عليه السلام

ملكا كاملا عبدا وجاء الاخبار من الله عنه مبنيا على ما تقدم من
قولهم عجل لنا قطنا اعلاما بان الله يهب من يشاء ما يشاء كما وهب
لداود وسليمان لعلمه بهما وانهما يتصلان بما آتاهما فلو عجل لغيرهما
بعض ذلك لهلك وفي هذه القصة والاعلام بها تنبيه من الله تعالى
وانباء عن حكمته سبحانه كونه زوى الدنيا عن بعض المومنين كان الكلام
باوله واوله هاهنا وقالوا ربنا عجل لنا قطنا اي من الخير في الدنيا ليومن
بك فعرفهم قدرته على ان يولي من يشاء كما آتى داود وسليمان ولكنه
منع لان مثلها ولا جرى لهم ما جرى فكيف حال غيرهم لو آتاه ولهذا
قال وما ننزله الا بقدر معلوم فهذا التقدير من تمام الكرم والرحمة
لانه من يقدر على ان يقول اذا فتن ما قاله سليمان فانه مقام دعوى عظيم
لما تمكن في قلبه من قوة الايمان بربه وصدق الاوبة من ذنبه كانه
قال افعل معي هذا المطلوب من المغفرة عما مضى وامتحني بما يثبت ما
لا ينبغي لاحد من بعدي فلا افتتن به فلا تظنه طلبا للدنيا بل اظهارا
للقوة على تركها وهذا المعنى جاء عنه في العبرانية وهو امتحني بالله وجربني
صدق كلامي وقلبي وهذه قوة ايمان وقلبه وصدق عزم وجد فمن هاهنا
عرفته وان لم يكن كذلك والا فهو مناف لقوله اغفر لي لان الفتنة
هاهنا كانت بحب الخير ولهذا قال فسخرنا له الريح تجري بامره رخاء
لينة من الرخاوة حيث اصاب اصبت من الطعام اذا اكلت منه
واصاب السهم الغرض اذا وقع فيه وباشره ونال والشياطين

أي من الشياطين ويحتمل أن يكون معطوفا على الريح كل بناء وغواص
ويحتمل أن يكون هؤلاء شياطين الإنس وآخرين مقرنين في الأصفاد
مقرنين في الأغلال هذا عطاؤنا فامنن على من شئت يا سليمان
أو أمسك بغير حساب أي هذا عطاؤنا بغير حساب لأن كل
ما هو محسوب ينفد ولهذا قال فامنن وهو كقوله والله يرزق
من يشاء بغير حساب ولو كان قوله بغير حساب يعود إلى
سليمان لقال فأمسك أو امنن بغير حساب لأن المسك والمن عائدان
إلى سليمان وقد خيره الله وأما من قال بغير حساب في الآخرة فذلك
يضاد ما تقضي به العقول والنصوص لقوله عن الجميع لنبلوهم أيهم
أحسن عملا وقوله ليبلوكم فيما آتاكم ولولا ذلك لما قال سليمان
ليبلوني بل ليمتحنني ولهذا بعده هاهنا وإن له عندنا لزلفى وحسن
مآب وهذا يدل على أن سليمان لم يفتتن بذلك مع عظم ما أوتي وفي
هذه الجملة تنبيه على أن الإنسان لا ينبغي له طلب التزيد والمال والملك
إلا أن يكون ذلك الرجل الذي يثبت في مقام الامتحان كما قال سليمان ليبلوني
أأشكر واعلم أنه لا يجوز لأحدنا أن يزكي نفسه إذا اختبرها
وامتحنها في حال فوجدها على الواجب كمن جرب نفسه بمحل لا يحرم
وخرج سالما من الفعل ظاهرا ومن الانفعال باطنا وذلك لمعنيين
أحدهما أن الإنسان لا يعلم ما يخلق الله في قلبه ولا ينحصر له الفاتن
الذي قد يفتتن بسببه والثاني أن الإنسان إذا امتحن نفسه بشيء فذلك

بخلاف ما يمتحنه الله به لأن امتحان الإنسان لنفسه يكون عن علم وقصد
منه وامتحان الله له يكون بأمر خفي عنه فالأول لعلمه به قد يصبر عليه
والثاني لخفائه عنه قد يحول حاله إذا وصل إليه ولهذا خوطب
بعض الأولياء أنت ابن الحال الذي تأكل فيه طعامك وتشرب شرابك
أي لست ابن ما تجتلبه بالاجتهاد والاستعداد ذلك ينقص ويزيد
والمراد ما لا يتغير ولا يتبدل كما قيل
ومحكم الود لا يزداد إن هجر المحبوب حينا ولا بالوصل ينتقص
وقد قيل ما لا يفتتن الإنسان به فلا يحاسب عليه وسليمان لم يفتتن
بذلك بعد توبته بل قبل وكان أوابا ولما كانت هذه الآيات تشتمل
على ذكر النعم ذكر داود وما أنعم عليه وسليمان وما أنعم عليه
وأيوب وما أنعم عليه بعد الامتحان العظيم ليعلمنا الصبر والتوبة
والدعاء فذلك باب كل خير وكل تجارة ممكنة في الدنيا في كل آن فقال
واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب
من النصب وإنما خففت لئلا تشتبه بقوله وما ذبح على النصب
ولم يقل مسني ربي والوجه في كونه نسب ذلك إلى الشيطان وإن
كان الله سبحانه سلطه عليه لأن الله تعالى إنما أذن للشيطان بذلك
ترقية لأيوب فهو من باب الخير الذي لا يبلغه أيوب بعمله
وأما الشيطان فإنه أراد بذلك أن يضل أيوب ويحجبه فكانت إرادة
الحق تعالى لأيوب خيرا وإرادة الشيطان لأيوب شرا فنسب أيوب

ذلك الى الشيطان تحرّ وانما اخبرنا الله بذلك عن ايوب ومثله لنعي صورة ما جرى ونعتبر بمثل اعتبار ايوب ونصبر عند البلاء ونتعلم من الانبياء واذا اولنا كلامهم الى غير المقصود به فاي شيء نتعلمه منهم واذا لم نتعلم منهم فممن واذا كان المخبر عنهم هو الله فمن اصدق من الله حديثا واذا كان الاخبار بلسان عربي مبين فباي حديث بعده يؤمنون فلما استغاث ايوب بربه قال له ربه **اركض برجلك** ولم يقل برجليك ولم يقل اركض فقط ليعرفنا انه امره ان يضرب برجله الواحدة ضربة خفيفة كالركض تنشق الارض عن عين ماء ففعل فكان فقال الله تعالى **هذا مغتسل بارد وشراب** واخّر وشراب للموازنة وتقديره وشراب بارد ولما كان الماء الكثير يغتسل فيه اي في وسطه والقليل يغتسل به لم يقل غاسل بل مغتسل سماه باسم الموضع الذي يغتسل فيه لانه غدير اغتسل فيه ايوب وشرب منه فشفي باطنا وظاهرا وهذه نعمة العافية التي عليها تترتب ساير النعم **ووهبنا له اهله ومثلهم معهم** اهله اولاده ومثلهم اولاد الاولاد ولهذا ذكر المعية فافهم هذا دون غيره **رحمة منا** لان ذلك من باب الهبة **وذكرى لاولي الالباب** اي حتى يصبروا ويدعونا ومن جملة النعم **وخذ بيدك ضغثا** باقة من قضبان او مثله لانه حلف ان يجلد زوجته وعلم بعد ذلك انها بريئة فافتاه الله وعلمنا فيما ذا تكون الفتوى ثم قال **فاضرب به ولا تحنث انا وجدناه**

صابرا نعم العبد انه اواب واذكر عبادنا ابراهيم واسحق ويعقوب اولي الايدي والابصار وصفهم بالكرم تقول له عندي يد اي نعمة ووصفهم بحسن النظر في مصالح عباد الله وهو ايضا بضد ما ذم به غيرهم حين قال ام لهم ايد يبطشون بها وقد كانت لهم هذه الجوارح ولكنهم لما لم ينتفعوا بها ما اغنت عنهم فعادت كالمعدوم منهم وهاولاء انتفعوا بها ونفعوا **انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ما انزل عليهم من الكتاب والحكمة يذكرهم به فهو الذي اخلصهم به دون غيرهم مما انزله من الصحف هو ذكرى دار الدنيا الموجب لسلامة الحياة في الدار الاخرى **وانهم عندنا** في الاخرة **لمن المصطفين** المصطفاين فاستثقلت وفتحت فاؤها لئلا تشبه خطاب المؤنث **الاخيار واذكر اسمعيل واليسع وذا الكفل** التصنيف وقد ذكرناه **وكل من الاخيار هذا ذكر** لما قال واذكر عبدنا واذكر عبادنا قال هذا ذكر من انعمنا عليه من الاوابين والتوابين من المومنين المتقين فقال **وان للمتقين لحسن ماب جنات** كسر جنات على اضمار اي جنات **عدن** وهو كما في سورة الملائكة ذلك هو الفضل الكبير جنات بالكسر ويحتمل ان تكون الجنات هاهنا منصوبة على البدل من المنصوب باءن فهو اولى ولهذا نصب ما بعدها فقال **مفتحة لهم الابواب متكئين فيها** على سرر **يدعون** وكرر **فيها** لئلا يبقى الدعا مقصورا مع الاتكاء

نصف حزب

كما يدعوا المريض بفاكهة كثيرة وشراب من فصاحة العرب
ذكر البا مع المدعو وقد تكلمنا في ذلك وعندهم قاصرات
الطرف اتراب اقران في سن وقد وجمال هذا ما توعدون
متأخر لكم ليوم الحساب إن هذا لرزقنا ما له من نفاد
انقطاع هذا تاى زيادة تدل على الانقطاع والفصل بين كلامين
كما يقال هذا مضى ثم تقول بعده كلاما غيره كقوله ها هنا بعد
وصف اهل الجنة وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها
فبئس المهاد هذا فليذوقوه حميم وغساق منتن
ويقال غسق الجرح غسقانا اذا سال صديده وآخر من
شكله أزواج اى افراد وهذا معلوم من قوله وإذا ألقوا
منها مكانا ضيقا مقرنين اى هم وقرناؤهم ولما قدم قوله
عن اهل الجنة هذا ما توعدون حذف لفظ الوعد فيما بعد
ودل عليه بتكرير قوله هذا فقال في اخر وصف اهل الجنة
هذا وتقديره هذا ما توعدون ثم قال عن اهل النار هذا فليذوقوه
فتقدير الكلام هذا ما يوعدون فليذوقوه ثم قال وآخر
من شكله اى من شكل ما يوعدون اى واقوام اخر وفسر
ذلك بقوله هذا فوج وما ذاك الا ان الفوج من شكل العذاب وبين
كونهم عذابا بما حكى عنهم من الخصام ولهذا قال عنهم إن ذلك
لحق تخاصم اهل النار فافهم الجملة وقوله مقتحم معكم تحمي في

الأمر نحو ما اذا رمى بنفسه فيه وتحم الفرس بفارسه تقحيما اذا
رماه على وجهه وقوله هذا فوج هو من كلام الخزنة من ملايكة
النار فقال الاوايل من الطاغين لا مرحبا بهم من الرحب
والسعة اى لا متسعا لنا بهم وآخر لأجل الوزن تمام كلام
الملايكة فقوله انهم صالوا النار منسوق بقوله معكم
وتقول العرب مرحبا بالقادم اى وجدنا به متسعا لا ضيقا
قالوا بل انتم لا مرحبا بكم انتم قدمتموه كقوله فليذوقوه
لنا وهذا يدل على ان الاوايل اضلوا الاواخر فتقدم الاوايل
الى النار ولما كان الاواخر معهم في الدنيا جعلوا معهم في
الاخرى فبئس القرار قالوا جميعا ربنا من قدم لنا هذا
فزده عذابا ضعفا في النار العذاب غير النار وهو فيها فهم
يدعون على انفسهم لبئس ما قدمت لهم انفسهم أن سخط الله
عليهم وفي العذاب هم خالدون وفي ظنهم انهم يدعون
على من قدم لهم وهذا كقوله كلما دخلت امة لعنت اختها
وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار
يسأل بعضهم بعضا أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار
اليوم فلم نرهم معنا إن ذلك لحق تخاصم اهل النار قل
إنما انا منذر وما من اله الا الله الواحد القهار رب السموات
والأرض وما بينهما العزيز الغفار قل هو القرآن نبأ

عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ
يختصمون أي ما كنت أعلم بالملائكة فأخبركم عن خصامهم
اختصموا في آدم حين قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ولهذا
قال بعد تمام الآية إذ إن يوحى إلي إلا أنما أنا نذير مبين
من قرأ أنما بالفتح تقديره أن الذي أنا وهذا موضوع محموله
نذير مبين أي إن يوحى إلي إلا أني نذير بهذا القرآن وقد احتوى
على الغيوب والأنباء لأنه قدم قوله قل إنما أنا منذر وعطف
عليه إن يوحى إلي إلا أن الذي أنا هو نذير لا عالم بالملأ الأعلى
إذ ولهذا لم يقل وإذ بل لما ذكر خصام أهل النار ذكر خصام
الملائكة قبله متى كان فقال إذ قال ربك للملائكة إني خالق
بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا
له ساجدين وذلك يدل على شدة الامتثال للأمر بالسجود
وهو حسن من فعل الآدميين يفعله الأديب بين يدي الملك
عند رؤيته والله أحق بذلك واعلم أن الملائكة لم تسجد
لآدم إلا بعد أن أنبأهم بالأسماء فإن قيل قد أمروا بالسجود حين
التسوية والنفخ فكيف تأخروا عن ذلك فالجواب أنهم لم يتحققوا
في النفخ من روحه إلا بما أنبأهم به من علم الأسماء وإلا كان آدم
كأحد الحيوانات فلما شهدوا من العلم ما لم يكن لهم مثله
وأقروا بعد الجحود بما شهد به الوجود لزمهم السجود

فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان
قبل الاستكبار ولهذا لم يقل فكان من الكافرين قال يا إبليس
ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت الآن أم
كنت من قبل من العالين أي فتكون كبيرا لا مستكبرا قال
أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين انظر كيف
استكبر وظن أنه من العالين فغلط ثم أصر فعوقب على
إصراره بإصراره سيجرهم وصفهم قال فاخرج منها
فإنك رجيم مرجوم بالألسنة والشهب وبما شاء الله
وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين ولعنة الخلق من جملة
لعنة الله فانظر إلى هذه الموعظة بمن امتنع من سجدة
واحدة للمخلوق فكيف حال من امتنع دائما من السجود للخالق
قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين
لا يدل على أن ثم منظرين وهو منهم بل كقوله فاخرج إنك
من الصاغرين ولم يكن هناك صاغر غيره إلى يوم الوقت
المعلوم يوم الساعة قال فبعزتك لما ذكر السؤال
بالفاء جاء الجواب وجواب الجواب وجوابه بالفاء ثم ثالثه
في الكلام وقوله فبعزتك قسم من إبليس وإنما أقسم بالعزة
دون غيرها لكونه يريد الاقتدار والتحكم عليهم كما تقول
وحق كرمك لأعطينهم ليكون القسم أنسب إلى الغرض

من قوله فورحمتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم
المخلصين قال فالحق قلت أي فيما استثنيت والحق أقول
أي فيما أجازي به لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم
أجمعين قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين
أي لم أتكلفه من تلقاء نفسي كما يفعل الشاعر فيستحق الأجر
إن هو إلا ذكر للعالمين أجمعين في سائر الأزمان إلى يوم
القيامة ولتعلمن نبأه بعد حين في الدنيا بصدق الوعيد
من فتح بلاد الكفار وبذلك يستدلون على صدق الوعيد في
الآخرة بعذاب النار ٥

سورة الزمر آية ٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم تنزيل مصدر تقدم مثله الكتاب
القرآن والجملة مبتدأ خبره من الله العزيز الحكيم وقوله بعده إنا
أنزلنا إليك الكتاب والأول بمنزلة عنوان الكتاب والثاني بيان ما في
الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص
والذين اتخذوا من دونه أولياء قائلين بدعواهم وحالهم ما نعبدهم
إلا ليقربونا إلى الله زلفى تقدم إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون
إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ثم ذكر ما يحكم بينهم به من
قولهم في الملائكة وقول النصارى في المسيح واليهود في عزير
لو أراد الله أن يتخذ ولدا أي ليعبد معه فيتقرب العابدون به

إلى الله لاصطفى مما يخلق ما يشاء أي لو أراد الله سبحانه ذلك لاصطفى
للعبادة أشياء كثيرة من حيوان ونبات ومعدن وفلك وملك ولهذا
عبر بما ثم قال سبحانه عما يقولون هو الله الواحد القهار ذكر القهر
ردا على من ادعى صلب الولد ثم عبده واستدل على صحة قوله قهار
بقوله خلق السموات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار
على الليل مأخوذ من قوله عليه السلام نعوذ بالله من الحور بعد
الكور أي من النقصان بعد الزيادة وتكوير المتاع جمعه بعضه على
بعض وشده ومنه كار العمامة على رأسه يكورها كورا وكل دور
كور وليس المعنى تزيد في أحدهما من الآخر فإن ذلك معبر عنه بقوله
يولج وهذا ها هنا ينبئ عن التتابع دائما ولهذا لم يقل في بل على الليل
والأمر أبدا كذلك في التكوير كما هو في الإيلاج وأما ما يدعيه الفلكيون
من الاعتدال فلقصر أذهانهم عن إدراك مدة الزيادة والنقصان
في زمن يكون فيه الاعتدال بزعمهم وإنما حسابهم بدرج كل
درجة ستون دقيقة وكل دقيقة منها ستون ثانية وكل ثانية
ستون ثالثة إلى ما لا نهاية له في أذهان البشر مما يقدرون على
العبارة عنه فعجزوا عن إدراك تحقيق التفصيل فذكروا إجمالا دالة
على قدرة قادر سبحانه وسموا زمن الرجعة اعتدالا وليس هنالك
وقوف للشمس حتى يسمى بل الشمس تجري وبنورها كور الله سبحانه
وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار

خلقكم من نفس واحدة آدم ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام
ثمانية أزواج تقدم في الأنعام وعبر بلفظ الإنزال لأن كل شيء فإنه
إنما خلق بالأمر والأمر منزل يخلقكم في بطون أمهاتكم أنتم وأنعامكم
لهذا أتى بذكر الأنعام هاهنا خلقا من بعد خلق مبين في سورة المؤمنين
في ظلمات ثلاث ظلمة البطن ثم الرحم ثم المشيمة في الرحم والرحم موضوعة
فيما بين المثانة والمعا المستقيم وهي مربوطة برباطات سلسة وهي
في نفسها عصبية يمكن أن تمتد وتتسع عند الحاجة وتنضم وتتقلص
عند الاستغناء عن التمدد ورقبة الرحم تمتد وتنتهي إلى الفرج
من المرأة بمنزلة الإحليل من الرجل وإذا علقت المرأة انضم فم الرحم
حتى لا يدخله الميل وعند الولادة تتسع حتى تخرج منه جثة الجنين
وهي في كيس ككرش الشاة وهي المشيمة وهذا كله مشاهد دال
على قدرة قادر سبحانه ذلكم الله ربكم لا ما تدعونه من دونه له
الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون من التصرف صرف الله قلوبهم إن
تكفروا بالله بعد ما شهدت عليكم منكم أدلته فإن الله غني عنكم
ولا يرضى لعباده الكفر وهذا دليل واضح على بطلان قول المجبرة إذ
نسب الكفر إليهم بقوله إن الشرطية الدالة على تمكن من أن يفعل
وأن لا يفعل ثم إن قوله ولا يرضى لعباده الكفر دليل على أنه من فعلهم
بالقدرة التي وهبهم الله إياها ولا يجوز أن يكون الكفر من فعل الله
فإنه تعالى يفعل ما لا يرضاه لعباده أن يصدر منهم في حق أنفسهم فكيف

يصدر

يصدر ذلك منه في حقهم وهو غني عنهم إلا إن كان ذلك عقابا بما
قدمت أيديهم فهو وإن كان منه فهو منهم أولا وبهذا الاعتبار
يقال إن الخير منهم هو منه أولا وإن الشر منه هو منهم أولا وفي
القرآن عدة مواضع يفهم منها هذا وإذا تأملت ما بعد هذه الآية
وجدت هذا المعنى بعينه واضحا بينا فيها فافهمه من تحرير
العبارة بقوله عن الإنسان منيبا وبقوله عن الله تعالى منه كما
نبين وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى
ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات
الصدور ثم أوضح ما قدمناه بقوله وإذا مس الإنسان ضر
أي بذنبه دعا ربه بدليل قوله بعده منيبا أي راجعا عن
ذنبه إليه إلى ربه ثم إذا خوله التخويل العطية العظيمة على
جهة الهبة والمنحة وبين ذلك بقوله نعمة منه وهذا فائدة
قوله منه نسي ما كان يدعو إذ كان منيبا إليه من قبل
وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله لام ليضل للعاقبة
والصيرورة قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار أذلك
خير أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة
ويرجو رحمة ربه وبين أن هذا الفعل من أوصاف العلماء
كقوله إنما يخشى الله من عباده العلماء فقال هاهنا قل هل يستوي
الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب قل

أي قل لهم يقول الله يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم وذروا المسيئين
إلى أنفسهم بترك التقوى للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة
هذه الحسنة لكل محسن من كافر ومؤمن والمراد بذكرها
إنما هو من أجل الكافر المحسن الذي استعجل ربه ولم يصبر
وبين ذلك بقوله أخيرا إنما يوفى الصابرون الآية فالكافر تلك
الحسنة نصيبه في الدنيا وليس له في الآخرة من خلاق وبيان هذا
الشرح معلوم من الآية المحكمة وهي قوله من كان يريد الحياة الدنيا
وزينتها وتمام الآيتين وأما المؤمن فالحسنة نصيبه من الدنيا
في الدنيا وهي بحساب عمله وله في الآخرة حسنة تضاعف بغير
حساب وهو معنى قوله ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة
أي لا تنفد لأن كل ما في الآخرة باق وقوله تعالى من جاء بالحسنة فله
عشر أمثالها هو من باب التكثير لا التحديد ولا يناقض قوله قوله
بغير حساب فذكر العشرة وجعلها قبالة قوله فلا يجزى إلا مثلها
ولهذا عين الأمثال لا بقوله عشر أمثالها واعلم أن هذه الحسنة
المذكورة هاهنا إن كانت للكافر فهي جزاء عمله كقوله نوف إليهم أعمالهم
فيها الآية وإن كانت للمؤمن الذي يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه
كما تقدم هاهنا فالحسنة في الدنيا غير محسوب عليه بل هي من لدن
الله وكرمه سبقت له من الله في الدنيا فهي من باب فلنحيينه حياة
طيبة وقوله هاهنا وأرض الله واسعة أي فهاجروا فيها لتتمكنوا من

طاعة الله واصبروا على الهجرة وعلى الأوامر وعن النواهي إنما يوفى الصابرون
أجرهم الأجر غير الفضل بل كل على جنس عمله الذي عمله وقوله بغير
حساب معناه بغير نهاية أي لا ينقطع لأن كل ما له نهاية وحصر فلما
قال في بعض المواضع أولئك يؤتون أجرهم مرتين بين في هذا الموضع أن
هاؤلاء يتضاعف أجرهم أبدا مضاعفة لا انقضاء لها وهذا هو جزاء
الضعف لا ضعف الجزاء فيفهم من هذا أن كلا يجزى من جنس عمله لا
بحسب عمله ولهذا سماه أجرا ولو لم يكن كذلك لكان فضلا لا أجرا
فهو جزاء معروف منكر لا ينفد لكنه من جنس العمل فهو غير
متنوع أنواعا لا يقتضيها عمل ذلك العامل واعلم أن لكل عمل رتبة
ولكل عامل مجهودا فالمنزلة عند الله إنما تكون على قدر المجهود لا على
مقدار العمل المعمول كثر أو قل فقد أمكن أن يتساوى العامي والولي
والنبي في الأجر إذا بذل كل منهم جهده في العمل الواحد كالصلاة
وإن اختلف عدد الركعات أو كالصدقات وإن اختلفت مقادير
النفقات فإن عشر القليل من ماله كعشر الكثير من ماله كل
يؤدي ما عليه من الفرض وبهذا العدل قامت السموات والأرض
قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين وأمرت بالعبادة مخلصا لأن
لأجل أن أكون أول المسلمين ممن اتبعني قل إني أخاف إن
عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا
ما شئتم من دونه فإنه شاء أن تكون لكم مشيئة في عبادة ما شئتم من

كل شيء فافهم ولهذا احسن ان تقول بعده قل ان الخاسرين مبتدأ خبره
الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيامة الا ذلك هو الخسران
المبين لهم من فوقهم ظلل من النار كظلل الغمام ومن تحتهم ظلل
تقديره مثلها فالمراد المماثلة ليكون العذاب محيطا بهم بصورة واحدة
لهذا سمى ما تحتهم باسم ما فوقهم ولهذا لم يقل عليهم ولهذا قال
ذلك يخوف الله به عباده اي ذلك الوعيد يا عباد فاتقون اي اذا
كانت الحالة هذه لمن لم يتق فاتقون لهذا قال بالفاء والذين اجتنبوا الطاغوت الذين
ان يعبدوها اي اجتنبوا عبادة ما يطغي وانابوا الى الله فبشر عبادي
الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه تاويلا ومثله وامر قومك
ياخذوا باحسنها ليس المعنى احسن تاويلا والقول وان كان مطلقا فالمراد
به هاهنا القرآن انه لقول رسول كريم وهذا معنى قوله ابتغاء الفتنة
وابتغاء تاويله ولما تمم الكلام هناك عن الراسخين في العلم بقوله لا تزغ
قلوبنا بعد اذ هديتنا قال هاهنا اولئك الذين هداهم الله ولما قدم هناك
وما يذكر الا اولوا الالباب قال هاهنا واولئك هم اولوا الالباب
فمدحهم بافضل اسماء العقول وان كان لغيرهم عقول لكن الغير الذي
لم ينتفع بعقله عاد كمن لا لب له اذ لم يتبع الاحسن ثم قال عنه
افمن حق عليه كلمة العذاب بضلاله ثم اوهم اجباره على الهدى افانت
تنقذ من في النار هم من الان فيها ولكن لا تشعرون لكن الذين
اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية نبه بقوله

مبنية على ان فوق الغرفة الواحدة عدة غرف ولهذا قال من فوقها ولم يقل
من فوقهن لئلا يتوهم ان فوق كل واحدة واحدة فافهم الاحسن من تحمل اللفظ
وغير الاحسن وان كان محتملا ثم قال تجري من تحتها الانهار اي من تحت الجميع
وعد الله لا يخلف الله الميعاد ثم ضرب مثلا لما ذكره وعدا ما جعله نقدا
فقال الم تر ان الله انزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض عرفنا اصل نبع
العيون ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه ثم يهيج من الهوجاء وهي الريح ونظيره
ولئن ارسلنا ريحا فرأوه مصفرا ويقال هاجت الريح اذا تحركت ثائرة فقوله يهيج
اي يتحرك بحركة الهوجاء لانه لا يتحرك من تلقاء نفسه بل بالريح ولم يقل يتحرك ليعرفنا
انه انما تحرك بحركة تهيج عن الريح الهائجة ولهذا بعده فتراه مصفرا ثم يجعله
الله بالريح حطاما ان في ذلك لذكرى لاولي الالباب يتذكرون بما شاهدوه في
الدنيا عيانا فيجعلونه علما وعدوه في الآخرة برهانا فان القادر في
الدنيا على الشيء وضده قادر في الاخرى على انجاز وعيده ووعده افمن
شرح الله صدره للاسلام اي لاتباعه كمحمد واتباعه فهو على نور
من ربه كالقاسية قلوبهم فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله
واذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة والقساوة
الصلابة والذكر هاهنا مطلق ويخصصه القرآن كقوله قلوبنا في اكنة
اولئك في ضلال مبين ثم ذكر لين القلوب من المؤمنين عند سماع الذكر
فقال الله نزل احسن الحديث انهم با جامع القرآن لكل شيء نزل فان لم
يكن في اللفظ والمعنى فليس باحسن فالمراد احسن الحديث مطلقا في كل

ما هو من لوازم الحديث وقوله كتابا متشابها اي في حروفه ولهذا قال
مثاني اي الحروف هي مثنى لان الكتاب عن الحروف وفي الحروف مثاني كما
بيناه ولهذا قال تقشعر منه ولم يقل منها لانها في كل كتاب وكتابه
والمراد هاهنا احسن الحديث فمنه اذا فهم تقشعر جلود الذين يخشون
ربهم وقد علمت قوله انما يخشى الله من عباده العلماء وعلمت قوله
والراسخون في العلم يقولون آمنا به فهم الذين يعلمون فيخشون
ثم تلين جلودهم وقلوبهم معا الى ذكر الله متبعين له
وهو الكتاب المنزل على هذا النبي المرسل فجعل قبالة القساوة
من قلوب اعدائه لجهلهم لين القلوب من اوليائه لعلمهم ذلك
هدى الله وقوله يهدي به من يشاء اي هو القادر على ان
يجبر من يشاء من اهل النار على الهدى فكيف لا يكون قادرا على
ان يهدي من يستحق الهدى ويضل من يستحق الضلال ومن
يضلل الله فما له من هاد ولما ذكر الاضلال بعد المشية
وكان هذا من المتشابه بينه بذكر الكسب في اخر الآية التالية
فقال افمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة اي
يجعل وجهه الوقاية التي تقيه وذلك ان يديه مغلولتان
الى عنقه فليس له ما يقي به وجهه ومن هاهنا تعلم صحة ما قلناه
في قوله تعالى الا ان تتقوا منهم تقاة وهذا منسوق بقوله افانت
تنقذ من في النار فلما قال هاهنا ومن يضلل الله فما له من هاد

قال بعده ما معناه افمن يتقي بوجهه من الظالمين وقيل للظالمين
ذوقوا ما كنتم تكسبون هل له من هاد ثم قال كذب الذين
من قبلهم فاتاهم العذاب من حيث لا يشعرون اي من
مكان لا يشعرون باتيان العذاب منه فيحترزون قبل وقوعه
بهم فاذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة
اكبر لو كانوا يعلمون ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من
كل مثل يحتاجون في نجاتهم الى ضربه لعلهم يتذكرون فكان
قرآنا عربيا غير ذي عوج في الكهف لعلهم يتقون مخالفته
فتحصل لهم النجاة ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء يريد
بهم ما دون الله متشاكسون يقال رجل شكس بجزم الكاف
وكسرها ايضا بمعنى صعب الخلق قال الشاعر
شكس عبوس عنبس عذور بمعنى ورجلا سلما لرجل هل
يستويان مثلا اي المثل فالاول ضربه الله لهم من كونهم
يعبدون الهة غير الله فان الخالق والمخلوق بينهم مباينة اشد
مما بين المتشاكسين ولا شك ان الاله هو الحاكم فلو فرضنا
عدة الهة لزم ان يكون كل واحد منهم حاكما واذا كان كذلك
فسد المحكوم عليه كما بيناه في قوله لو كان فيهما الهة الا الله
لفسدتا فقد جعل هؤلاء انفسهم لالهتهم كرجل مملوك لشركاء
متشاكسين لا يسامح احد احدا بل كل منهم يريد ان يمضي حكمه

في ذلك الرجل فهل يستوي هذا برجل سالم فلهذا قال بعده
هل يستويان أي هل يستوي الرجل الذي فيه الشركاء بالرجل السالم
فالمثل الأول لهم ولآلهتهم والمثل الثاني للنبي صلى الله عليه وسلم
ولله تعالى وكون الثاني سالما دل على أن الأول غير سالم ثم قال
الحمد لله أي على السلامة بل أكثرهم لا يعلمون أن هذا مثلهم
مع أوليائهم فإن قيل هذا المثل مطابق في الأولياء وغير مطابق في
الأصنام فالجواب أن هذا حال عباد الأصنام من جهة ما ينالهم
من الضرر بها وإن لم يكن للأصنام من جهة نفسها ضر ولا
نفع بل لما أشركوا باتخاذ الأصنام مع الله تعالى وعبدوها من دونه
نالهم الضرر من الله عقابا على كفرهم فالعقاب وإن كان
من الله فهو من جهة أنفسهم بواسطة الأصنام فافهم ثم قال
إنك ميت وإنهم ميتون أي سترى ما وعدناك وتواعدناهم
ويرون ذلك أيضا ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون ج ٢٤
لأنه عليه السلام خصمهم وأي خصم أعظم من شاهد شهادته
على المرء تؤديه إلى النار ثم فصل بعد الخصام ما يؤول إليه الحال
وزاد معنى التوبيخ بالسؤال فقال بالفاء فمن أظلم ممن كذب على
الله أي فادعى النبوة ودليله والذي جاء بالصدق وقوله وكذب
بالصدق أي من الأمم ونظيره وصدق به والصدق المشار إليه
هاهنا هو القرآن وقوله وكذب بالصدق مثل ومن يكفر

بالإيمان وعكسه وصدق به أي صدق بالصدق وهذا الكذب إذ جاءه أليس
في جهنم مثوى للكافرين والذي جاء بالصدق من الأنبياء وهم سائر
الأنبياء وصدق به من الأمم أولئك هم المتقون لهم ما يشاؤون
عند ربهم ذلك جزاء المحسنين ليكفر الله عنهم أي صدقوا ليكفر
أسوأ الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون
وقوله أسوأ لأن ما دون ذلك تذهبه الحسنات منهم بغير تكفير من
بارئهم سبحانه وذكر الأسوأ منهم ليقابله بالأحسن منه جزاء ولأن
من عفا عن الكثير فهو بالعفو عن القليل أولى ثم قال لنبيه صلى الله عليه
وسلم والمراد كل مؤمن أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين
من دونه كقولهم إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء فأضلك عن عبادة
آلهتنا فقال تعالى عنهم ليتبين أن الضلال والهدى منسوبا إلى آلهتهم بل إلى الله
ومن يضلل الله أي عقابا له على كفره فما له من هاد ومن يهد الله أي
كما قد هداك فما له من مضل وبين أن الهدى والضلال منه فقال أليس
الله بعزيز ذي انتقام ثم أوضح ما ضرب لهم المثل من أجله فقال ولئن
سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون
من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني
برحمة هل هن ممسكات رحمته وهذه حجة عليهم وبرهان
لقوله أليس الله بكاف عبده قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون
قل يا قوم اعملوا على مكانتكم أي على جهتكم التي اخترتموها وتمكنتم

وفي العلم بها اني عامل على مكانتي فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه
ويحل عليه عذاب مقيم انا انزلنا عليك الكتاب للناس بالحق
فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما انت عليهم بوكيل
وهذه الباء تشبه لام الجحود كقوله وما انت بمؤمن لنا وما هو بالغيبة اي
بوجه من الوجوه ثم ذكر ما يدل على انه سبحانه هو الوكيل الحاضر معهم
في الموت والنوم فلم يرد في غيرهما فقال الله يتوفى الانفس حين موتها
والتي ويتوفى التي لم تمت في منامها التوفي بالموت كالتوفي بالنوم
وهو الذي يتوفاكم بالليل فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل
الاخرى لتبقى في الدنيا مع جسدها الى اجل مسمى ان في ذلك لآيات
تدل على البعث بعد الموت لقوم يتفكرون كقوله تعالى ثم يبعثكم فيه
ام اتخذوا من دون الله شفعاء قل اولو كانوا لا يملكون الشفاعة ولا
غيرها ولا شيئا ولا يعقلون قل لله الشفاعة جميعا اي جميع الشفاعة
وبرهن بقوله له ملك السموات والارض ثم اليه ترجعون واذا ذكر على ذلك
الله وحده اشمأزت نفرت وانقبضت قلوب الذين لا يؤمنون
بالآخرة واذا ذكر الذين من دونه من شركائهم اذا هم يستبشرون
قل اللهم فاطر السموات والارض عالم الغيب والشهادة انت تحكم
بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ولو ان للذين ظلموا ما في الارض
جميعا ومثله معه ولم يقل وامثاله ولا حصر بعدة لان التالي مثل
المقدم دائما فافهم لافتدوا به انفسهم من عذاب النار وان لم يحصل

لهم شيء من نعيم الجنة فلهذا قال من سوء العذاب يوم القيامة وبدا لهم
من عذاب الله لهم ما لم يكونوا يحتسبون الاحتساب هو الاعتداد
بالشيء وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون
فاذا مس الانسان ضر دعانا ثم اذا خولناه تقدم نعمة منا قال
انما اوتيته على علم كقول قارون اي جزاء على علم عندي فقال الله تعالى
بل هي فتنة ولكن اكثرهم اكثر من يخوله لا يعلمون فقد علمت ان
سائر النعم الباطنة والظاهرة فتن وانما كانت فتنا ليحصل بها النعم
الباقية كقوله هذا من فضل ربي ليبلوني فلا تكون نعمة غير فتنة الا
ان كانت جزاء فانه فتنة العمل والجزاء لا يكون في الدنيا بل ليس في الدنيا
الا فتنة ولهذا قال بعضهم ۝ شعر

ميل القلوب الى سواك حرام ما كان غيرك كله اصنام
جمل المواهب باطنا او ظاهرا فتن لديك وكلها احلام

واعلم ان الانسان اذا تقدمت معرفته على ما سيفتن به كان مستعدا
لدفع الفتنة عن نفسه في السراء والصبر عليها في الضراء فلما كان
تقدم المعرفة بهذا عظيم النفع جاءت به الكتب والرسل تعريفا وجاء
به القرآن تصريحا في عدة مواضع بصور مختلفة تارة اعلاما كقوله انا
خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه وكقوله لنبلوهم وكقوله الذي
خلق الموت والحياة ليبلوكم وامثاله وتارة تعليما على سبيل الحكاية
كقصة سليمان وقارون وغيرهما بالتخصيص لنبي وعدو وتارة تعريفا

عامًّا كقوله هاهنا واذا مسّ الانسان الآية ومن تأمّل ذلك وجد القرآن مشحونًا
به وذلك لشدّة الاضطرار الى معرفته وعظم الانتفاع به فبهذا ومثله كان
الرسول رحمة والقرآن نورًا فالحمد لله الكريم الذي انعم وعلّم وجعل
النعمة فتنة لئلا نرفض فانية فنحفظ باقية وهذا ادنى جزاء العبيد ولدينا
مزيد ولهذا قال بعض العارفين ان نتيجة الورع ان نفرق بين المباح والمحظور
فهذا جعل المباح كالمحظور لما راه فتنة فلم يأخذ منه الا ما يضطر اليه
ويثاب عليه ومن تحقق عنده ان الآخرة ليس فيها فتنة وان الدنيا ليس
فيها الا فتنة فقد لزمه ان لا يقول عن شيء من النعم انما اوتيته على علم
بل هي فتنة ولهذا كرّر هذا التعريف هاهنا لفرط وجوب الحذر منه بقوله
قد قالها اي هذه المقالة الذين من قبلهم قارون وامثاله وجمع بقوله
قبلهم لانه قدّم ولكن اكثرهم يريد اكثر المفتونين وذكر العلم لانه لا يكون
عمل الا عن علم فالعارف لا يرى النعمة جزاء على عمل ولا على علم فقط لئلا يكون
من قوم قارون فما اغنى عنهم ما كانوا يكسبون فاصابهم سيئات ما
كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما
هم بمعجزين اولم يعلموا ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان
في ذلك لآيات لقوم يؤمنون قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم بكثرة
المعاصي والذنوب لا تقنطوا تيأسوا من رحمة الله وان عظمت ذنوبكم
اذ الرحمة واسعة ان الله يغفر الذنوب جميعا مع التوبة دائمًا من المعاصي
ويغفر الكفر والشرك الى ثلث مرات وقد بيّنّا ذلك في سورة النساء وبيّنّا

ما دونه وليس فوقه شيء والشرك والكفر واحد ومع لا توبة يغفر ما دون
الشرك والكفر فكيف معها ولما كان هذا يحتاج الى التفصيل بيّنه في مواضعه
وقال هاهنا مجملا لمن يشاء وكل احد يرجوا ان يكون ممن يشاء الله ان يغفر
له ذنوبه ولكنه لا يتحقق ان كان منهم فهو يخاف والمؤمن بين خوف
ورجاء وهذا يتعبّد بحسن الظن كما نقل ان رجلين احضرا الحساب
فحوسب احدهما فوجبت له النار فامر الله به اليها فتوجّه مسرعًا
فقال الله سبحانه للملائكة ردّوا عبدي ثم سأله ما بالك اسرعت الى النار
اذا امرت بك اليها فقال يا الهي استحييت منك طول عمري اذ لم ابادر الى
طاعتك قط فرأيت انه لم يبق لي بعد امرك لي الى النار امر منك الا هذا
فسابقت الملائكة في امتثاله فقال الله تعالى الى الجنة فقد امتثل امري ثم
حوسب الآخر فوجبت له النار فامر الله به اليها فتوجه متأنيا ملتفتا
فقال الله سبحانه ردّوا عبدي ما بالك ملتفتا بعد امري ولا رادّ له من خلقي
فقال الهي ما هكذا اخبرت عنك انما قيل لي هو الغفور الرحيم فقال الله تعالى
ردّوا عبدي الى الجنة انا عند ظن عبدي بي انه هو الغفور الرحيم وان لم
يستغفر من عباده ولهذا قدّم هو ولانه لا غيره كذلك ولكن لمن يشاء فلا
ييأس احد من رحمته فيترك الانابة وانيبوا الى ربكم خطاب للمؤمنين
وبعدهم الى ساير العالم لقوله واسلموا له من قبل ان يأتيكم العذاب ثم لا
تنصرون واتبعوا احسن ما انزل اليكم من ربكم تأويلا وفيه اشعار
بان التورية والانجيل والزبور كل حسن والقرآن احسن الكتب من قبل

أن يأتيكم العذاب وأنتم لا تشعرون وأحذروا أن تقول نفس عبّر بالنفس
ليعم الذكر والأنثى حرًا أو عبدًا مؤمنًا أو كافرًا كقوله يا أيتها النفس المطمئنة
فلا تفهم من ذلك بعث الأرواح دون الأبدان يا حسرتا على ما فرطت في
جنب الله تقول أنا أراعي جانب فلان فالكناية بالجنب تدل على اختصاص
بصاحب الجنب من وجه قريب وإن كنت لمن الساخرين أي وإن كنت
من القوم الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين هؤلاء
هم الجبرية مقالتهم في الآخرة كمقالتهم في الدنيا ومن كان في هذه أعمى
فهو في الآخرة أعمى أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة إلى الدنيا فأكون
من المحسنين فيقول الله سبحانه رادًا على الجبرية خاصة وعلى غيرهم
عامة بلى هذه تلك في الدنيا قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت
وكنت من الكافرين ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم
مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين فكيف يرضونه وكيف لا
يحسبونه وينجي الله الذين اتقوا مخالفة الله أمرًا ونهيًا بمفازتهم
المفازة السبيل وسمي بذلك لأن سالكه يفوز بمقصوده والباء للظرفية
والمفازة مطلقة تعم سبيلي الدنيا والآخرة ويفهم منه مدة الحياة لأنها
طريقة ومفازة إلى الله تعالى ومتى كانت الكلمة أو الكلمات تحتمل معنيين
فالأحسن هو المراد الأول لأنه أولى والأحسن مراد أيضًا ولكن بعده
وأصل المفازة المنجاة وذكر المفازة أعلمنا أن التقوى يجب أن تكون مصحوبة
في جميع المفازة لا في وقت دون وقت لأنها خير الزاد فالواجب أن

لا يفقده المسافر في وقت ومن لم يفقد الزاد في مدة ما من السفر فقد فاز
بالسلامة من آفة تعرض لمن فقده ولهذا بعده لا يمسهم السوء ولا هم
يحزنون أي لا يحزنهم الفزع الأكبر وفيه أنهم لا يحزنون على الماضي لم
فات وفيه غير ذلك للمتأمل ولما قدم قوله وما أنت عليهم بوكيل بيّن أن
الله هو الوكيل على كل شيء لأنه خالق الكل فقال الله خالق كل شيء الدليل
على أن ما سواه حادث أستحالة وجود قديمين وإذا كانت الأجسام لا
توجد غيرها فما لا يوجد غيره كيف يوجد نفسه ولزم أن الواجد الأول
سبحانه ليس له أول إذ لو كان له أول لكان له موجد ولتقدمه عدم والعدم
لا يوجد نفسه وإذ قد ثبت ذلك فمثله أنه ليس له آخر وهو على كل شيء
وكيل له مقاليد جمع مقلد ومقلاد ومقاليد وهي غير القلادة التي
توضع في العنق ولهذا لم يقل قلائد بل مقاليد فإن القلادة لا يجر بها
الحيوان والمقلد يجر بها فالله له مقاليد السموات والأرض تمثيلاً
بما يفهم منه أنه تعالى قادر على إجبار العباد على الإيمان ولهذا بعده والذين
كفروا بآيات الله أولئك هم الخاسرون قل أفغير الله تأمروني أعبد
والآلهة هذه أعني أن الله هو الخالق القادر ولهذا بعده أيها الجاهلون
أي به ثم قال تعالى ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك أي من كل نبي
لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد
وكن من الشاكرين هذا المعنى بعينه رأيته في التوراة والإنجيل والزبور
وفي كلام سائر الأنبياء المشهورين في بني إسرائيل بالوحي إلى الآن وجملة

كتب الربانيين اربعة وعشرون سفرا ونجد هذا المعنى في الكتاب الواحد
في عدة مواضع خصوصا في التوراة وما قدروا الله حق قدره اي ما
اخترموه حق حرمته سبحانه والكلام عن غير المؤمنين وحق قدره من
جهتهم هو استطاعتهم فهو كقوله حق تقاته الذي محكمه فاتقوا الله
ما استطعتم والارض اي بما فيها جميعا قبضته يوم القيامة
وقبضته مرفوعة الثنا ابعادا عن توهم الظرفية فهو بمعنى قولك
الكل ملكه وهو كما يقول الفقها قبض فلان كذا وصار الدار في قبضته
اي في ملكه وتصرفه وتحت قدرته وتقديره والارض بما فيها جميعا
والسموات قبضة واحدة مطويات بيمينه والبا في بيمينه للتعدية
لا للظرف ولما كانت العبارات انما قلت لنا لنفهم المراد من التعظيم
باقرب عبارة دالة على التفهيم من المعلوم عندنا والله تعالى اعلا
واجل قال بعده سبحانه وتعالى عما يشركون ثم ذكر من احوال
ذلك اليوم واهواله ما فيه ترهيب وترغيب فقال ونفخ في
الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شا الله كأنه
لا يصعق قال سعيد بن جبير هم الشهدا وانما الشهدا منهم ثم نفخ
فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون من النظر والقيام هم الذين
صعقوا دون من شا الله واشرقت الارض بنور ربها ووضع
الكتاب الذي كتبته الملائكة على العبد من الحسنات والسيئات
وهو من قوله تعالى ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا وجي

بالنبيين والشهداء من قوله معها سائق وشهيد ويحتمل ان
يكون من قوله ويوم نبعث في كل امة شهيدا عليهم من انفسهم
وهذا انسب لانه تقدم عليه ذكر النبيين وقضي بينهم بالحق
وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت ولما قال اولا وجي
بالنبيين والشهداء قال هاهنا وهو اعلم بما يفعلون اي اعلم
بهم من الشهداء عليهم وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا
جماعات حتى اذا جاوها فتحت ابوابها اي حين المجي ومن قبل
كانت مغلوقة وزيادة الواو في الجنة عند قوله وفتحت اي من
قبل المجي لقوله تعالى مفتحة لهم الابواب وقال لهم خزنتها الم ياتكم
رسل منكم يتلون عليكم ايات ربكم وينذرونكم لقا يومكم هذا
قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين اي الان فلم يبق
للتوبيخ نفع قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها لو لم يقل فيها كان
الخلود في الابواب فبئس مثوى المتكبرين وسيق الذين اتقوا ربهم
الى الجنة زمرا جواب قوله حتى محذوف كأنه قال حتى اذا جاوها
وفتحت ابوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها
خالدين وصلوا الى ما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على
قلب بشر وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده واورثنا
الارض وهي ارض الجنة وجا بصورة التمثيل لهذا بعده نتبوأ
من الجنة حيث نشا فنعم اجر العاملين ثم قال تعالى وترى الملائكة

أي يومئذ حافين من حول العرش من لابتداء الغاية أي حيث
يشاء الله سبحانه دايرين محاطين بجميع حواقه يسبحون بحمد ربهم
وقضي بينهم لما علمنا قوله ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون
وقوله إن ربك يقضي بينهم بحكمه وأمثال ذلك دل على أن القضاء
بين أهل الجنة وأهل النار أي لم يقض بظلم أو باطل بل بالحق وقيل
الحمد لله رب العالمين على ما قضى والحمد هاهنا من أهل النار
أيضا فالحمد منهم على القضاء بالحق كقوله لأهل النار أليس هذا
بالحق قالوا بلى وربنا ولهذا كرر الحمد أخيرا وذكر الأول بقوله وقالوا
والثاني بقوله وقيل بما لم يسم فاعله ليعم لأن أهل الجنة قالوا
الحمد لله والملائكة يسبحون بحمد ربهم فلما لم يبق إلا أهل النار
اتبع الجميع بقوله وقيل اعترافا من الكل بالحمد لمستحق الحمد مطلقا
ومن المبين أن الله تعالى مكن أهل النار من عبادته في الدنيا ولم
يخلقهم والمؤمنين والجن إلا لعبادته فكفروا فعاقبهم بكفرهم
فلا يمنع عدله فضله لأنه أحسن إليهم فأساؤوا إلى أنفسهم
فله الحمد عليهم لإحسانه إليهم ٥

سورة المومن
آيه ٨١

بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب
من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب الرجع شديد
العقاب ذي الطول من التطول وهو التفضل لا إله إلا هو

إليه المصير ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا هذا معلوم
من قوله بعد هذه الآية وجادلوا بالباطل وأصل الجدل من الجدالة
وهي الأرض استعارة كما أن كل واحد من المتغالبين يريد أن يلقي خصمه
عليها فلا يغررك تقلبهم في البلاد المعنى تصرفهم وتقلباتهم
في عزهم وتمكنهم من بلادهم متقلبين كيف شاؤوا تقول فلان
له مال يتقلب فيه أي يتصرف ويتكسب وحذف هاهنا ما ذكره
في غير هذا الموضع وهو متاع قليل ثم إلينا مرجعهم كذبت
قبلهم قوم نوح والأحزاب تقدم ذكرهم بقوله أولئك
الأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه
وجادلوا بالباطل رسولهم وأتباعه وقال ليأخذوه لقوله برسولهم
وكان يقتضي برسولها لتأخذه لكن عاد الكلام على الأحزاب
والقوم في زمن كل نبي فهم الكل فصاروا أمما أعني الأمة التي
بعث فيها النبي وأمثالها والهم بالأمر إذا عزم أن يفعله
ولا بد والباء في برسولهم والاهتمام كقوله ولقد همت به وهم
بها على ما بيناه وإن اختلفت المقاصد بالاهتمام فهاهنا بين أن
الاهتمام منهم برسولهم ليأخذوه تقديره أخذا وبيلا أو
بالعذاب أي بالباطل لا بالحق كقوله ويقتلون الأنبياء بغير حق فعطف
وجادلوا وقال بالباطل لئلا يتكرر ليدحضوا به الحق فأخذتهم
أي بالحق أخذا وبيلا بالعذاب جزاء على ما هموا وكذبوا فكيف

كان عقاب وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا من هؤلاء وغيرهم
انهم اصحاب النار ثم عرفنا ان هؤلاء اذا لم يؤمنوا فان لله من يؤمن
به من ملائكة خير من ملائهم فقال الذين يحملون العرش ومن ليست
يحملون من بل والذين حوله غير الحملة لقوله وترى الملائكة حافين
من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به اى لمن هؤلاء
الضعفاء العاجزون حتى انهم تركوا الايمان ولزموا الاستكبار ولما
عظم قدر الملاء الاعلى ذكر انهم مسخرون للمؤمنين من البشر تعظيما
لقدر المؤمنين وتعريفا بانهم خير البرية فقال عن الذين يحملون العرش
ومن حوله ويستغفرون للذين آمنوا يقولون ربنا وسعت كل شيء
رحمة وعلما اى الرحمة وسعت كقوله ورحمتي وسعت كل شيء
وكذلك العلم فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم
ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن وادخل معهم من صلح
من آبائهم وازواجهم وذرياتهم وهذه بشارة لمن صلح من آباء المؤمنين
وازواجه وذريته يدخله الله مع المؤمن وان لم تكن اعماله كاعمال
المؤمن بل يدخل في بركة المؤمن وشفاعته لان كل واحد منهم ان كان قد
تاب واتبع السبيل فهو المؤمن الاول ولا حاجة الى ذكره اخيرا بل انما
الشرط الصلاح وقد بين الله مثل ذلك بقوله بايمان الحقنا بهم ذرياتهم
اى بايمان فقط وان لم تكن الاعمال كالاعمال ولما جعل الذريات مع
الآباء الصالحين ملحقين بهم في درجاتهم وكان قد يقع في الاذهان انه تعالى

نقص

نقص من عمل الآباء ما ساوى به بينهم وبين الذريات ليلحقهم بهم قال
تعالى وما التناهم من عملهم اى وما نقصنا الآباء من عملهم من شيء فافهمه
هاهنا وفي موضعه انك انت العزيز الحكيم كقول عيسى عليه السلام وان
تغفر لهم فانك انت العزيز الحكيم كما بينا وقهم السيئات اى عمل السيئات
في الدنيا وذلك من اعظم الثواب المعجل كما ان ضده من ابلغ العقاب
المعجل الذي بها يكون المؤجل ومن تق السيئات المعنى وقهم في الدنيا
عمل السيئات لتقيهم في الآخرة عقابها ومن تقه عقاب السيئات
يومئذ فقد رحمته في الدنيا والآخرة وذلك هو الفوز العظيم
ولما ذكر حال المؤمنين قال ان الذين كفروا ينادون في النار لمقت
الله لكم اكبر من مقتكم انفسكم الآن وهذا اخبار عن شدة البغض
منهم لانفسهم لما جنته واكتسبته كما يقال فلان قد سئم نفسه
قال الشاعر   ورب وقت وجودي فيه اسأمه دع الحجاب لروحي من حجبي
ويحتمل ان يقال ان المراد بقوله انفسكم بعضهم لبعض من الآباء والازواج والذريات
فهم بعض اهل الجنة بدليل يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم
بعضا ويكون بمعنى ثم انتم هؤلاء تقتلون انفسكم لكنه هاهنا اولى بقائهم وجمع
لكون الخطاب للجمع تقول رأيت الدار ورأيت نفس الدار الاول كما يرى النائم
والثاني حقيقة الشيء ولخر قوله اذ تدعون الى الايمان فتكفرون لاجل الوزان
وهاهنا معنى يجب ان يفهم وهو ان مقت الله لهم في النار اكبر من مقتهم في
النار لانفسهم وكذلك مقت الله لهم في الدنيا اذ يدعون الى الايمان فيكفرون

أكبر من مقتهم أنفسهم وهم في النار ولهذا جاء مقت الله لهم مقيدا بزمن
لا يمقتون فيه أنفسهم إذ لو مقتوها في الدنيا لما كفروا ومن البين أن مقتهم
لأنفسهم إنما هو وهم في النار بدليل قولهم بعده قالوا ربنا أمتنا اثنتين
وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل أي
لنؤمن بالرسل ولما كان مقت الله لهم حين الكفر في الدنيا قبل مقتهم أنفسهم
في النار لزم أن يكون مقت الله باقيا لهم وهم في النار وهذه الآية إذا فهمتها
حق فهمها من البقرة تبين لك صحة ما قلناه في الموتتين ولم يبق مشكل يعارض
ما قلناه ولم يقدم ذكر الحياتين على الموتتين لأن الواقع في الوجود كان
كذلك فهم اعترفوا بذنوبهم في الحياة الثانية والمراد بالاعتراف تحقق العدل
وانتفاء الظلم عن الله عند المعترفين فذكروا الموتتين والحياتين إنما عن اعترافهم
بصحة ما وعدهم الله كما بيناه في البقرة ثم خاطب الله المذكورين في النار بخطاب
الحاضرين إسماعا لكل كافر فقال ذلكم الجزاء بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم
وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير فكيف تشركون به من لا
حكم له هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا
من ينيب فادعوا الله مخاطبة من تذكر مخلصين له الدين ولو كره الكافرون
رفيع الدرجات رفيع بمعنى رافع والدرجات مفعول نرفع درجات
من نشاء والأولى أنه وصف له سبحانه على طريق التمثيل والاستعارة تقول
فلان ذو درجة رفيعة في النحو في العلم فهو سبحانه رفيع الدرجات
مطلقا أي درجات لا تتناهى في الصفات والأسماء الحسنى ثم ذكر من ذلك

قوله ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده فقد فسر
بهذا ما تقدم من قوله رفيع الدرجات وذلك كما تقول فلان فاضل فإن قلت
فاضل فلان كان أبلغ فافهم لينذر النذير من عباده لمن يخشى يوم التلاق
يلتقي الأحياء بالأموات والأوائل بالأواخر يوم هم بارزون وبرزوا
لله جميعا أي من أجل أنهم لا يخفى على الله منهم شيء فيقال لهم لمن
الملك اليوم فهذه منادات الخلق يوم هم بارزون ولا فائدة إذا لم يكن
من يجيب ولا من يسمع فيقول كل مخلوق إقرارا بالحال الذي هو أفصح من
المقال لله الواحد القهار لأن الأكثر لم يكن معتقدا ذلك وينطوي على هذا
الشرح قوله بعده اليوم تجزى كل نفس بما كسبت والنبأ كقوله من يعمل
سوءا يجز به لا ظلم اليوم دليل على أنه في الدنيا يقع الظلم من العباد بعضهم
لبعض ولكن الظالم يعود عليه ظلمه والمظلوم لا يكون إلا إما معاقبا
بذلك أو ممتحنا ليجزى عليه إن الله سريع الحساب وأنذرهم يوم الآزفة
أزف الأمر إذا دنا والقيامة دانية إلينا في كل طرفة عين وتقديره فقل يا
قوم اذكروا إذ القلوب لدى الحناجر تقدم في سورة الأحزاب كاظمين
في موضعها مذكورة ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع والمعنى أنه في
ذلك اليوم لا يكون كذب ولا كذب ولا شفيع يطيعه الله فيقبل شفاعته
ويحتمل ما معناه أنه ليس لهم في ذلك اليوم شفيع كان يطاع في الدنيا كالملك
المطاع في الدنيا إذا شفع فيهم في الأخرى فلا ينفعهم من هو مثلهم كالحميم
ولا من هو فوقهم كالمطاع ونسق على قوله إن الله سريع الحساب

يعلم خائنة الأعين أي الخيانة صفة للنظرة كالعافية والمراد خيانة كل عين أنت
والخيانة أن تأخذ ما ليس لك كأنما أراد بذلك مستخفا مستقلا للذنب كمن يفتي نفسه
بوجه أو نسيانه محتجا مغالطا متبعا هواه معتقدا أو توبة بتقواه ولما ذكر الخاينة
من العين أتبعها بقوله وما تخفي الصدور ثم قال والله يقضي بالحق
أي وقد علم فيجزي على مثقال ذرة ونظرة وخطرة والذين يدعون من
دونه لا يقضون بشيء إن الله هو السميع البصير أولم يسيروا في كانوا
الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم إنما كرر كانوا هاهنا
لأن الإشارة بما جاء بعدها من لفظة كانوا الثانية إلى الحاضرين وهي بمعنى
الاستفهام تقديرها أكانوا ولهذا زاد لفظة هم إشارة إلى السائرين
أشد منهم من الأوائل قوة وآثارا في الأرض فلزم زيادة كانوا الأولى
هاهنا وأما في الروم فقوله كانوا هي إخبار عن الأوائل وهاهنا جاءت لفظة
كانوا أشد إخبارا عن الأوائل وآخر دون الأوائل ويريد بها الاستفهام فيكون
المعنى هاهنا بل أولئك كانوا أشد فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم
من الله من واق ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا
فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ولقد أرسلنا موسى بآياتنا
وسلطان مبين إلى فرعون وهامان أولا وقارون فقالوا ساحر
كذاب فلما جاءهم موسى جاء فرعون وهامان فقط وأما قارون فإنه
جاء فيما بعد لأنه كان من قوم موسى لا من قوم فرعون فقرنه الله إليهم
في الذكر لاقترانه بهم في التكذيب بالحق من عندنا ولهذا أخبر الله بعد

ذكر قارون بما قاله فرعون وملأوه قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه
من آل فرعون كالسحرة وكانوا يقتلون أبناء بني إسرائيل من قبل مجيء
موسى فلما جاء موسى استمر القتل على ما كان عليه ثم فعلوا ذلك أيضا
بمن آمن معه لأنه عاد حكم من آمن كحكم بني إسرائيل وصار الجميع
قوما لموسى ولهذا قال بنو إسرائيل لموسى أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما
جئتنا واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال أي كذاهب
في ضلال فإنه لا يصل إلى مقصوده أبدا بل كلما ازداد في سيره ازداد في ضلاله
وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه أي بما شاء وهذا كفر
برب موسى وأنه لا يجيب الداعي ثم جعل فرعون قوله ذلك سببا يعود
نفعه على قومه فقال إني أخاف أن يبدل دينكم وأن يظهر في الأرض
الفساد وقال موسى إني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن
٢٨ بيوم الحساب وقال رجل مؤمن وكان قبطيا من آل فرعون يكتم
إيمانه ولو قدمه فقال يكتم إيمانه من آل فرعون لجاز أنه من بني
إسرائيل وأما من جوز ذلك من عبارة القرآن فإنه لا يعرف الفرق
بين كلام الله وكلام الناس أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله أي
فهل يكون هذا ذنبا يستحق قائله قتلا وهذا دليل على أنهم كانوا يعرفون
الله تعالى وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذبا فعليه يعود
كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إنما قال بعض ليحجهم
بما لا يقدرون على دفعه إذ متى لزمهم أن يحترزوا من أن يصيبهم البعض

فكيف لا يحترزون من ان يصيبهم الكل اذ متى احتمل ان يصيبهم البعض
فقد جاز ان يصيبهم الكل وبيان ذلك انه كان يعدهم بعذاب الدنيا وعذاب
الاخرة وهم لا يؤمنون بعذاب الاخرة فاذا كان صادقا في الوعد اصابهم
عذاب الدنيا بلا شك وهو البعض وبين ذلك بقوله فيما سياتي لكم
الملك ثم قال تعالى ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب
ويحتمل ان يكون من كلام المؤمن لقومه بمعنى ما ظهر من مخايل موسى وبان على
لسانه من صدقه فيما يدعيه لكونه قال او لو جئتك بشيء مبين ثم جاء
به او قد يكون بمعنى الموعظة لقوم المؤمن اي فلا تسرفوا ولا تكذبوا
لئلا يهديكم وهذا الكلام هو بعض ما قاله المؤمن لقومه ثم قال يا قوم
وهذا يدل على انه كان منهم بلا شك لكم الملك اليوم وقد اصبحتم
ظاهرين في الارض اي مستظهرين على غيركم اما تخافون على ملككم
فمن ينصرنا من باس الله ان جاءنا اي اذا قتلنا من يقول ربي الله قال
فرعون ما اريكم الا ما ارى من روية القلب اي ما اراه لي صالحا وما
اهديكم الا سبيل الرشاد اي لا ارى الا قتل هذا وقال الذي امن يا قوم
اني اخاف عليكم مثل يوم الاحزاب الذين تحزبوا على انبيائهم وبين
ذلك بقوله مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما
الله يريد ظلما للعباد لكن بظلمهم لانفسهم عاقبهم وقد علمتم ما جرى
عليهم ويا قوم اني اخاف عليكم يوم التناد يوم يسمعون الصيحة
بالحق والواو في قوله ويا بمعنى وقال لهم ايضا يا قوم وفايدة هذه الواو

التعريف بانهم لما كانوا لا يعتقدون الاخرة وقد خوفهم اولا بعذاب
الدنيا وزوال ملكهم بقوله يصبكم بعض الذي يعدكم فلما ذكر لهم حال الاحزاب
في الدنيا ذكر لهم ايضا التخويف بما يجري في القيامة وان لم يكونوا ممن
يعتقد ذلك وهذا غاية النصح من الناصح ان يقول ما يعتقده وان لم
يعتقده الخصم فبين الله لنا انه لم يقتصر على تخويفهم بعذاب الدنيا
بل خوفهم به وخوفهم ايضا بعذاب الاخرى فهذه فايدة الواو فانهما
وبين يوم التناد بقوله يوم تولون مدبرين الى النار عن الجنة ما لكم
من الله من عاصم اي من عذابه ومن يضلل الله فما له من هاد ولقد
جاءكم يوسف من قبل اي قبل موسى بالبينات الايات المعجزات وهذا
كلام للجمع الماضين من قبل والان من موسى اي انكم على سنن واحد في
تكذيب الرسل فما زلتم في حياته في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك
مات كقوله ان امرؤ هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا اي اقمتم
على كفركم وظننتم ان الله تعالى لا يجدد عليكم ايجاب الحجة برسول كذلك
اي مثل ذلك الضلال يضل الله من هو مسرف مرتاب اي شاك في رسل
الله واياته الذين في موضع نصب ردا على من المذكورة يجادلون في ايات
الله بغير سلطان اتاهم منه ولا من غيره اذ هو لا يبطل اياته وغيره
لا يقدر والسلطان هو ما بينه في قوله تعالى ومن الناس من يجادل في
الله بغير علم اتاه من غيره ولا هدى اتاه من نفسه ولا كتاب منير اتاه
من ربه فهذا فايدة قوله اتاهم لئلا يشتبه بما يتسلط به الخصم

من الشرك او غيره لو لم يقل اتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين امنوا اى
ذلك الجدال كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار قرئ بغير تنوين
قلب وهو الوجه والمعنى انه تعالى اذا عاقبهم على التكذيب والشك بالضلال
اذ لم يتوبوا طبع على قلوبهم فلا يمكنهم التوبة بعد الطبع وقد كان يمكنهم
قبل فغير المعاقب بالضلال والطبع يعلم انه فاسق واما المعاقب
بالطبع فانه يعتقد انه على حق ويجادل عن نفسه بالباطل ولا يرى انه
الا الحق فافهم ذلك من الايتين فان الضلال اذا لم يكن عقابا امكن الخروج
منه وان كان عقابا فمن يهدي من اضل الله وهذا الطبع لا يكون الا لمن
اصر وهو يعلم وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا تقدم في النمل
لعلي ابلغ الاسباب ليست الاسباب مكررة ولا الثانية تفسير
الاولى ولو اراد ذلك لكفى ان يقول لعلي ابلغ اسباب السموات ويحتمل ان يكون
معناها والله اعلم لعلي ابلغ بالاسباب اى الارضية كالصرح اسباب السموات
اى اسباب غيب السموات اى كما يدعي موسى فاطلع الى اله موسى وليس
المراد من الطلوع او التطلع بل الاطلاع الذي هو بمعنى العلم والمعنى ان فرعون
قال هذا القول على دعوى موسى لانه كان على يقين من ذلك ولهذا بعده واني
لاظنه كاذبا فذلك على سبيل الاستبعاد لما ادعاه موسى وعلى طريق التهجين
له لا لانه اراد صرحا ولا ان هامان بنى له ذلك فهو من باب اعمل لي جناحا
لاطير به ويقوي ذلك ان فرعون انما ظهر منه ذلك على سبيل التجبر والتكبر
بقوله ما علمت لكم من اله غيري ومثله قوله انا ربكم الاعلى ولم يقل ربكم الاعلى

انا فافهم ان الاول تكبر والثاني اعتقاد وقد شهد القران بذلك في قوله وجحدوا
بها الاية وكقوله فاستكبروا وكانوا قوما عالين وكقوله هاهنا كذلك يطبع
الله على كل قلب متكبر جبار وفي هذا الكلام ما يدل على انه اذا كان الملك يتصرف
في رعيته تصرف الاله بغير خشية من الله فهو قد قال بلسان الحال ما علمت لكم
من اله غيري ولهذا قال لكم وقد علمت ان العبادة هي الطاعة وكذلك
زين لفرعون سوء عمله عقابا وصد قومه عن السبيل المنجية بكيده
لموسى وما كيد فرعون الا في تباب هلاك وتكسير وقال الذي امن
يا قوم اتبعون اهدكم سبيل الرشاد يا قوم انما هذه الحياة الدنيا
متاع وان الاخرة هي دار القرار لاهل الجنة والنار من عمل سيئة فلا
يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون
الجنة يرزقون فيها بغير حساب ويا قوم ما لي ادعوكم الى النجاة وتدعونني
الى النار ثم قال استئنافا مما توبخهم به تدعونني لاكفر بالله واشرك به ما ليس
لي به علم اى انه لا يعلم لله شريكا وانا ادعوكم الى العزيز الغفار لا جرم انهم لا
يعتقدونها فقوله لا رد للشئ من دعوى خصمك وجرم تحقيق لرد ذلك عليه ومعناها
وجب بطلان ما تدعونني اليه من دون الله فقال لا جرم انما تدعونني اليه ليس
له دعوة تستجاب من عبده في الدنيا ولا في الاخرة والله يدعو الى دار
السلام وان مردنا الى الله فيجازينا وان المسرفين هم اصحاب النار
اى كل هذا واجب وحق فستذكرون ما اقول لكم وافوض امري
الى الله ان الله بصير بالعباد قال الله تعالى فوقاه الله سيئات ما مكروا

اي وقي موسى بكلام المومن لانه اول القصة وقال فرعون ذروني اقتل موسى فتكلم
المومن بهذه الكلمات فوقاه الله بها وحاق وحاط بال فرعون سوء العذاب
النار يعرضون عليها غدوا وعشيا الطعم يعرض على البازي لا البازي
يعرض على الطعم فهم طعام النار وهالا يخصوا من حين موتهم الى يوم
القيامة بهذا ويوم تقوم الساعة ادخلوا آل فرعون اشد العذاب
وبهذا لا تحسب ان آل فرعون هم النفر الذين كانوا معه في حال حياته
فقط بل هم الى يوم القيامة آل فرعون من كل متبع له ولهم ولهذا قال
تعالى وجعلناهم ايمة يدعون الى النار وقد بينا كيف يدعون واذ يتحاجون
في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا في الدنيا فهل انتم
اليوم مغنون عنا نصيبا اي واحدا من النار قال الذين استكبروا انا
كل فيها فكيف نغني عنكم ولا نغني عن انفسنا ان الله قد حكم بين
العباد بالحق وقضى الامر وقال الذين في النار لخزنة جهنم
ادعوا ربكم يخفف عنا قدم يوما للاهتمام به واخر من العذاب
للوزان قالوا اولم تك تاتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا
فادعوا تقديره فلا يستجاب لكم اذ لم تستجيبوا لهم وما دعاء
الكافرين الا في ضلال انا لننصر رسلنا والذين امنوا في الحياة
الدنيا ويوم يقوم الاشهاد الذين يشهدون من كل امة وهي جمع
شاهد مثل صاحب واصحاب يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم
ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ولقد اتينا موسى الهدى واو

بني اسرائيل الكتاب هدى وذكرى لاولي الالباب فاصبر ان وعد
الله حق الوعد هاهنا بالنصر له وللذين امنوا في الدنيا والاخرة
كما تقدم هاهنا واستغفر لذنبك المراد تعليم الامة لانه
اذا كان هذا الامر لمن غفر له فهو اولى ممن سواه وسبح بحمد ربك
بالعشي والابكار ان الذين يجادلون في ايات الله بغير سلطان
اتاهم ان في صدورهم الا كبر ما هم ببالغيه اي ليس بيتهم
ومحلهم من العلم بقدر ما في صدورهم من الكبر فلم يبلغوا الى
حد ما يزعمونه ويظنونه في انفسهم ويحتمل ان يكون المعنى
ما تقديره ما هم ببالغي ارادتهم من الكبر وارادتهم دفع ايات
الله بقوله يجادلون ثم امر الله نبيه بالاستعاذة من صنفهم
وهذا من ابلغ الذم لهم والتحذير منهم فقال فاستعذ بالله انه
هو السميع لما يقولون البصير بما يعملون ثم قال ما معناه باي
شيء يتكبرها ولا على ايات خالقهم وقد خلق ما هو اكبر منهم
لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس وقوله ولكن اكثر
الناس لا يعلمون انما نفى عنهم العلم واما البصر فغير منفي
والمعنى معلوم من قوله تعالى اوليس الذي خلق السموات والارض
بقادر على ان يخلق مثلهم فذكر لهم هاهنا عقيب ذكر الاستكبار
بنيهم انه قادر على اهلاكهم وايجاد غيرهم اذ من خلق الاكبر وهو
السموات قادر على خلق الاصغر كقوله تعالى ان يشا يذهبكم الاية

ولهذا توعدهم بالساعة ثم ذكر المستكبرين وتوعدهم بدخول جهنم داخرين
فلما أمر بالاستعاذة من صفتهم أولا وبين جزاءهم آخرا علمنا أن قوله ولكن
أكثر الناس لا يعلمون يعني لا يعلمون جزاء الاستكبار وأنه يدخل النار فلهذا
كرر الكلمات بعينها في قصة فرعون بلسان المؤمن في قوله الذين يجادلون
في آيات الله بغير سلطان أتاهم وألحقه بذكر التكبر ثم قال هاهنا إن الذين
يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر فاقرأ جملة
الآيات متدبرا لتتفقد بما قلته لك في فهم المعنى من الآيات لا من كلامي بل
بكلامي فتعلم أنه إنما أشكل قوله ولكن أكثر الناس لا يعلمون لما أعدناه على ما
قبله من خلق السموات وما أخذناه إلا وهو يعلم أن خلق السموات أكبر من خلق
الناس فلما أعدناه إلى أنهم لا يعلمون جزاء الاستكبار انحل الإشكال إذ لو علموا
لما استكبروا ولما كان من لا يعلم أعمى القلب قال تعالى وما يستوي الأعمى
والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمسيء ولا المسيء بهم أي لا
يستوون في الجزاء قليلا ما تتذكرون ثم توعد المستكبرين الذين لا يعلمون
فهم بمنزلة العمي فقال إن الساعة لآتية أي فهي موعدهم لما يستحقونه
من الجزاء لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون بها وهم الذين لا يعلمون
المتقدم ذكرهم ولهذا ذكر أكثر الناس أولا وسلب عنهم العلم الذي يتقدم على
الإيمان ثم ذكر اللفظ بعينه أعني قوله ولكن أكثر الناس وسلب عنهم الإيمان
الذي لا يكون إلا بعد العلم ثم نبه على الخلاص من هذه المصيبة الكبرى بقوله
وقال ربكم ادعوني أستجب لكم ولما كان الدعاء مع الاستكبار غير

مفيد قال تعالى إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم
داخرين فهمنا أن المستكبرين لا يستجاب دعاؤهم إلا إن آمنوا وأن
الدعاء بالأفعال متقدم على الدعاء بالأقوال فالمستكبرون غير داعين بالحقيقة
وإن دعوا بالأفواه وعلمنا أن قوله ادعوني أستجب لكم دليل على الكسب
وهذا الأمر من الله ظهر فائدة الدعاء لأنه من جملة الكسب بل أفضل
الكسب عند من يفهم ويلزم أن المؤمن لا يدعو الله بما لا يرضاه منه
وقد عاد الدعاء عبادة إذ العبادة هي امتثال الأمر ثم قال تعالى موبخا لمن
عبد غيره الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا أي
لا ما تعبدونه من دونه إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس
لا يشكرون ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون
كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون أي كما أفك هؤلاء ولم
يقل أفك بل بلفظ المستقبل ليدل على أن الأمر كذلك إلى يوم القيامة
ثم قال موبخا أيضا لمن عبد غيره الله الذي جعل لكم الأرض قرارا
والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات
ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحي والذين تدعون
من دونه أموات غير أحياء لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين
لا للشركاء الذين لا يرزقون ولا يستحقون الحمد بل الحمد لله رب العالمين
وتمام الفاتحة فهو تنبيه على الصلاة التي هي أس الدين وإنما ذكر أول
الفاتحة ليدل على باقيها وليعلمنا أفضل الدعاء وأفضل التسبيح كقوله

فسبح بحمد ربك وقد علمنا ان الصلاة بالفاتحة وانها عبادة فلهذا قال بعد
قوله ادعوني استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتي فانهم ولما امر
الله سبحانه بعبادته نهى عن عبادة غيره فقال قل اني نهيت ان اعبد
الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وامرت ان
اسلم لرب العالمين هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من
علقة ثم يخرجكم من بطون امهاتكم طفلا ثم يربيكم لكي لتبلغوا اشدكم
ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل هذه القبلية تحتمل سائر
المدد المذكورة ولتبلغوا اجلا مسمى هو الاجل الذي لا يؤخر وهو
اجل الله والذي قبله اجل العبد الذي يمكن ان يؤخر العبد بالطاعة بعد
الى المسمى كما بينا في اول سورة الانعام ولعلكم تعقلون بهذه الايات
الدالة على عظم القدرة ووجوب طاعة القادر سبحانه هو يحيي ويميت
اي هو يحيي من طال عمره الى منتهى الاجل ويميت من قصر عمره بسوء
العمل فاذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون وهذا الكلام كله
للذين يجادلون في ايات الله علم الله رسوله كيف يجادلهم ويحتج
عليهم ثم ذكرهم اخيرا كما ذكرهم اولا ليكون الكلام بين الذكرين
مختصا بهم وان كان النفع به عاما فقال الم تر الى الذين يجادلون
في ايات الله انى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبما ارسلنا به رسلنا فسوف
يعلمون اذ الاغلال في اعناقهم والسلاسل في الاغلال يسحبون بها
في الحميم ثم في النار يسجرون والحميم هاهنا عرق اهل النار

والتجار ما توقد به النار كقوله فكانوا لجهنم حطبا والتجر ايضا الحبس
واذا البحار سجرت ثم قيل لهم اينما كنتم تشركون من دون الله قالوا
ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا وما يتبع الذين يدعون من
دون الله شركاء ان يتبعون الا الظن كذلك يضل الله الكافرين عقابا
لما استحبوا العمى على الهدى فعاقبهم بالضلال ويحسبون انهم مهتدون
ذلكم بما كنتم تفرحون في الارض بغير الحق وبما كنتم تمرحون وهذا
مفهوم من قوله فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم
من العلم ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين
فاصبر ان وعد الله حق الصبر الاول وعد للنبي صلى الله عليه وسلم
وللمومنين في الدنيا والاخرة لهذا قبله انا لننصر رسلنا وتمامه
والصبر الثاني وعيد للكفار لما يحل بهم في الدنيا والاخرة لهذا
بعده واما نرينك بعض الذي نعدهم او نتوفينك فالينا يرجعون
ولقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم
من لم نقصص عليك قصته وما كان لرسول ان ياتي باية الا
باذن الله فاذا جاء امر الله يريد بالامر مجيء الاية فاذا راوها
بينهم
وكذبوا قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون اي فلو جئتهم
انت باية كما ارسل الاولون فكذبوا بها لحق عليهم العذاب وعجل
لهم العذاب والاستيصال اذ هذه سنة الله في الذين خلوا من
قبل ثم اخذ يعنفهم ايضا على عبادة غيره فقال الله الذي جعل

الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون ولكم فيها منافع ولتبلغوا
عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون ويريكم
آياته علامات القدرة في كل شيء فأي آيات الله تنكرون
أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم
كانوا يريد الماضين أكثر منهم عددا وعددا ومددا ومددا
وأشد قوة وآثارا في الأرض بدليل ما بقي من أبنيتهم إلى الآن
فما أغنى عنهم ذلك عقاب ما كانوا يكسبون فلما جاءتهم
رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم الذي هو
بخلاف ما جاءت به الرسل وجعلهم مثلا لئلا يستكبر عالم
بعلم مخالف للوحي فيناله ما نال أولئك وحاق بهم ما كانوا
به يستهزئون وهو العذاب كقوله ويستعجلونك بالعذاب
أي استهزاء لاعتقادهم أنهم لا يعذبون فلما رأوا بأسنا قالوا
آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم
لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده والمراد الأمم
الخالية وكذلك يوم القيامة لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت
من قبل وكذلك أمر العباد في الدنيا بقوله إلا الذين تابوا من قبل أن
تقدروا عليهم وخسر هنالك الكافرون خسروا أنفسهم
وأهليهم ن

سورة فصلت آية ٥٤

بسم الله الرحمن الرحيم حم اسم لجميع الحروف المجتمعة
من أبجد وتمامها كأنه قال حم وأخواتها كتاب فصلت آياته وقيل تنزيل
مبتدأ من الرحمن الرحيم تقديره هو كتاب خبره فصلت آياته قرآنا
عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا قيل الوصفان للقرآن والأولى أنه مع
بشير بدليل ما بعده قوله فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون فذلك
قوله وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ثقل والأكنة
مأخوذة من الكن واحدها كنان مثل سنان وأسنة لأنه يكن الشيء بضم
الكاف ويصونه ومنه كننت الجارية إذا صنتها ومن بيننا وبينك
حجاب يمنع الأبصار فلخبروا عن أنفسهم أنهم بمنزلة من لا يفقه بقلبه
ولا يسمع بأذنه ولا يدركه الحجاب أن يرى بعينيه وفائدة من أنها الخبر أن
الحجاب قد استوعب البين فلا يخلو مكان بينهما بغير حجاب كما تقول
المفازة من بين مكة والمدينة أي وإلى المدينة ولو قالوا بيننا وبينك
حجاب دل على حجاب وإن لم يستوعب ولو قالوا وبينك وبيننا لدل
على أن الحجاب ابتدأ من جهته فاعمل على مكانتك ونشاكلك إنا
عاملون كذلك قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد
فاستقيموا في السير إليه واستغفروه وويل للمشركين الذين
لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون زيادة هم إعلام بأنهم غير
مجترئين على الكفر بل هم كفروا وعين من أوصاف المشركين أنهم لا
يؤتون الزكاة إعلاما أن من لا يؤتي الزكاة لا يعتقد الجزاء في الآخرة
بل هو كافر بها وبين ذلك بقية الآية وجعله من تمام وصف المشركين

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون مقطوع والمن في
اللغة القطع ومنه المنون والمنية لأنها تقطع حبل الحياة ومنه المن
بالعطاء لأنه يقطع الأجر ولهذا قال لا تبطلوا صدقاتكم بالمن ولم يقل لا
تفسدوا والمنان وهو الرحمن سبحانه ذكر بهذا الاسم لأنه يقطع قطعة
من الفضل لمن يشاء من عباده إنعاما عليهم لا جزاء لهم فالأصل واحد ثم
نقل من العرف اللغوي واستعمل فيما يستحب من الرب ويكره من العبد
والله أعلم قل أئنكم إنكار وتعجب وبلفظ الاستفهام لتكفرون بالذي خلق
الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين أي لا الأنداد
المجعولة وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها
كما تقول فاكهة البستان فتضيفها إليه وتقديره في تمام أربعة أيام وقوله
سواء للسائلين أخر للسائلين للوزان وقوله سواء يعود على السائلين كما
نبين والمعنى أنه تعالى قدر الأقوات للسائلين وجعل الرواسي وبارك مع التقدير
في تتمة أربعة أيام وذلك يومان آخران وإنما أجملهما في الذكر لما نبينه في
المستقبل فالأقوات مقدرة بقدرها هي لا بقدر السائلين وإلا لزم أنها
لا تفضل ولهذا قال أقواتها ولم يقل أقواتهم ولا شك أن كل مقوت فإنه
سائل بالحال الذي هو أفصح من المقال وذلك لاضطراره إلى ما يقيته وقوله
وقدر بعد قوله وجعل يريد ما قدره لكل سائل إلى آخر عمر الدنيا كقوله وما
ننزله إلا بقدر معلوم فيكون المعنى وقدر فيها أقواتها دائما للسائلين
الأقوات أبدا وجعل الأقوات لهم سواء بمعنى أنه تعالى لا يرزق المؤمن

دون الكافر ولا البر دون الفاجر ولا الماشي دون الطائر بل ساوى الكل في أنهم
يقتاتون كقوله وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ثم استوى إلى السماء
وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها هذا الكلام معرب
عن غاية القدرة على هذا المخلوق الكبير وهو في المثال كما يقال افعل هذا شئت
أم أبيت وإنما عبر بهذه العبارة ونسبهما إلى من لا يعقل أعني قوله طوعا
أو كرها بمعنى طبعا أو قسرا وذلك كالحركة المغربية للأفلاك والكواكب
السيارة فإنها طبيعية على ذلك وبعكسها الدورة المشرقية فإنها أعني
الأفلاك تتحرك قسرا بالسماء ذات الرجع فالطبع والقسر فيمن لا يعقل
كالطوع والكره فيمن يعقل كما إذا رمينا الجسم إلى أسفل كان هويه طبعا
وإلى فوق كان رميه قسرا وهو المعبر عنه بالكره لأنه تعالى لما أوقع الخطاب
الذي يصلح لمن يعقل على من لا يعقل عبر بعبارة من يعقل وحكى عنه جواب
من يعقل بقوله قالتا أتينا طائعين إذ المراد تفهيمهم من يعقل من العباد
والله أعلم بكلامه وقد جاء لفظ الكره في الإخبار عن البشر ولم يرد به ما
يتبادر إليه الفهم من كراهة المكروه بل إنه لم يكن عن اختيار المفعول
بل عن اختيار الفاعل وذلك قوله حملته أمه كرها فلما لم يكن الحمل إليها
سماه الله كرها وإن لم تكن كارهة لذلك بل قد تحبه فلما لم يكن ذلك
الحمل من جهة قدرتها عليه بل من جهة قدرة الله سماه الله كرها
وكذلك قوله في سورة الرعد ولله يسجد من في السموات والأرض
طوعا وكرها ثم قال وظلالهم فلما كان منهم من يسجد طوعا ومنهم من

لا يسجد شبه من لا يسجد بالظل الذي هو ساجد كرها لا لأنه أعني الظل
ذو كراهة عن عقل فلزم من ذلك أن الساجدين طوعا هم أيضا ساجدون
كرها كظلالهم فهم وظلالهم في السجود واحد كما أن الظل منفعل لما هو
ظله كذلك نفس وجودهم سجود وإن لم يختاروا السجود ولم يكرهوه
وفهم من ذلك أن من لم يسجد طوعا لله فهو بمنزلة الظل الزائل وهو
ساجد كرها فتسخيره لما أريد به في الوجود هو منه حقيقة السجود
لكن الكافر ساجد كرها اتباعا للحظ والمؤمن يسجد طوعا اتباعا للحق
فقوله سبحانه عن السموات والأرض قالتا أتينا ليس ثم قول منه ولا
قول منهما بل لما وصف غير بني آدم بوصفهم في الأمر أجراه مجراهم
لأن الخطاب لهم ليفهم من ذلك أن مثل هذا العالم الأكبر أتى طايعا
فكيف لا يخاف هذا المخلوق الأصغر إذا ذهب عاصيا وقال طايعين ولم
يقل طايعات لأجل الوزان فلا تقف مع لفظ عربي أو عجمي ولسان قالتا
به فنفس وجودها الذي أنت الآن مشاهده قول فصيح معرب بأوجز
العبارة لمن كان له قلب من العبيد أو ألقى السمع وهو شهيد فقضاهن
أي يكن لهذا عبر بلفظ القضاء كقوله إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون
سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها من تسيير كواكبها
وإظهار عجايبها واختلاف حركاتها وتأثيرات المؤثرات وغير ذلك فأوحى
الأمر بكان ما يجب كونه فيها وعنها وأما قوله وهي دخان فذلك فذلك
قبل خلق الكواكب شبهها بذلك وفيه أن هذا المخلوق الشديد كقوله أأنتم

أشد خلقا قبل خلقه الله من أضعف الأشياء وهو الدخان الذي يلزمه السواد
ولا يكون له ثبات فخلق القوي من الضعيف والنير من المظلم ويجب أن تفهم
أن قوله تعالى ثم استوى إلى السماء لا يناقض قوله والأرض بعد ذلك دحاها
لأن السماء خلقت قبل الأرض كما جاء في التوراة وشهد به القرآن فأما التوراة
فإن أول آية فيها ما هذا منقول به عربيا وهو برأسيته برأ الإله السموات
والأرض فقدم السماء في الذكر عند وصف أول الخلق كما قدمها في الذكر عند قوله
فقال لها وللأرض وذلك في الكتابين عبارة عن أول الكون ثم قال في ثاني آية
في التوراة والأرض كانت غامرة مستبحرة وظلام على وجه الغمر وريح
الله تهب على وجه الماء ثم ذكر في الثالثة وقال الله يكون نور فكان نور
ورأى الله النور حسنا فافترق الله بين النور والظلمة وسمى الله النور نهارا
والظلمة ليلا وكان غروب وكان بكور يوما واحدا ثم ذكر بعد هذه
الآية أن الله خلق السماء أولا في وسط الماء فقال فيها وقال الله يكون رقيع
بوسط الماء ويكون فاصلا بين ماء لماء أي بين ماء وأصل الماء وفسروا
الرقيع الجلد كما يكون الجليد من الماء ثم قال بعد هذه الآية وصنع الله الرقيع
فافترق بين الماء الذي من فوق الرقيع وكان ذلك ثم قال بعده وسمى الله الرقيع
سماء وكان غروب وكان بكور يوما ثانيا ثم ذكر بعد هذه الآية خلق
الأرض أعني بعد اليومين الأولين فقال وقال الله يجتمع الماء من تحت السماء
إلى مكان واحد وتظهر اليبسة وكان ذلك وسمى الله اليبسة أرضا
ومجمع الماء سماه بحرا ورأى الله ذلك حسنا وقال الله تخرج الأرض

عشبا وشجرا مثمرا من كل صنف وكان ذلك وكان غروب وكان نور
يوما ثانيا فهذا نصهما نقلته بلفظه متتابعا وهذا الكلام لمن تامله
يفهم منه ان الله تعالى اول ما خلق ما في ظلمة عدم وذلك لان قوله
تعالى وقال الله يكون نور هذا امر امر به بعد خلق السماء والا لا يصح
عدد الايام فان قيل كيف يكون الما اولا وقد قال اول ما خلق الله السموات
والارض فالجواب عن التوراة انه كما تقدم السموات والارض الما
الذي منه خلقهن كذلك تقدم في القرآن بقوله وكان عرشه على
الماء وانما بين الله لنا ان الما الاول غير هذا الما ولهذا قيل ان
ما لطف من الما علا على السماء فان المياه لما توسط بينهما الرقيع
صارت المياه التي فوقه لطيفة في غاية البساطة ومن فرط بساطتها
ولطافتها ارتقت للعلو لان من شان كل لطيف ان يرتقي الى العلو بلطف
جرمه وكلما ارتقى زاد لطافة وبساطة والاجسام النازلة الى
السفل تزيد كثافة وثخانة فلذلك نقول ان تلك المياه لم يرتق منها
صاعدا الا ما كان جوهره بسيطا وكلما صعد زاد لطافة وبساطة
الى ان خرج عن حد الجوهر الما وقوامه ولم يكن فيه ضوء وكان
مظلما فشبه بالدخان ومنه خلقت السما وفوقها منه ما
هو الطف والدليل على هذا قوله وصنع الله الرقيع فافرز بين
الما الذي من تحت الرقيع والما الذي من فوق الرقيع فصار الرقيع
حجابا بين اللطايف العلوية المخلوقة من الما الذي فوقه وبين

الكثايف الجسمانية السفلية التي خلقت من الما الذي تحته وهذا
الافراز لم يرد به الفصل بين جرمين بحجاب فاصل فقط بل ان المياه التي فوق
الرقيع صارت من بساطتها ولطفها جوهرا اخر غير جوهر الما الذي تحت
الرقيع ولهذا ذكر لفظ الافراز فاشار بها الى ما تقدم بقوله بلفظ الافراز فافرز
الله بين النور والظلمة ليس ذلك الافراز فصلا بين شيئين كانا معا واحدا ثم قسما
قسمين وانما هو تمييز جوهر النور انه غير جوهر الظلام بل شيء اخر كذلك
المياه التي نزلت للسفل صارت كثيفة جدا الى ان تجسم منها التراب واما
ما علا فهو جوهر لطيف لا تدركه الابصار فالكل اعني العالمين الروحاني
الذي علا والجسماني السفلي مخلوق من الما ولهذا قال تعالى وكان عرشه على
الما لان الما منشا الحياة كقوله وجعلنا من الما كل شيء حي ولما كان الجمهور
لا يدري كون الما الا ما يقع عليه الحواس ذكر ان العرش كان فوق منشا الحياة
فوقفت العقول عند حدها من بارئها وهذا من ابلغ التفهيم مع غاية
التعظيم وهو العلي العظيم فهذا نص التوراة الى يومنا هذا والذي استلزموه
عنه ان الله خلق السموات والارض معا في ما بقوله كن فكانت السما حين
الخلق بخارا مظلما في وسط ما وكانت الارض مغمورة بما في جوف السما
والسما حينئذ خالية من كواكبها والارض خالية من عجايبها ولم
يذكر في التوراة زمنا الا بعد خلق النور فلما قال الله يكون نور حلد ظهرت
صورة الفلك فلما قال يكون نور دار الفلك فكان الجزء الشرقي المقدر ان
يخلق الشمس فيه صافيا ذا بصاصة وضياء اصفى من جميع اجزا الفلك

فكان منه ضوء نيّر على كرة الماء مدة اثنا عشر ساعة ثم غاب فكان ليل وهذا
شبيه بالجنين فإنه إذا جمدت النطفة فأصفى عضو يكون فيها موضع العينين
وكلما مضى ذلك ازداد بصاصة وصفاء بطول المدة حتى إذا نفخ فيه الروح
حل النور في العينين فكذلك كان النور أول المخلوق بقوله كن فكان ذلك الجزء من
الفلك أصفى أجزائه ولم يزل في زيادة صفاء ونور إلى أن علق فيه جرم الشمس
وموازياً له القمر فهذا هو ما استلزمه فضلاً على أن النور أصلهما وهذا
جامع بين عظم القدرة واعتقاد الحدث وهو معنى قوله تعالى فقال لها
وللأرض ائتيا فهذا دليل القدرة وقوله فقضاهن سبع سموات في يومين
دليل الحدث ولا إنباء في ذلك لفظ التوراة وأما القرآن فقد قيل خلقها قبل
السماء ودحاها بعدها ولا يجوز ذلك لأن الأرض وما يتعلق بها خلقت في
أربعة أيام جملة كما ذكر الله ذلك جملة وهذا هو فائدة الإجمال فخلقها
في يومين في وسط الماء ثم دحاها فظهر وجهها ثم أخرج منها ماءها
ومرعاها في يومين ولا يجوز أن تخرج منها ماءها ومرعاها وهي مغمورة
في الماء الأول فإن قلت خلق الأرض أولاً ثم السماء ثم بعد ذلك دحا الأرض
فقد خالفت النص وأذهبت فائدة قوله في أربعة أيام وإذا لم تفهم أن
اليومين الأولين في جملة الأربعة عاد الخلق في ثمانية أيام وهو خلاف
ساير النص ولهذا لم يقل فقضاهن سبع سموات في ستة أيام كما قال
قبله في أربعة أيام وذلك ليعرفنا انفصال هذين اليومين واتصال تلك
الأربعة فلما قال والأرض بعد ذلك دحاها تحقق أن السماء خلقت قبل

الأرض على ما كان مشكلاً من ذكر العدة إذ لا يكون اليوم يوماً إلا بغروب
وطلوع للشمس فعاد خلق الأرض ودحوها في أربعة أيام معاً وأما كونه
ذكر السموات هاهنا آخراً فلو ذكر الأعلى قبل الأدنى لم يبق لذكر الأدنى
موقع فلما أراد تعظيم إثم الكفر بهذا الخالق العظيم بدأ بذكر الأدنى فقال
أإنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض وهم من جملة ما في الأرض ثم وهو الذي
خلق ما هو أعظم منها وهو السماء فعطف بقوله ثم على كفرهم كأنه قال ثم
أتكفرون بخالق السماء فلم يرد هاهنا الترتيب في الخلقية ولهذا بين الترتيب
بقوله فقال لها ثم قال وللأرض ائتيا وجاء ذكر المدة في الكتابين تنبيهاً
على غاية الحكمة مع عظم القدرة فأما القدرة فنفس الخلق وأما الحكمة
فنفي ما علمه الله من أنه سيقع في بعض الأذهان توهم القدم فذكر
مدة بها يتحقق الحدث وعلى اعتقاد الحدث تصح الشرائع ويعظم
الحق في نفس الخلق فإن خلق السموات والأرض في ستة أيام ممن يقول
للشيء كن فيكون إنما هو لحكمة يعود نفعها على العباد ولا نفع أبلغ من
صحة الاعتقاد وإن انضاف إلى ذلك ما شاء الله من المراد فقد فهمت
من هذه الجملة أنه من البين أن السماء خلقت قبل الأرض ولو كانت الأرض
مخلوقة قبل السماء ومدحوة بعدها للزم أن يكون قوله تعالى ثم استوى
إلى السماء بعد يومين فقط ولا تراه إلا بعد الأربعة فمن قال ثم لا يريد
بها هاهنا بعد بل هي دالة على قبل بيومين ألزمناه بمثل ذلك أنها دالة على
قبل الأربعة وإذا عدنا إلى الحصر فنقول لا يخلو إما أن السماء خلقت قبل

الأربعة أو بعدها أو في وسطها فمن قال بعدها منعه قوله والأرض بعد ذلك دحاها
وقد لزم أن إخراج الماء والمرعى هو بعد أن دحا وإن قلت في وسط الأربعة
منعك أن الأربعة ذكرت متصلة فلزم أن تكون السما في اليومين قبل الأربعة
وصح ذلك بموافقة التوراة وشهادة العقل لأن العقل يقضي بعمل ما به تظهر
العدة من الأيام أولا ويظهر المعمول وهو النور ولا يكون ذلك إلا في السماء
وكذلك يقضي بعمل ما يتعلق بالأرض مع خلق الأرض فانظر إلى حكمة هذه العبارة
في ذكر الأربعة جملة حتى عاد الكلام لغزا معجزا مع كونه ظاهرا موجزا
وثما في التوراة أن الله خلق آدم في آخر الخلق بعد خلق ساير الحيوان وذلك
في يوم الجمعة وهذا صورة لفظ التوراة بعد ذكر اليوم الرابع والخامس
وقال الله تخرج الأرض كل متنفس من الدواب على صنفه وكان وقال
الله نصنع آدم بصورتنا كشبهنا ويستولي على سمك البحر وطير السماء
والبهايم وساير الأرض وساير ما دبت عليها وبرأ الله آدم بصورته بصورة الله
برأه الله ذكرا وأنثى برأهما وباركهما الله وقال لهما أثمروا واكثروا واملأوا
الأرض وابنوها واستولوا على سمك البحر وطير السما وجميع حيوان الأرض
وكان غروب وكان نهور يوما سادسا وفرغت السموات والأرض وجيوشها
وفرغ الله في اليوم السابع صنعته التي عمل وعطل في اليوم السابع من
كل صنعته التي عمل وبارك في اليوم السابع إذ به فرغ من صنعته التي برأ
ثم قال هذا ميلاد السموات والأرض في خلقهما بيوم صنع الله أرضا وسما
وكل شجر في الصحرا قبل كونه في الأرض وكل عشب إذ لم يمطر الله الأرض

وآدم لم يكن ليعبدهما وبخار يصعد من الأرض ويسقي وجهها جميعا وخلق
الله آدم ونفخ في أنفه نسمة الحياة فكان آدم ذا نفس حية وغرس الله
جنة عدن وجعل فيها آدم الذي خلق فهذا صورة ما في التوراة من غير
اختصار ولا تغيير بحيث لا ينكره أحد من الحبرين بلغتهم والبقر هو
الشق يريد انشقاق الفجر وذكر أن حوا خلقت في الجنة من ضلع آدم وبعد
هبوطه قال وعاش آدم ثلثين ومائة سنة وأولد بصورته كشبهه
وسماه شث بالسرياني وعاش آدم سبع مائة سنة وثلثين سنة
ومات وسنذكر معنى قوله بصورتنا كشبهنا عند قوله تعالى ليس كمثله
شيء إن شا الله تعالى ويجب أن تعلم أنه لا يجوز لنا أن نجعل القرآن تبعا للتوراة
لأن الله تعالى يقول إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون وقال عن التوراة
بما استحفظوا من كتاب الله وفرق بين ما حفظ وبين ما استحفظ فما كان
موافقا منها للقرآن كان القرآن مصدقا له وجاز أن نأخذ منها برهانا أو بيانا
وما خالف كان ملحقا بالمنسوخ أو المبدل أو غير ذلك فإن قيل إن التوراة
أخبرت بأن الله خلق النيرين والكواكب في اليوم الرابع فالجواب أن القرآن
لا يأبى في ذلك بدليل قوله بعد ذكر اليومين وأوحينا وزينا السما الدنيا
بمصابيح وحفظا أي وحفظناها حفظا وقد تقدم مثله ذلك تقدير
العزيز العليم فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة
عاد وثمود إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم أي من بينهم إلى انقضا مدة
الحياة لأن بعض الأمم كان يأتيهم رسول بعد رسول كما في سورة يس

فلهذا قال هاهنا من فهي لابتداء الغاية فابتداؤها مجيء الرسول اليهم وانتهاؤها
مدة العمر لمن ارسل اليهم وقوله ومن خلفهم اي قبلهم مما تقدم وارسل
الى الامم الماضين فهم اليهم ايضا في الدعوة الى الله فيكون معنى ما بين ايديهم
الحاضر والمستقبل في مدة حياتهم ومن خلفهم ما مضى لانهم خلفوه
ولما قوله مصدقا لما بين يديه فالتوراة كانت حاضرة بين يديه الا تعبدوا الا
الله قالوا لو شاء ربنا لانزل ملائكة اذهبوا عنا فانا بما ارسلتم به كافرون فاما
عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق ولو قال بالباطل لاحتمل انهم استكبروا
بالباطل والحق في بعض الامر فنفى الله ذلك في جميع الامر وقالوا من اشد
منا قوة اولم يروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة وكانوا
باياتنا يجحدون تقديره يجحدون الايمان باياتنا المنزلة بوعيدهم في الدنيا
فارسلنا عليهم ريحا صرصرا ذات صرير بل صرصرة في ايام نحسات
انحس ايام ذلك العام واشدها بردا لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة
الدنيا ولعذاب الآخرة اخزى وهم لا ينصرون واما ثمود فهديناهم
فاستحبوا العمى على الهدى افهم قوله فهديناهم فاستحبوا وانظر الى من بنى
اسر اعتقاده على غلط حتى جعل هاتين الكلمتين بمعنى فاضللناهم فاستحببناهم
فاخبرناهم فكيف يحسن بعده فاخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا
يكسبون ونجينا الذين امنوا وكانوا يتقون ويوم يحشر اعداء الله الى النار
فهم يوزعون حتى اذا ما جاؤها شهد عليهم سمعهم وابصارهم
وجلودهم يعني الفروج بما كانوا يعملون والكلام من الجلود والاعضاء

بنفسها كما سبقين لك وشهادتهما بكلها الا ان تخلق لها الالسن وقد علمنا انك
تحدث صاحبك فتقول عيناك تشهد بسهرك فتلك الشهادة اوضح من
شهادة اللسان اذ اللسان يحتمل ان تكذب به ولما اخرس الناطق
انطق الصامت وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا انطقنا
الله الذي انطق كل شيء وهو خلقكم اول مرة هذا دليل على ان هذه
الشهادة هي بنفس هذه الجلود التي هي على لحومنا اليوم تشهد في يوم البعث
واليه ترجعون وتمام كلام الجلود وما كنتم تستترون في الدنيا
حذرا ان يشهد عليكم سمعكم ولا ابصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم
ان الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ويحتمل ان يكون ذلك من كلام الله لهم
ثم قوله لا يعلم كثيرا لا نعلم انهم كانوا يظنون انه يعلم القليل اذ لا فائدة
لهم اذا كانوا يظنون ان الله يعلم قليلا من اعمالهم الجيدة مع كونهم يظنون
ان الله لا يعلم كثيرا من اعمالهم الردية لان التوبيخ لهم هنالك على الاعمال الردية
لا على الجيدة ولانهم اذا ظنوا ان الله لا يعلم الكثير فكيف يعلم القليل فلزم
انهم كانوا يظنون انه لا يعلم شيئا وانما لم يقل سبحانه كذلك لزيادة معنى
وهو ان يعرفنا انهم لم تكن اعمالهم الردية التي تشهد عليهم جوارحهم بها
قليلة بل كانوا يعملون كثيرا من السيئات والفواحش وكانوا مع ذلك يظنون
ان الله لا يعلم شيئا مما يعملون من ذلك العمل السيء الكثير ولو ظنوا انه يعلم
ضد ذلك اعني الخيرات للزم انه يعلم القبائح فلزمهم تركها فافهم المعنى
الذي من اجله قال كثيرا ما احسنه ثم قال وذلكم ظنكم الذي

ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين فإن يصبروا فالنار مثوى
لهم وإن يستعتبوا فما هم من المعتبين فهذا تمام الكلام في ذلك اليوم
ولما أخبر عن حالهم فيه أخبر عما أوجب لهم ذلك من أعمالهم في الدنيا وأنه
عاقبهم في الدنيا بما يستحقون به عذاب الأخرى وأن عقابه لهم في الدنيا
كان بعد أن لأنه هداهم فيها فاستحبوا العمى على الهدى فقال وقيضنا
لهم أي في الدنيا عقابا على كفرهم قرناء من صاحب وزوجة وولي كقوله
في محكم هذه الآية ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين
وقيض بمعنى أتى وأتاح له ويقال قيض فلان أباه أي أشبهه فزينوا لهم
ما بين أيديهم وما خلفهم أراد بما بين أيديهم ما هم عاملون في الوقت
الحاضر وما خلفهم ما خلفوه من الأعمال التي سلفت ومضت فكأنهم
إنما زينوا لهم الماضي لئلا يتوبوا عنه ولئلا يحذروا من مثله وزينوا
لهم ما بين أيديهم من الخطاء الذي هم عليه في الحال الحاضر دائما وحق
عليهم القول فدخلوا في أمم قد خلت من قبلهم أي في أمم لا تحصى
تقول خرج في عشرة أي هو عاشرهم ومع عشرة أي هو حادي
عشرهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين وقال الذين كفروا
للمنافقين لا تسمعوا لهذا القرآن ولم يقل هذا والسماع هاهنا
بمعنى القبول أي لا تجيبوا إلى التصديق به والغوا فيه أي عند التلاوة
واللغو ما لا تفهم لتحقيقه لقوله لا يسمعون فيها لغوا ثم قال ولا تأثيما
لعلكم تغلبون فلنذيقن الذين كفروا من القائلين وغيرهم عذابا شديدا

ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون ذلك جزاء أعداء الله النار لهم
فيها دار الخلد كما تقول دار السرور فهي النار لهم دار الشرور
جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون وقال الذين كفروا وهم في النار
ربنا أرنا اللذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا
من الأسفلين إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا أي على امتثال
الأمر من ربهم فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ومن علم أن الله ربه
كيف لا يزهد فيما نهاه عنه ويرغب فيما أمره به تتنزل عليهم الملائكة
عند الموت وعند العرض وعند اللقاء وفي الجنة وهم الآن يتنزلون
ولكن أكثر الناس لا يعلمون ألا تخافوا مما يخاف منه وهو أدل على المستقبل
ولا تحزنوا على ما يحزن عليه وهو أدل على الماضي وأبشروا بالجنة التي
كنتم توعدون نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها
ما تشتهي أنفسكم ولم يقل وأنفسكم تشتهي ما فيها إعلاما أن شهوات
أهل الجنة تابعة لشهواتهم فاعرف قدر هذه الكلمة وانظر ماذا
يجب أن تشتهيه واشتهيه من الآن ولكم فيها ما تدعون
المراد ضرب المثل بإطلاق اللذة أعني لذة مطلقة بكل صورة وليست
مقيدة من وجه ولا بحاسة دون أخرى كقول الشاعر
ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر أي لتلتذ حواسي الخمس بها إذ
لم يبق إلا السمع وهذا غاية في بابه في الدنيا فافهم من قوله ولهم فيها
ما يدعون مثل ذلك في الأخرى نزلا من غفور رحيم ومن أحسن

قوله ومن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين ولا تستوي الحسنة
ولا السيئة ادفع السيئة بالتي هي احسن شفا الامراض في اضدادها
فشفا الشر في الخير فلم يقل بالحسنة بل بالحسنة التي هي احسن ما عندك
ولهذا فاذا الذي بينك وبينه عداوة كانه ولي حميم ثم قال مرغبا
في الجنة معظما لها وما يلقاها الا الذين صبروا على امر الله ونهيه وذكر
الصبر هاهنا عند دفع السيئة ليرغب فيما امر به من الصبر رغبة
في الجنة اذ لا صبر اعظم من كظم الغيظ عن ذي السيئة وما يلقاها
الا ذو حظ عظيم وصف للاوليا الموصوفين بالصبر اي هاولا لهم
عند الله حظ عظيم بصبرهم واما ينزغنك من الشيطان نزغ هو
النخس بالشيء اليسير المحدد طرفه باذى ما يكون منه يقال نزغه بكلمة
اي طعن في عرضه وقوله نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي يريد افسد
بصورة طعن اي نخس يسير ومثله نسغ ونذغ فاستعذ اي فاحترز
والعوذة الحرز واصل عاذ التجا يلتجي بالله انه هو السميع العليم ومن
اياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر
واسجدوا لله الذي خلقهن راجع على الايات لهذا لم يقل خلقهما ان كنتم
اياه تعبدون فان استكبروا فالذين عند ربك من الملايكة يسبحون
له بالليل والنهار وهم لا يسامون ومن اياته الدالة على البعث خاصة سجده
وعلى غير ذلك عامة انك ترى الارض خاشعة اي خاضعة والخضوع
التواضع والتطامن والاستفال فاذا انزلنا عليها الما اهتزت وربت

ان الذي احياها لمحيي الموتى انه على كل شي قدير ان الذين يلحدون في اياتنا
اصل الالحاد مشتق من اللحد فكانهم يلحدون الحق المفهوم من الايات.
فيخفونه ويجعلونه كالميت في لحده بالزيغ عنه الى سواه وهذه صفة
اليهود فانهم يكتمون الحق وهم يعلمون ويحتمل ان المراد يلحدون الشرك
في تاويل الايات ولهذا قال في اياتنا بمعنى انهم يتاولون الايات تاويلا يخفون
فيه الشرك وهذا الالحاد ليس مقصورا على المنافقين والمشركين فقط
بل يتناول كثيرا من العباد ولما كان الالحاد بمعنى الاخفاء قال بعده لا
يخفون علينا افمن يلقى في النار خير ام من ياتي امنا يوم القيامة الامن
هو الذي عرف الله تعبده وهذه المعرفة هي معرفة عجز عنه لا
معرفة نيل له والعمل دليل على العلم ولهذا قال اعملوا ما شيتم انه
بما تعملون بصير وهذا دليل على تمكن كل من العبيد من فعل ما يشا ويريد
وفي ذلك تواعد بالجزا على فعلهم بمثله ان الذين كفروا بالذكر لما جاهم
وانه لكتاب عزيز لا ياتيه الباطل من بين يديه وهو الحاضر والمستقبل
فانهما حينا ولا من خلفه وهو ما مضى من الزمن وما لا يبطله
لا ما قبله ولا ما بعده كيف يبطل بعضه بعضا وقد قال الله تعالى وانا له
لحافظون ولا مبدل لكلماته تنزيل من حكيم حميد ما يقال لك الا ما
قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة وذو عقاب اليم ولو جعلناه
قرانا اعجميا لقالوا لولا هلا فصلت اياته اعجمي اي كتاب اعجمي
وعربي اي ورجل عربي اي كيف يفهم الرجل العربي وهو هذا النبي بالكلام

لأعجمي ويقال أعجمي إذا كان لا يفصح ولو كان عربي النسب وعجمي إذا كان من
أولاد العجم أي منسوبا إليهم وإن كان فصيحا قل هو للذين آمنوا هدى
وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك
ينادون من مكان بعيد عن الهدى والحق كأنهم يسمعون الصوت ولا
يفقهون معناه لبعدهم عن مكانه ولقد آتينا الكتاب فاختلف فيه موسى
ولولا كلمة سبقت من ربك بتأخيرهم وهو قوله بل الساعة موعدهم
لقضي بينهم أي لعجلنا لهم الانتقام لأنه تعالى إذا قضى عدل فيهم فجازاهم بما
يستحقونه فأهلكهم وإنهم لفي شك منه مريب ومعنى منه من كتابهم
الآن وهو القرآن وهذا يعم كل كافر به فلا تحسبنه كتاب موسى بل هو
منبئ عن حال العرب واليهود وكل كافر ولهذا بعده من عمل صالحا فلنفسه
ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد إليه يرد علم الساعة وعلم جزو ٢٥
كل شيء وما نافية تخرج من لتبيين الجنس ثمرة من أكمامها وهو جمع كم
يريد الظرف المحيط بالثمرة قبل خروجها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا
بعلمه ويوم يناديهم أي يا ما أعظم ذلك اليوم أين شركائي قالوا آذناك
يقال آذناك سمعناك بالأذان وآذناك أخبرناك بمعنى أسمعناك ما منا من
شهيد أي ما منا من شاهد لأحد منهم بل ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من
قبل شيئا ولهذا بعده وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا أنهم ما
لهم من محيص محيد عن النار كقوله فظنوا أنهم مواقعوها وإذا غلب على
ظن الإنسان أنه لا بد من وقوعه في شدة فإن مكابدته للخوف بما يتوقع

بلغ
أشد عليه مما يكابده إذا وقع فعبر بالظن إشارة إلى تعجيل ما يحل بالقلوب قبل
ما يصل إلى الجلود ثم أخبر تعالى أنه لا يسأم الإنسان من دعاء الخير أي
من طلبه ولم يقل من الدعاء بالخير إشارة إلى أنه يريد الخير أبدا ويطلب
منافع وما يستحقه سرمدا وذلك مفسد له في حاله لأنه يوجب الطغيان
وفي مآله لأنه سبب العصيان ثم بين كيف ذلك فيما سيأتي بعد قوله
وإن مسه الشر فيؤوس قنوط من الرحمة ولئن أذقناه رحمة
كرما لهذا قال منا من بعد ضراء مسته أي منه بما قدمت يداه
ليقولن هذا لي أي علي باق على الدوام لا يتغير وما أظن الساعة قائمة
ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى المعنى أنه يرى نفسه
ويرى أنه مستحق لما أذاقه الله غير ممتحن وليس كما ظن بل ذلك من
فضل الله ليبلوه أيشكر أم يكفر ولهذا بعده فلننبئن الذين كفروا
بما عملوا فيما امتحناهم به في الدنيا ولنذيقنهم من عذاب غليظ
في الأخرى ولما ذكر حال الإنسان بما تقدم في هذه الآيات من أنه في السراء
ينسى البعث الذي به يكون الجزاء ويمتنع بحسن ظنه بنفسه عن شكر
النعماء ذكر الله بعد ذلك أن منع النعماء عنه ليس عن بخل بل هو عن فضل
وأي فضل فبين ذلك بقوله وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض عنا وامرنا
ونأى بعد بعد الإعراض بجانبه أي أعرض بجانبه وبعد عن الاعتراف
بنعمتنا عليه إذ الاعتراف يوجب الشكر أي فلهذا منعناه من مزيد
النعم لأنها عادت له سببا للنقم وإذا مسه الشر فتنة وابتلاء

فذو دعاء عريض ذكر العرض بعد ذكر الاعراض واراد بالعرض تعظيم
ما يبدوا من دعاء الداعي اذا فتن بالضراء فاتى به من باب التمثيل اذ ما يكون
عرضه عظيما يكون طوله اعظم والوجه في تكرار هذا المعنى وهو ما قدمه
في قوله ولئن اذقناه رحمة ثم قال بعد واذا انعمنا ان الاول ما يرد من
الله جزاء والثاني ما يرد من الله ابتلاء لهذا ذكر بعد الاول فلننبئن الذين
كفروا بما عملوا فاخبر بالفعل من الانسان والجزاء عنه من الله وفي الثاني
اخبر بحال الانسان فقط اي فهذا هو السبب الموجب ان يكون الامتحان
منا للانسان بالضراء اكثر من الامتحان منا له بالسراء لانه في السراء معرض
وفي الضراء ذو دعاء عريض فافهم المعنى منا انبا مكررا منا مثلا ولا يشكل
عليك كونه ذكر الرحمة منه اولا وكذلك النعمة آخرا فذلك لا يكون
الا منه سبحانه وانما الشر المذكور اولا جزاء والثاني ابتلاء فتامله
لتفقه هذا النظم البديع قل ارايتم ان كان من عند الله ثم كفرتم به
من اضل اي من اشد ضلالا ومن ذا يكون اضل ممن هو في شقاق
بعيد عن الهدى اي لا يكون اضل من هذا ثم تواعد الكفار بما هو وعد
للمؤمنين من فتح البلاد والتحكم في العباد فقال سنريهم آياتنا في
الآفاق جهات الارض وفي انفسهم بالذل والصغار والاسر والقتل
حتى يتبين لهم تحقق بالبينات التي لا تشتبه انه الحق اي القرآن لانه
متى اخبرهم بما سيكون في الآفاق وفي انفسهم وكان تبين انه الحق
وصدقه في وعيد الدنيا محقق لصدقه في وعيد الاخرى ولهذا بعده

اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد الا انهم في مرية من لقاء
ربهم الا انه بكل شيء محيط فكيف لا يحيط علما باعمالهم وقدرة
على جزائهم ولاهل التاويل من المتصوفة في هذه الآية كلام عجيب
مناسب للفظها يقيمون به ما يخصهم منها وليس ذلك من غرض
الكتاب وان احتمل ان يحمل على لفظه من مثل ذلك ما شاء الله فالمراد به
ان تعلم لتعمل والسلام ه

سورة حم عسق

آية ٥٣

بسم الله الرحمن الرحيم حم عسق اعلمنا في هذه السورة
ان حم المكررة هي مثل عسق المتكررة فكانت حم وان جمعت دايما
هي مثل عسق وان كان كل حرف منها فذ المعنى مع غيره او بمفرده
لان العين ابتدع الخامسي والسين مع الثلاثي والثنائي والقاف وحدها
ولم يات شيء منها ولا مع ح اي ان الحروف المعجمة كلها في المعنى واحد
من جهة انها اس البيان الذي قامت به حجة الحق على الخلق في ساير
الازمان فيكون نظير قوله حم ثم قال عسق بين الخولي اي في
المبتدا والخبر ومعناه حم هي العين واخواتها والسين واخواتها
والقاف واخواتها التي هي اس البيان في كل امة وبكل لسان فافهم ذلك
وان كان في بعضها اختلاف في الخط واللفظ فمرجعها كلها الى شيء واحد
في كونها مخارج نطقية الانسان ولهذا قال تعالى كذلك يوحي اليك
اي في المستقبل دايما والى الذين من قبلك اي من ساير الانبيا المتقدمة
ولهذا كرر هذا بعد آيات فقال وكذلك اوحينا اليك اي بهذه الحروف

قرآنا عربيا كما اوحينا الى غيرك بما عبرنا وعبره كل رسول بلسان قومه
والفاعل في الجملة المتقدمة الله العزيز الحكيم فقوله فيما سياتي وكذلك
اوحينا اليك اي فيما تقدم ومضى له ما في السموات وما في الارض
وهو العلي العظيم على عما يقوله الكفار والمشركون وعما يتوهمه
المتوهمون لو يدركه المحققون او يتحقق به الذايقون المكاشفون
عظيم في ذاته من غير ان تعظمه المعظمون ثم اضمر ها هنا ما معناه
ان الذي هو في هذا العلو والعظمة مع القدرة يجعلون له ولدا فقدم
ذكر المسبب على ذكر السبب لعظم هذا الذنب فقال تكاد السموات
يتفطرن كقوله لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه
اي من اجل قولكم له والمعنى تقارب ان تنفطر منه لعظم الافترا والتجري
على هذا العلي العظيم فاشار بهذا الكلام الى اللازم عنه مضمرا ايجازا
واستغنا بما ذكره في مثله مظهرا ودل على قوله هناك ان دعوا
للرحمن ولدا بقوله ها هنا فيما سياتي والذين اتخذوا من دونه اوليا
فتامل جيدا لتفهم ما في هذه السورة من المقدر المحذوف الدال على
المعاني المقصودة وتامل جيدا في الجمل وفي حكمة التقديم والتاخير
والحذف والتكرير واتخذ لفهمك بالقرآن سبيلا واجعل كلامي منبها
ودليلا وقوله من فوقهن اي من الجهة العليا لا مما يلي الارض فالهاء
والنون ضمير السموات ولا نظنه اضمر الارضين فان الارض لم تجمع في
مكان من القرآن ولا يجوز ان تقدر بما لم يات مثله فيكون الفرع

مردودا الى غير اصل وانما لما كانت السموات ذات جهتين من مقعر
ومحدب احدهما فوق والاخر اسفل جعل الانفطار من جهة فوق
لينزل العذاب من فوقهن على من تحتهن فكانه قال تكاد السموات
يتفطرن من نزول العذاب من فوقهن على ما ولاها ولعظم هذا الذنب
جعل المكان البعيد يكاد يتفطر فكيف القريب وقد تقدم في مثل
هذا وذكر ما هو اسفل فقال وتنشق الارض وتخر الجبال فلما خص
بالذكر هنا الجهة السفلى ذكر ضده ها هنا ثم لما كان يوم القيامة
لا بد ان تنفطر السما كقوله اذا السما انفطرت وقبل القيامة لا يكون انفطار
بل الملايكة يسبحون ويستغفرون عرفنا ان هذا الانفطار يكاد ان
يكون والملايكة يسبحون اي والحالة هذه قبل القيامة فكانه يقول
كادت تقوم قيامة القايلين قبل ان تقوم الساعة وعرفنا ذلك بما ذكره
عن الملايكة وتسبيحهم بحمد ربهم وقوله ويستغفرون لمن في
الارض اي يكاد ان يقع هذا العذاب مع كون الملايكة تستغفر لان في
يوم القيامة لا يكون الاستغفار منهم لمن في الارض ولا ينفع نفسا
ايمانها لم تكن امنت من قبل ثم قال الا ان الله هو الغفور الرحيم اي
لولا ذلك لكان هذا الوعيد كاينا من انه تتفطر السموات بالعذاب
النازل من فوقهن على الكافرين والملايكة على حالهم من التسبيح والاستغفار
ثم اظهر ما اضمره واثبت ما حذفه من ذكر من يستحق ذلك فقال
والذين اتخذوا من دونه اوليا الله حفيظ عليهم المعنى ان

الله غفور رحيم عما مضى من كفرهم وشركهم اذا امهل ولم يعجل ولكنه لا
يغفر للمشركين به اذا ماتوا على كفرهم بل يحفظ عليهم ذنوبهم ويحصيها
ويجزيهم بها ولا تتهمهم انه حفيظ لهم فان الله لا يحفظهم بل هو
كالموكل على المحبوس يحفظه من الهرب ويكده بالتعب ويحفظ ما
يبدو منه وما انت عليهم بوكيل ثم عطف على قوله في اول السورة
كذلك يوحي وكذلك اوحينا اي في الماضي والاول بلفظ المستقبل
ولكنه بمعنى المصدر اي انما اوحينا اليك والى من قبلك كذلك وكرر لفظ
الوحي ليعطف عليه الموحى وهو القرآن لما بعد الكلام الاول فقوله
وكذلك اوحينا اليك اي بهذه الحروف قرآنا عربيا لتنذر ام
القرى مكة والمعنى في ام القرى وانما كانت اما لان فيها اول بيت
وضع للناس وهذا كقوله واسأل القرية وبينه بقوله ومن حولها
وتنذر يوم بيوم الجمع لا ريب فيه وسماه يوم الجمع لانه
يجمع البر والفاجر والمومن والكافر ثم قال ما يؤول اليه الحال
فريق في الجنة وفريق في السعير ولو شاء الله لجعلهم امة واحدة
في الدنيا اجبارا لهم ولكن يدخل من يشاء في رحمته هذا انبا عن
سعة القدرة والرحمة ولكن لمن يشا ولا يدل هذا على سقوط
الاعمال ولهذا بعده والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير فاحذر
ان تغلط في مثل هذه المواضع كما غلط من لا يعلم واتخذها حجة تخفف
عليه لا له وبيان ذلك ان المراد هاهنا ليس ما يتعلق بالعبد من جهة

العمل بل ما يتعلق بالرب من جهة القدرة والرحمة فاما القدرة فقوله من يشاء
واما الرحمة فانه انبا عن سعتها بحيث انه لو شاء لرحم الكل بغير عمل وفائدة
هذا التعريف ان العاصي اذا علم انه تعالى له ان يدخل من لا يستحق الرحمة
ان شاء عاد وهذا طامعا ان يكون ممن يشاء الله فلا ينقطع حسن ظنه بربه
وان اتصل سوء ظنه بنفسه لسوء عمله ولما قدم قوله والذين اتخذوا
من دونه اولياء نسق عليه ام اتخذوا من دونه اولياء ثم قال بالفاء
فالله هو الولي اي بالحقيقة لا باتخاذ المتخذين وذكر ما يحقق ذلك
بقوله وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ثم عرفنا في ضمن الكلام
لهم بقية الاحتجاج كلاما عاما يجب ان تفهمه وتنتفع معه فلا تمل عنه
ولا تنسه واحذر اهماله واجعله نصب عينيك وذلك قوله وما اختلفتم
فيه من شيء فحكمه الى الله والمراد هاهنا ما تقدس لا لما اتخذتموهم
اولياء فافهم الكلام مطلقا فان فيه مع التخصيص اطلاقا عاما نافعا ولما كان
الله تعالى قد بين كل حكم لكل شيء يقع فيه اختلاف قال بعده ذلكم الله ربي
عليه توكلت واليه انيب فاطر السموات والارض عرفه بالعاصي ثم
بالتالي فقال جعل لكم من انفسكم ازواجا ومن الانعام ازواجا اي للانعام لاقامة
النسل المسخر لكم ذكرا وانثى يذرؤكم فيه من الذرية وقوله فيه اي فيما جعل
لكم وبين الذكور والاناث اما الذكور فكقوله واذ اخذ ربك من بني ادم من
ظهورهم ذرياتهم واما الاناث فكقوله يخلقكم في بطون امهاتكم وقوله
وكنا ذرية من بعدهم يستعمل في الذكور والاناث ثم قال ليس كمثله شيء

المثل بتسكين الثاء والمثل بتحريكها وفتح الميم يعود الى اصل واحد من جهة مماثلة
الشيء بالشيء غير ان المثل مثل بالقول كما تضرب الامثال قولا والمثل مثل بالفعل
كما توضع التماثيل فعلا فالمثلية تقال على كل متماثلين في ذات او صفة او قول
او فعل او غير ذلك فالمماثلة تعطي الشركة فيما به كانت من جزء او كل ونفي
مطلق المثلية يعطي اطلاق الوحدة ولما الخالق قادرا على ما يقدر عليه المخلوق كان
كان للمخلوق مماثل في قدرته ولما اختص الخالق بما لا يقدر عليه المخلوق لم
يكن له مماثل في قدرته فالاشتراك في صفة المخلوق لا يلزم عنه شرك في ذات
الخالق فالمخلوق له شريك والخالق لا شريك له وسنوضح ذلك ولفظة المثل
تقال ايضا ويراد بها الصفة كقوله تعالى كامثال اللؤلؤ المكنون اي كصفات
اللؤلؤ ولا يريد انهم مثل اللؤلؤ في الصغر او غيره بل في الصفة فالكاف
والمثل في هذه كالكاف والمثل في ليس كمثله ومعناهما كصفته ويحتمل ان
يقال ان لفظة المثل تعطي المماثلة في كل كقوله تعالى فهل ينتظرون الا مثل
ايام الذين خلوا من قبلهم وحرف الكاف يعطي المماثلة في جزء كقوله تعالى
ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون نهاهم عن المماثلة في
قول ما   فاذا فهمت ذلك واردت ان تفهم معنى الجملة في قولك ليس كمثل
زيد عمرو فاجمع بين معنى اللفظين كما جمعت بين اللفظين فيكون المفهوم
المفهوم ما معناه ليس بين عمرو وزيد مماثلة بوجه يستدل عليه
بدلالة جزئية ولا بدلالة كلية فان كان موضع عمرو شيء كان ذلك
من ابلغ التنزيه لزيد لان شيئا من اعم العموم وقد قيل الكاف زايدة

وليس كذلك   وقيل معنى كمثله مثل مثله وسنبين ذلك القول وغيره في
جملة اثبتها لما رأيت فيها من النفع فيما يتعلق بهذا المقصود هاهنا وبما
علمه ضروري للانسان ولكني اوصيك ان تفهم جملة ما جمعته هاهنا
فهما جيدا ولا تقطع بتصديق شيء منه ولا بتكذيبه الى ان تستوعب
الجميع فهما وتحيط بمقصودي منه علما فما رأيته من باب التنزيه فاعرفه
واعترف وما رأيته من باب التشبيه فاحذفه ولا تقف فان من اوتي
لفظا علميا او ادراكا عقليا او كشفا ذوقيا او غير ذلك فشبه الله به فهو
من المشبهة فافقه هذا كل الفقه ولا تنسه بل قيده بقوله تعالى يؤمنون
بالغيب فكل مدرك من وجه ما فانه لا يكون غيبا مطلقا فاجعل هذا لك
اصلا ترجع اليه ومبدا لا تصح معرفة الا بعد الاعتماد عليه فمن عرف الله بالايمان
تكلم بالعقل جيدا ومن عرف الله بالعقل تكلم بالعقل فاسدا وسنبين اخيرا
كيف ذلك   واعلم انه لا اضل ممن ضل بالعقل فهو من الراسخين في
الجهل فافقه جملة هذه الوصية محصلا ثم تامل ما قلته مفصلا   قال
من يزعم ان معنى كمثله مثل مثله انه يحتمل ان المشركين لما اتخذوا اندادا
وجعلوهم بزعمهم مثلا لله سبحانه نفى الله عن نفسه ان يكون مثلا لذلك
المثل او لغيره من كل شيء يدعي مدع انه مثل لله سبحانه باطنا او ظاهرا
ويكون الاعراب بالرفع في قوله شيء على اضمار مقدر معناه ليس الله مثل المثل
الذي هو شيء من ساير الاشياء لانه تعالى مشيء الاشياء وهذا ابلغ من
قولنا لا يشبهه شيء فانك اذا نفيت المثلية انتفت الشيئية ولا ينعكس

بل ينفي كمذهب من يقول بالثاني فهذا وان كان معناه حسنا لانه الواقع لكنه
لا ينطبق على اللفظ ففيه تعسف من جهة العربية ولا شك ان ترك
تقدير ما نستغني بالصريح من النص عن تقديره فيه اولى وقال اخر انه
لما كان المجهول لا يعلم الا بمثال وكان اعلا ما يستقر من الصفات في العقل
منسوبا الى الله كان ذلك مثالا معلوما للعقل يستدل به على المجهول
المنقول فعرفنا الله ان ذلك المستقر في العقل ليس له مثل وذلك
مدح للصفة يلزم عنه تنزيه الموصوف تم كلامه وايضاحه
ان المراة جسم تستقر به امثلة المحسوسات لا ذواتها والنفس مراة
تستقر فيها امثلة المعقولات لا ذواتها فالعلم حصول صورة المعلوم
في النفس لا ذاته والا للزم انتقاله بل مثال فالمثل الذي لا تعلم نفس معلوما
الا بتصوره فيها ليس له مثل فليس كمثله شيء هذا مفهوم كلامه وهو ايضا
ليس بشيء بل هو من المشبهة كما تقدم لان الله تعالى لا يمثل ولا تحيط به
العقول والشيء لا يمثل الا بعد ان يعرف والمعروف لا يحتاج عارفه الى مثال
كما يحتاج الجاهل به والمثال يحاط به والله تعالى لا تحيط به المعارف ولا له مثال
فيها ولا في نفس الامر فاذا احاطت بمثال له فيها فلا معنى للتشبيه الا ذلك
وقال بعض متفلسفة الاسلاميين ما قد حكيناه فيما سياتي لنبطله وحاكي
الكفر لنبطله ليس بكافر قال انما كان من له الملاك العظمة لا اعظم
منها ينبغي ان يخلق ما هو فوقه في العظمة واذا خلق ما هو دونه فليس ذلك
بعظيم وانما العظيم ان يخلق مثله فلا يكون اعظم من هذا الخلق ثم اشار

الى العقل الاول الفعال لانه واحد صدر عن واحد قلنا هذا ابعد مما قبله وهو
كفر مردود عقلا اذ لو كان المخلوق مثلا لكان ازليا ويستحيل ان يكون مخلوقا
ويكون ازليا فقد انتفى ان يكون مثلا ثم نقول له تصح المثلية بوجه لانها
تعطي تناهي القدرة والقدرة لا تتناهى ولا تنحصر ولهذا كان الله سبحانه هو
الخلاق العلام ولما لم يات في اللغة رحام اغنى عنها رحمان ولا شك ان العقل
صفة للانسان وكل هذه الاقاويل من باب الخرص والبهتان والذي ينبغي
ان نفهمه بعد ذلك كله ان نص التوراة الى الان ما هذا مقلوبه عربيا وهو
مذكور في ثلاث مواضع قبل الخلق وحين الخلق وبعد الخلق فالاول وقال
الله نصنع ادم بصورتنا كشبهنا ويستولي على سمك البحر وطير السما والبهايم
وساير الارض وساير ما دب عليها وهذا في التوراة موضع قوله تعالى في القران
اني جاعل في الارض خليفة فالمسمى في القران خليفة هو المسمى في التوراة
شبها والمسمى في القران شيطانا هو المسمى في التوراة ثعبانا ثم قال
في موضع ثان وبرا الله ادم بصورته بصورة الله براه الله ذكرا وانثى
براهما وهذا صريح حديث في مسلم في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم
ان الله خلق ادم على صورته ولما اشتبه في التوراة كرره بعد قوله بصورته
فقال بصورة الله براه الله لئلا يظن ان المعنى ان الله خلق ادم على صورته
التي خلق عليها اي لم يكن علقة ثم مضغة بل على ما كان عليه ثم قال
في موضع ثالث بعد تمام الخلق هذا كتاب ميلاد ادم يوم برا الله ادم
كصفة الله صنعه ذكرا وانثى خلقهما وعاش ادم ثلثين ومائة سنة

والولد بصورته كشبهه وسماه شث بإمالة الشين ومن هنا كان بعدها الفا
وعاش آدم سبع مائة سنة وثلثين سنة ومات هذا آخر ما في التوراة
فبين أخيرا أن الشبه والصورة وغير ذلك إنما هو في الصفة لا في الذات
وهنا هو الإشكال فلما وقعت الشبهة بذكر الشبيه في التوراة ولم يكن
ذلك مما نسخ لكون الحديث مصدقا لها ظن بعض الظانين أن المراد بالمثل آدم
وأنه ليس مثل آدم شيء وهذا فاسد كما قبله لأن الكلام في قوله ليس كمثله
عائد على الله وحده كما تبين ومعنى ليس كمثله ليس كصفته كما قدمنا وأخر شيء
في الذكر للاهتمام بسلب صفة لله عما سواه وإنما قال ليس كمثله ولم يقل
كصفته أعني بهذا اللفظ بعينه وذلك ليسلب مطلق المثلية في الصفات
أو في الذات أو فيهما معا عن كل شيء سوى الله تعالى فإن قلت قد بينت صحة
ما في التوراة من أن الله تعالى خلق آدم شبها ومثلا واستشهدت بالحديث
الصحيح والأدلة عقلا وبينت أن المماثلة في الصفات لا في الذات ثم نفيت
الجميع ونقضته بما هاهنا قلته من تفسير قوله تعالى ليس كمثله شيء فهذا
غاية التنزيه وذلك غاية التشبيه فالجواب اعلم أنه تعالى لما
قدم في أول السورة تكاد السموات يتفطرن وأضمر ما معناه أن دعوا
للرحمن ولدا لكونه أظهره في موضع آخر ولكونه اتبعه هاهنا بقوله
والذين اتخذوا من دونه أولياء أعلمنا أنه تكاد السموات يتفطرن بالعذاب
النازل من فوقهن على من جعل لله ولدا أو اتخذ من دونه وليا ربا
فلما قدم ذلك حقق أن الخطاب للمشركين وبين ذلك بقوله لتنذر أم القرى

ومن حولها ثم كرر ذكر الأولياء بقوله أم اتخذوا من دونه أولياء بمعنى أولياء
أربابا والإله فالأولياء من المؤمنين يجوز اتخاذهم ولهذا قال بعده فالله هو
الولي وهو يحيي الموتى أي لا ما اتخذه المشركون أربابا ولهذا بعده ذلكم
الله ربي ثم ذكر أنه هو فاطر السموات وهو الذي يذرأ الذرية من
الناس والأنعام فلما قدم هذا جميعه قال بعده ليس كصفته شيء بمعنى
ليس شيء ربا يفعل هذه الأفعال أي لا ولد ولا ولي ورب كذلك إلا الله
وهذا لا يمنع أن يكون الرب قادرا على أن يخلق عبدا فيصفه بما وصف به
نفسه كما وصف نفسه سبحانه بأنه رؤوف رحيم وخلق محمدا صلى الله
عليه وسلم بالمؤمنين رؤوف رحيم وكقوله هاهنا وهو السميع البصير
وقال تعالى إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا
بصيرا ولا يقال إن السمع والبصر إنما هو بالحقيقة لله ويطلق على الإنسان مجازا
بل يقال إن الله خلق محمدا بالمؤمنين رؤوف رحيم بالحقيقة ولكنه مخلوق
وأن الله تعالى يخلق الحقيقة والمجاز وكل شيء ولا يلزم أن يكون المخلوق
خالقا لكون الله تعالى خلق له صفة كصفته وذاتا تبقى في الآخرة ببقائه
سبحانه فعاد معنى قوله ليس كمثله شيء أي ليس شيء ربا يحيي الموتى فاطر
السموات والأرض يذرأ الذرية فهذه الصفات ليست من صفات المخلوق
كائنا ما كان فليس شيء كصفته سبحانه فيما هو به رب وله الأسماء الحسنى
من صفة كل عبد فيما هو به عبد فلا تصح عبادة غيره إذ لا صفة له كصفته
ولا يلزم من هذا أنه لم يخلق عبدا سميعا بصيرا لكونه سبحانه ربا سميعا

بصيرا فالمماثلة فيما به الاشتراك من الصفات للمخلوق وسلب المماثلة هو فيما
به الانفراد من الصفات للخالق وهو المراد هاهنا والاشتراك لا يلزم عنه
شرك بل شركة من الخالق للمخلوق فيما هو به مخلوق ولا شركة من المخلوق
للخالق فيما هو به خالق جل وعلا لانه يقدر على ما عليه يقدرون ويعلم
ما يعلمون ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء كما بيناه في موضعه فلما ذكر
هاهنا صفات الربوبية من قبل ومن بعد جعلها بمنزلة صفة واحدة
وذكر الموصوف بقوله ليس كمثله شيء والمراد ليس شيء له صفة كصفة
هذا الرب سبحانه حتى يستحق ان يعبد معه فكيف تتخذها آلهة او اوليا من
دونه واذ قد تقرر هذا في فهمك وانحل لك ما اشكل عليك في وهمك فالق
سمعك لما اقوله لك بكل همك اعلم انه ليس في قوة الحكمة ان تخرج
من الشيء غير ما فيه بل احسن ما فيه واحسن ما في الاكوان ذات الانسان
واحسن ما في ذوات الخلق ذات يستقر بها تعظيم الحق بذوق علما
ووجدا يثبته العقل ويشهد بصحته الوحي وهذا هو القرب ولما كانت
معرفة الله تعالى غاية المطالب ولا تكون الا بحسب الطالب وان كانت
من وهب الواهب كان الكلام في هذا المقام ينقسم الى ثلثة اقسام ذات
وصفات ومبدعات فالذات علية عن المعارف والاعتراف بالعجز
عن معرفتها غاية معرفة العارف فمعتقد فهمها معتقد وهما ولا يحيطون
به علما واما الصفات فقديمة للذات وهي غير ما شاركت في التسمية به
المحدثات فالمحدث لا يتصف بصفة القديم وان سمي بذلك من اجل التفهيم

وفوق كل ذي علم عليم واما المبدعات فهي اعلام الاعلام وبها افهام الافهام
وكلها آيات القدرة والسن الحكمة فاكبرها صورة السماء واشرفها العبد
المتصف بالاسماء فيستدل بصفاته على شرف الصفات فيوحدها
وبالصفات على عظم الذات فيعبدها فعلى هذه القاعدة نبني ما نقول
بعد الاستشهاد بالوحي والاستدلال بالعقول وذلك انه من البين
ان القسمة العقلية تقضي في حصر ما نبينه من الكلام باربعة اقسام فالاول
ما لا اول له ولا آخر والثاني ما له اول وآخر والثالث ما له اول بلا آخر
والرابع ما لا اول له وله آخر فالواحد الاول هو الاحد الازلي والثاني هو
الجسم الفاني والثالث هو الانسان الباقي والرابع محال لم يذكر في القسمة
لينفى لا ليثبت واذا الوحي ايد العقل اذ قال عطاء غير مجذوذ وقال
يذوقون فيها الموت فلا غرو ان يقال ان الانسان باوله قد ماثل الجسم
الفاني وبآخره قد ماثل الرب الباقي وتكون المماثلة في البقاء الابدي والدوام
السرمدي مع اعتراف العبد بانه باق بربه ابدا فان بنفسه ازلا
وان الرب تعالى باق بنفسه ابدا وازلا وقد اطلقت الشرايع على العبد
بعض اسماء الرب كالسميع والبصير والقوي والرحيم ولا يلزم من
اشتراك الصفات اتحاد الذات تعادت المماثلة في صفة البقا وفيما
احطنا به علما من هذه الاسماء ولا يلزم ان تكون في ساير الاشياء
او في خلق الارض والسماء او في القدرة على الابداع والابتداء وفهمنا
من قوله ان الله خلق آدم على صورته وقوله على صورة الرحمن ما انزل

به القرآن من الأسماء المنطلقة على الإنسان لا ما تختص به الربوبية مما لا
تتصوره الأذهان ولا يشهد له إلا بالإيمان وإذ قد ثبت ما قضت به الشرائع
وحياة الثقات نقلا فلنثبت ما لزم إثباته من تعظيم الحق في أفهام الخلق
عقلا فنقول ما تشهد به العقول إنه لما لزم تعالي الذات وتنزيه
الصفات ولم يبق إلا الاستدلال بالمبدعات وأشرفها العبد المتصف
المعترف وجب أن يستدل به على بارئه فيلازم قلبه ليعرف نفسه
ومن عرف نفسه فقد عرف ربه فأول ملازمة القلب التأدب بآداب
الرب وهي ما جاءت به الرسل وآثار السبل وأول معرفة النفس اعترافها
بدليل من العقل أنها الحدث والجهل وأول معرفة الرب معرفة عظمة
النفس وتمكينها من الظلم لإباها والاتصاف بما مكنت من الاتصاف به من
صفات مولاها فتترقى بالاجتناب والاعتراف كما تترقى بالاكتساب والاتصاف
وأن سائر العظائم منسوبة إليها وجملة المعارف مقصورة عليها
وكلما ازدادت معرفة بما فيها ازداد إيمانها بباريها ولا يحد عرفانها
فلا انتهاء لإيمانها وهذا الإيمان هو المسمى معرفة الله وإليه أشرنا
أولا بقولنا من عرف الله بالإيمان تكلم بالعقل جيدا ومن عرفه
بالعقل تكلم بالعقل فاسدا وإذ قد ثبت شرف الإنسان وتعالى الله
عما تتصوره الأذهان فقد عاد لفظ الحديث ونص التوراة مقصورا
على ما يعلمه المخلوق من صفاته المحدثة التي تماثل الصفات القديمة
في فهم الإنسان لا في حقيقة الأمر فخاطب الله الخلق على قدر ما أعطاهم

من الأفهام وتم الأمر والسلام وصار ذكر المثل عبارة عن غاية التشريف
والتفهيم وسلب المثلية إشارة إلى نهاية التنزيه والتعظيم لنعلم أن
معارف العارفين بأسرهم إنما هي بحسبهم لا بحسبه سبحانه فلم يبق إلا
الإيمان بالغيب لخيرا عقلا وذلك عين ما جاءت به النبوة أولا وحيا
ولما وجب الإقرار بأن الله تعالى هو الباطن الذي علا عن العقول حتى عاد
غيبا مطلقا بذاته وصفاته وهو الظاهر الذي دنا إلى الفطر حتى عاد
عينا محققا بسائر مبدعاته وكان قوله وهو السميع البصير
من الأسماء المشتركة بينه وبين العباد قال بعده ما به يتفرد عن مماثلة
الأنداد له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر
إنه بكل شيء عليم شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا وقوله والذي أوحينا
إليك ذكر نوحا لأنه آدم الثاني بما أنجاه الله من الطوفان وذكر النبي
صلى الله عليه وسلم لأنه الآخر فكأنه قال بين لكم من الدين من نوح
إلى الذي أوحينا إليك ثم ذكر أصحاب الشرائع وهو ما جاء بينهما فقال
وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ثم عرفنا أن ذلك الذي شرع
ووصى جميعه شيء واحد وهو أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه العالم
أمة واحدة والدين عبارة عن امتثال الأمر في كل زمن بحسب نبي ذلك
الزمن وعلى هذا أخذ الله الميثاق من النبيين بقوله ثم جاءكم رسول مصدق
لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ثم قال مخاطبا للنبي صلى الله عليه وسلم كبر
على المشركين ما تدعوهم إليه أي عظم عليهم اتباع ما تدعوهم من هذه

الوصية التي قد جاء بها من قبلك من الأنبياء ثم قال تعالى ما معناه إذا كان الأمر
لله فما بال هؤلاء يعارضونه ويعرضون عنه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي
إليه من ينيب فالاجتباء للأنبياء والهداية لمن دونهم بهدايتهم بإنابتهم
وإنابتهم ولما ذكر أن الهداية للمنيبين علمنا أن الإنابة لا تكون إلا ممن قد
هدي أولا وزاغ ثم أناب فالأنبياء هداهم كما هدى غيرهم كقوله ووجدك
ضالا فهدى فمن حيث هداهم لم يرجعوا إلى زيغ وأما غيرهم فإنه هداه
فزاغ فإن أناب قبله وهداه وإن لم ينب أبقاه على حاله وهذا هو معنى
قوله كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم الآيات فافهمها ولهذا
عرفنا أن الإنابة ممن أناب منهم إنما كانت بعد مجيء البينات بالكتب
والرسل فأناب البعض وبقي البعض بغيا بعد تحقق البينة فقال وما تفرقوا
إلا من بعد ما جاءهم العلم أي العلم بالحق الذي يجب اتباعه ولكنهم تفرقوا
بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك أنه يؤخرهم إلى أجل مسمى
لقضي بينهم بما يستحقونه الآن وليس الأجل هاهنا الموت بل الأجل الذي
يقضى فيه بين العباد وهو القيامة وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم
وهم أبناء اليهود والنصارى لا الأعراب لقوله أورثوا لفي شك منه
من الإيمان به وتصديقه بل قلدوا الآباء وأما من قبلهم من الآباء فلم يكونوا
في شك بل جاءهم العلم فاختلفوا بغيا بينهم وأما هؤلاء ففي شك منه
مريب أي من الكتاب الموروث وهو التوراة ولو لم يكونوا في شك لآمنوا
بالقرآن لأن الإيمان به من جملة وصايا التوراة إلى الآن ثم قال للنبي صلى

الله عليه وسلم فلذلك فادع أي إلى ذلك الذي وصينا به الأنبياء وهو قوله
أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه وقوله فادع أي فادع الناس أجمعين
كقوله فأقم وجهك للدين أي إلى الدين ومثله قل الله يهدي للحق واستقم
لله في الدين كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من
كتاب على سائر الرسل وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا
ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم أي لا محاجة الآن ولكن يوم القيامة
الله يجمع بيننا فيحكم بالحق وإليه المصير والمعنى لا حجة بيننا وبينكم
واكالة هذه أي والذين يحاجون في الله أي في أمره وكتابه الذي دعا
الناس إلى اتباعه من بعد ما استجيب له أي أجيبت دعوته وآمن به
خلق كثير حجتهم داحضة أي حجتهم الآن باطلة يوم القيامة عند
ربهم وهي الآن باطلة لأنه سبحانه قد استجيب له فبطلت الحجة عليه
بل صارت له وهذا معنى قوله أولا لا حجة بيننا وبينكم أي انقطع احتجاجكم
فلا حجة لكم بل عليكم لأن حجة الله أنه قد استجيب له وهذا معنى قوله
فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله فحجتهم بعد هذا داحضة
وعليهم غضب ولهم عذاب شديد في الدنيا والآخرة ثم قال
مشيرا إلى العلم الذي جاءهم فتفرقوا عنه الله أي هو الذي أنزل الكتاب
بالحق والميزان يحتمل أن يكون الميزان صفة الكتاب إذ به يوزن كل شيء
ليبين الراجح من المرجوح ويكون هذا كقوله ولقد آتينا موسى الكتاب
والفرقان ويحتمل أن يكون الميزان العقل لأنه الميزان الذي أنزله الله ولولاه

لما افاد الميزان الظاهر وانما يوزن الكتاب بالعقل ثم قال منسوقا بقوله الله يجمع
بيننا وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها اى يعجلونها الذين لا يؤمنون
بها والذين امنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق الا ان الذين يمارون
فى الساعة لفى ضلال بعيد ثم قال الله لطيف بعباده اى مع كفرهم
به يرزق من يشاء اى ولا يؤاخذه بل يؤخره لعله يرجع وهو القوى
العزيز اى فلولا ذلك لاهلكه فى وقته اذ لا يعز على العزيز شئ ولما ذكر
الرزق الذى به تكون الحياة الدنيوية ذكر الرزق الذى به تكون الحياة حرث
الاخروية وذكر ضده فقال من كان يريد حرث الاخرة نزد له فى حرثه
لم يقل فيه ليفهم منه حرث الاخرة وحرث الدنيا وهو كقوله فعند
الله ثواب الدنيا والاخرة ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها
وحذف مما نشاء لمن نريد وهو كقوله نوف اليهم اعمالهم فيها الاية
ومثله هاهنا وما له فى الاخرة من نصيب ولما قدم قوله شرع لكم
من الدين بين لهم عظم المنة عليهم اعنى المؤمنين ببيان حال الكفار
فقال ام لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا
كلمة الفصل ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين لقضى بينهم اى بما يستحقون
من الاهلاك الان وان الظالمين لهم عذاب اليم يوم الفصل ترى
الظالمين مشفقين مما كسبوا اى من جزائه وهو واقع بهم والذين
امنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات لهم ما يشاؤن عند
ربهم ذلك هو الفضل الكبير ذلك الذى على طريق التعظيم بصورة من

لفظ الاخبار كقوله هذا غلام يبشر الله بتشديد الشين وتخفيفها عباده
الذين امنوا وعملوا الصالحات قل لا اسئلكم عليه اجرا والاستثناء
منقطع بقوله الا المودة فى القربى اى فى القرب الى الله كقولك ما فعلت هذا
الخير معك لتجزيني عليه بل فعلته حبا فى التقرب الى الله فانه عليه الصلاة
والسلام لم يكن يسأل الاجر ولا خلاف انه كان يحب القربى الى الله بهداية
المؤمنين والاولى ان معناه الا اسئلكم المحبة فى اقاربكم والمراد يوم القيامة
بدليل قوله قبله ترى الظالمين مشفقين وهذا يعلم من قوله تعالى انما اتخذتم
من دون الله اوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر
بعضكم ببعض الاية فقال هاهنا ما معناه اذا اتخذتم الله مكان الانداد
حصلت المحبة بينكم يوم القيامة ولهذا قدم هاهنا ذكر الشركاء وقال
بعده بايات ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم فاقرا الايات
من قبل ومن بعد ولا تشك فيما قلته ومن يقترف حسنة يكتسب وكانه
ادق اكتساب يقال قرف القرحة اذا قشرها وقارف المعصية اذا خالطها
نزد له فيها حسنا والزيادة فى الشئ من جنسه وعليه من غير
جنسه ومن جنسه ايضا ان الله غفور شكور ام يقولون افترى على
الله كذبا فان يشإ الله يختم على قلبك فلا يخرج منه شئ ولا يدخل اليه
شئ ويمح ليس معطوفا على يختم وانما هو مستانف فى موضع رفع
ولهذا رفع ويحق واما حذف الواو فكحذفها من سندع الزبانية
ويدع الانسان وان كانا فى موضع رفع وكذلك قوله هاهنا ويمح لان

محو الباطل واجب وليس معلقا بشرط بل يمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته
للمعنى انهم لما قالوا قد افترى على الله قال سبحانه فان يشا الله ان يختم على قلبك فلا يبدو
منه شيء مما بدا ويمح الله الباطل يمحو اهله واهلاكهم ويحق الحق بكلماته وان
لم تكن انت لا تاتي بها لانه قد ختم اوكا ولا يلزم ان تظهر الكلمات من غيره
لان معناه يحق الحق الذي يجب على الكفار بحكم الكلمات ومقتضاها وان لم تظهر
الى الوجود ولهذا بعده انه عليم بذات الصدور وهو الذي يقبل التوبة
عن عباده ويعفوا عن السيئات والواو في ويعلم للحال ما يفعلون
ثم ذكر تعليل ارسال الرسل بقوله ويستجيب الذين امنوا وعملوا الصالحات
يستجيبون الى الداعي وهو منسوق بقوله فان يشاء الله يختم فكونه لم يختم
انما هو لاستجابة المؤمنين ويزيدهم على اجر العمل الصالح زيادة من
فضله والكافرون لهم عذاب شديد ثم نسق على قوله من كان يريد
حرث الآخرة ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن
ينزل بقدر ما يشاء هذا كلام يوجب عند المؤمن العاقل الزهد في
دنياه والرضى عن مولاه فاحفظ هذه الوصية واذا فتح عليك بالدرهم
الحلال ولم يمكنك تركه فانظر كالحية ان اضطررت الى اخذها فاحترز
من لسعها فهي معرضة لقتلك ما لم تقتلها فخذ من الدنيا حذرا اذا
اخذتها مضطرا واستغن ما امكنك عن ذرة تلزمك شكرا او ترهقك
طغيانا وكفرا وارض عن العليم القدير انه بعباده خبير بصير ثم
عرفهم ان ذلك ليس عن بخل او عجز فقال وهو الذي ينزل الغيث

من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد ومن اياته خلق السموات
والارض اي من علامات الكرم والقدرة ما تحيرت من السموات والارض وما
بث فيهما من دابة والبث التفريق والتقسيم يقال ثم بث اذا كان
متفرقا منثورا واما قوله فيهما فان دواب السماء هو الطير لان الطير تدب
وفي السماء تطير فهي في الارض وان دبت يقال لها طير وكذلك في السماء
وان طارت يقال لها دابة وقد قال تعالى الم يروا الى الطير مسخرات في
جو السماء فهي الدواب في السماء وهو على جمعهم اذا يشاء قدير
لان الذي بث قادر على ان يجمع ما بثه ولما كان ترك البسط وتقدير الرزق
مصيبة عرفهم انه لم يفعل ذلك الا بطريقهم ثم قال وما اصابكم من
مصيبة من ها هنا للتبيين الجنس والمراد ولو ادنى من مصيبة فبما كسبت — ما يكون
ايديكم والمراد ها هنا مصيبة الشر للكافر تذكير وللمومن تكفير
وللسابق توفير ويعفوا عن كثير وما انتم بمعجزين في الارض ما فيها
من جنودنا فكيف تعجزون من في السماء وما لكم من دون الله من
ولي ولا نصير ومن اياته الجوار السفن تجري في البحر كالاعلام
الجبال ويحتمل ان الاشارة الى القلوع لانها لا تجري الا بقلوع كالاعلام جمع
علم والاول اولى لان التمثيل للجواري ويعضد الثاني كونه لم يقل الفلك
بل سماها باسم لا يكون لها الا في حال الجريان ولهذا بعده ان يشا يسكن
الريح فيظللن رواكد على ظهره ان في ذلك لايات لكل صبار شكور
خصص الصبار بالذكر لانه اولى برؤية هذه الايات او يوبقهن يهلكهن بالاغراق

اي السفن وقوله بما كسبوا اي بما كسب ركابها ولهذا لم يقل كسبن اي انه
سبحانه اذا اغرق جملة من في السفينة فلا تظنوا انه اخذ بعضهم بما
كسبت يداه وبعضهم بغير ذلك بل الجميع بما كسبوا غير ان منهم من يستحق
بعد الاغراق انواعا من العذاب ومنهم من كفرت عنه ذنوبه بذلك كالمومن
والذي قبله كالكافر واما من لا يستحق الا الاغراق فقط فانه لا يغرقه
بل يمهله واما من يستحق مع الاغراق عذابا اخر من المومنين فانه تعالى يعفوا
عنه ويجعل الاغراق ببعض ما كسبت يداه والعفو مسقط لبقيتها
فالمراد انه ان كانت المواخذة بادنى ما يكون من مصيبة تصيب او باكبر
ما يكون اي كالاغراق فالعفو مقرون منه سبحانه بهما بعد العدل
فاصاب بهما بعدله وعفى عما يستحق بعدهما بفضله وتكرار قوله ويعف
عن كثير اي من ركاب السفن فلا يغرقهم ولهذا جا مجزوما عطفا
على يوبقهن مجزوما فالاول عن كثير من الذنوب والثاني عن كثير من المذنبين
ويعلم بالنصب لانه مصروف عن العطف على ما قبله وتقديره انما
بينا لكم ذلك لتحمدوا على العدل ولتشكروا على الفضل وليعلم الذين
يجادلون في اياتنا ما لهم من محيص اي الذين يجادلون في ابطال اياتنا
ما لهم من محيص محيد الى ملجا يلتجيون اليه من عذابنا لا في البر ولا في
البحر وبين في هذه الاية بيانا شافيا واحتجاجا على المجادلين من الجبرية
الذين يعتقدون ان الله تعالى اذا اغرق السفينة بمن فيها ان ذلك ليس
بكسب فبين سبحانه انه يعدل لانه ببعض كسبهم وانه مقرون بفضل

لانه عفى عن بقية ذنبهم ثم نسق على قوله ولكن ينزل بقدر ما يشا
فقال ما معناه واذ قد بان ان ترك البسط منا للانسان ليس عن بخل
ولا عن عجز بل لعلمنا بالاصلح فما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا
وما الاولى بمعنى مهما والثانية بمعنى والذي عند الله خير وابقى للذين
امنوا وعلى ربهم يتوكلون والذين والعطف على المذكورين باعيانهم
كما بينا في اول البقرة بقوله والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش
واذا ما غضبوا هم الذين يبدرون بالمغفرة قبل ان يستغفر منهم
المخطي عليهم فلهذا قال هم يغفرون والذين استجابوا لربهم
واقاموا الصلاة وامرهم شورى الشورى والمشورة بمعنى ورجل
شير يصلح للمشورة مدحهم الله انهم يتشاورون بعضهم بعضا في امرهم
بينهم لئلا يكون احدهم تابعا هواه وهو لا يعلم ومما رزقناهم ينفقون
والذين اذا اصابهم البغي هم ينتصرون وهذا المدح في هذه الاية يشير
به الى بغي الكفار في الحرب والفية الباغية في السلم والمدح مخصص
لهم في الحرب وما يتعلق بالجهاد فمدحهم بانهم هم ينتصرون اذا
بغي عليهم لئلا يعود الاسلام متصفا بالذلة والكفر متصفا بالعزة
وقوله بعده وجزا سيئة سيئة مثلها فمن عفى واصلح فاجره
على الله انه لا يحب الظالمين اي جزا من اتى بسيئة مما يعرض بين المر
واخيه المومن سيئة مثلها من غير زيادة فمن عفا عن حقه او
عن بعض حقه مع القدرة اذ لا يكون العفو الا عن قدرة ومن اصلح

من المؤمنين فأجره على الله بمعنى لا يحصى أجره وقوله بعده ولمن انتصر
بعد ظلمه أي بعد ما ظلمه خصمه فلم يؤثر العفو عمن ظلمه فأولئك
ما عليهم من سبيل أي طريق لوم أو إثم إنما السبيل على الذين
يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم
ولمن صبر وغفر أي بعد ما ظلم ولم يقدر على أن ينتصر أو قدر وعفا
عن المؤمنين إن ذلك لمن عزم الأمور فالعفو أولا عن السيئة وأما
الصبر فيجب أن يكون مقرونا منك بالمغفرة ويكون ذلك مع الباغي الظالم
القادر الذي لا تستطيع أن تأخذ حقك منه فتغفر له بعد صبرك على
بغيه وظلمه وأما الأول الذي هو العفو فلا يكون إلا مع قدرتك على
الانتقام ولهذا للعافي أجر وأما الصبر والمغفرة فهو من عزم الأمور
فتكفر وافهم واعمل وأما الآية التي من قبل أولا فهي في الجهاد وهذه
في مكارم الأخلاق ومن يضلل الله بذنبه فما له من ولي من بعده
وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل وتراهم
يعرضون عليها على النار خاشعين من الذل الذي أحاط بهم ينظرون
من طرف خفي إذا نظروا إلى النار عند عرضهم عليها لا يستطيعون
فتح أعينهم حتى فيها فيميلون أعناقهم وينظرون من طرف العين
ثم يسترون الطرف وهو الناظر يسترونه بالأجفان فيخفون
الطرف أي العين الواحدة ولهذا لم يقل ينظرون بطرفيه لأن العين تسمى
طرفا فقال من طرف فهو يدل على نظرين من طرف واحد ولا يكون

ذلك

ذلك من طرفين فلذلك الطرف خفي ولم يقل مخفي لأنه كان يدل على أنه محجوب
عن النار والمراد أنه هو بنفسه قد عاد خفيا لا يلحظ لشدة إخفائهم
له بالأجفان وقد علمت حال من يغمض إحدى عينيه وأكثر الأخرى
إلا طرفها فينظر منه شزرا بحيث يبقى الطرف في نفسه خفيا
لشدة الخوف من لهب النار ولهذا قيل إنهم ينظرون إليها مسارقة
وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم
يوم القيامة ثم بالواو ويحتمل أن يكون من أخبار الله عنهم ألا إن الظالمين
لهم عذاب مقيم والأولى أنه من كلام الله تعالى مخبرا عنهم كما أخبر بعده
بقوله وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فما
له من سبيل إلى الهدى ثم خوف كل مخاطب فقال استجيبوا لربكم من قبل
أن يأتي يوم لا مرد له من الله أي لا راد له عنكم من الله واليوم يريد به
العذاب لأنه يوم عذاب فلزم أن لا يكون لهم ملجأ فيه ما لكم من ملجإ
يومئذ وما لكم من نكير ينكر ما حل بكم فيغير ما أنكره ثم قال لرسوله
صلى الله عليه وسلم فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك
إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا أي لا بعمله بل رحمة فرح بها
وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم تقديره كفروا ولهذا قال بالفاء
فإن وأفرده في الذكر ليعم الجنس لأنه أولا ذكره مفردا وثانيا ذكر قوما
مخصوصين فلو أعاد الصفة التي هي الكفر عليهم لا ينتفي وقوع الصفة
على من أذاقه الرحمة منه سبحانه وليس ذلك مراد الآية بل المراد

ان يوقع الصفة المذمومة على الانسان من حيث هو انسان فانه كفور سوا
اصابه رحمة او نقمة واذا كان هذا وصفه وقد مكن من الخروج عنه فلم
يخرج الى الايمان كان مستحقا للذم بقوله فان الانسان كفور ولما ذكر الرحمة
منه سبحانه وانه اذا اصاب الانسان بشيء منها كفر بسبب النعمة فهو
كقوله ليكفروا بما اتيناهم قال بعده ما معناه منسوق بقوله ولو بسط
الله الرزق لعباده لبغوا اعلاما بقدرته على العطاء ولكن منعهم من
ذلك لكفرهم لا للعجز فقال لله ملك السموات والارض يخلق ما
يشا ثم ذكر انه يهب الرزق بحسب العلم والمصلحة كذلك الولد فقال
بلفظ المشية ابانا عن قدرته يهب لمن يشا اناثا ويهب لمن يشا
الذكور او يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشا عقيما ولما ذكر
المشية عرفنا انها ليست منه سبحانه على سبيل الهوى او العجز بل على وفق
العلم بالاصلح للعباد مع القدرة المطلقة فختم الاية بما يزيل الاشتباه
الذي يرجم به الظن لكونه ذكر المشية ويومي اليها سو الظن لكونه
يهب الاناث لمن يشا مع كراهة الناس ذلك فقال انه عليم قدير
فاشار سبحانه الى ان جميع افعاله بهم انما هي على وفق العلم السابق
بما يجب لهم والقدرة على ما يشا من ذلك وغيره ولما ذكر في اول السورة
كذلك يوحي اليك والى الذين من قبلك نسق عليه في اخرها وما كان لبشر
ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب او يرسل رسولا فيوحي باذنه ما
يشا انه علي حكيم اعلم ان قوله وحيا هو اعم الصور لانه نفث في

الروع والهام وان اختلفت رتبه واخص من ذلك من وراء حجاب وهو
المقام الموسوي يسمع صوتا ولا يرى صورة واخص من ذلك ان يرى
واسطة وهو الملك وفي كل رتبة ما قبلها الا ما بعدها وهو المقام
المحمدي ولهذا بعده وكذلك اوحينا اليك روحا مع روح من امرنا
وهو جبريل خلق من الامر ويحتمل ان يكون المراد بالروح هاهنا
القران لانه لما قدم في سبحان ويسئلونك عن الروح واراد ارواحا
قامت الاجسام بها اتبع ذلك هاهنا بذكر روح قامت بها
الارواح فكانه روح الروح لانها اذا لم تكن قايمة به فهي ميتة بلا
شك فيكون هذا هاهنا كقوله ينزل الملايكة بالروح من امره على من
يشا من عباده ان انذروا ولا يكون الانذار الا بالوحي وهو قوله انما
انذركم بالوحي فقال هناك من امره وقال هاهنا من امرنا وقال هناك
ان انذروا وقال هنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان وكما
سماه روحا كذلك سماه نورا فقال ولكن جعلناه نورا نهدي
به من نشا من عبادنا وانك لتهدي الى صراط مستقيم صراط
الله الذي له ما في السموات وما في الارض الا الى الله تصير الامور
كقوله واليه يرجع الامر كله اي يجري من سلك الصراط المستقيم
بالوصول الى البغية وقوله من نشا من عبادنا اي لو كان من ظلم نفسه
وخرج عن الصراط فاردنا هدايته لم يعجزنا ذلك فكيف لا نهدي
من اهتدى والذين اهتدوا زادهم هدى واتاهم تقواهم ٥

سورة الزخرف

بسم الله الرحمن الرحيم حم والكتاب المبين قسم بالعلم
الأزلي لقوله كل في كتاب مبين وبيّنه بقوله هاهنا وإنه في أم الكتاب كقوله
يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب تمثيلا للعلم الأزلي المشتمل
على كل علم وعمل وأما الحا والميم فهي مفصولة عن الكلام وهي علامة
على تتابع السور في المعنى وإن تخالفت في الإنزال مضافا إلى أن المدلول
عليه بالحروف في هذه هو كالمدلول عليه بها في سورة أخرى لأن
المدلول عليه بالحروف خطا يقال له كتابة ونطقا يقال له قراءة أي
جمع لجمع الحروف بالمكتوب أو المقرو خطا ونطقا لا يلزم عنه معنى
لكن يحتمل وأما البيان فهو ما يظهر المعنى للنفس عند الإدراك
بالبصر أو السمع وذلك على خمسة أوجه خط ولفظ وإشارة وعقد
وهيأة كالإعراض وتكليح الوجه فذكر الله سبحانه أولا حروفا لا يلزم
عنها بيان من خطها ولا من لفظها بل لا يكون البيان إلا بهذه وأخواتها
وأقسم سبحانه بالعلم الأزلي عن هذا المكتوب خطا الملفوظ نطقا
لسائر الناس بكل لغة فقال إنا جعلناه قرآنا جمعا ثم قال عربيا
أي بينا لعلكم تعقلون معناه الذي به نجاتكم وفوزكم بمبناه الذي
به كتابتكم ولفظكم وإنه القرآن في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم
محكم ولهذا كان القرآن قديما وقد نبهنا على المقصود بتسميته حديثا
ولما كان الهدى يعم النعم وجملة الهدى هو في الذكر الذي هو هاهنا

القرآن والعقاب لا يكون إلا إما بالضلال أو بالعذاب خوفهم أولا بما يوجب
الضلال وثانيا بما يستحقونه من الإهلاك والوبال فقال أفنضرب
عنكم الذكر ضربت على الشيء وأضربت عنه إذا محوت أثره وأسقطت
ذكره ومعنى قوله صفحا أي صفحا عنكم إن كنتم قوما مسرفين
ونصب الذكر لفقدان الخافض ومعناه أفنضرب على الذكر فنبطله
صفحا عنكم لكونكم مسرفين أي كيف يكون إبطال الذكر صفحا ولا تكون
النجاة إلا به فلو أبطلناه فلم ننزله إليكم لكان ذلك من أشد العقاب وإذ
لم نبطله فكيف تبطلونه أنتم كما أبطله من قبلكم بتكذيبهم واستهزائهم
برسلنا فهلا تعتبرون بهم فهذا معنى قوله بعده وكم أرسلنا
من نبي في الأولين من الأمم السالفة وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به
يستهزئون فأهلكنا أشد منهم أفهم كونه لم يقل منكم وقد تقدم أفنضرب
عنكم أن المراد الأوائل كالنبيين وقوله بطشا أي أشد في البطش وهذا
من باب كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا أي في الإهلاك
وجعلناهم أحاديث أي لم يبق منهم سوى الأحاديث عنهم وهي المثل
المذكور هاهنا فافهم تلك الآية لتفهم بها هذه وافهم أنه هاهنا
زاد على ذلك كالنبيين وهو أن كل أمة فإنها أولة لما بعدها وكل واحدة فإنها
أشد من الثانية لها وإهلاك الأشد أشد في الموعظة وأبلغ في التخويف
وأدل على قدرة القادر على إهلاك الأضعف ثم زاد معنا آخر بقوله
ومضى مثل الأولين ولم يقل ومضوا بل مثلهم أيضا مضى فلم يذكر

والمراد الأولة وللجمع قال الأولين وبيان ذلك انه اذا اهلك امة كذبت
نبيها ثم اهلك بعدها مثلها في التكذيب مضى مثل الأولة لأن الثالثة انما
تمثل بما قبلها وهي الثانية واما الأولى فانها مضت ومضى مثلها ايضا
وكذلك الحكم في الجميع فلهذا قال اخيرا الأولين والمفهوم الأولة ولهذا
قدم قوله وكم فافهم ما اعجب هذا ولئن سألتهم من خلق السموات
والأرض ليقولن خلقهن العزيز المانع الذي لا يقهر العليم بما خلقه
على وفق العلم والحكمة ثم وصف نفسه بعد قول الكفار فليس من كلامهم
كما بين فقال الذي جعل لكم الأرض مهادا وجعل لكم فيها سبلا
لعلكم تهتدون بالسبل الى مصالحكم والى هاديكم بها ونظير هذا
من الكلام ان يسمع الرجل الرجل يقول الذي بنى المسجد فلان العالم
فيقول السامع الزاهد الكريم فزاد في وصفه كأنهما عرفه بما زاد عرفه
على الأول فيكون النعتان جميعا للرجل واحد من رجلين مختلفين والأولى
عندي ان الكلام معطوف على الأول وتمام له وجا كلامهم معترضا
بين كلامه تعالى لهم لتمام الآية فهو يقول ولئن سألتهم من خلق السموات
والأرض الذي جعل وجعل والذي نزل من السماء ماء بقدر قدره
في السحاب لينزل قطرا لا نهرا فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون
والذي خلق الأزواج كلها بيناه في يس وجعل لكم من الفلك والأنعام
ما تركبون لتستووا على ظهوره الضمير عائد الى ما جعل ثم تذكروا
نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا وهذا اخبار فيه معنى الأمر

الأمر به ولم يأت لم اليلا يا ثم تاركه سهوا سبحان الذي سخر لنا هذا
وما كنا له مقرنين من المقارنة والمصاحبة نجعله مركوبا ولم يكن من
طاقتنا ان نجعله مقرنا ولا كان من قبل مقرنا كما صار من بعد وانا الى
ربنا لمنقلبون أي نحن وهم وهو كقوله في آخر الآية التي اولها وما من
دابة في الأرض الى قوله ثم الى ربهم يحشرون اعلاما ان كل احد منا
له بعث ومعاد وهو مسؤول عما سخره الله له في الدنيا في معاملته
له وفي معاملته به ثم قال ما معناه انهم يرون هذه الآيات الباهرة
والعظائم الباطنة والظاهرة وجعلوا له من عباده جزءا أي مع
كونهم اذا سئلوا من خلق السموات والأرض ليقولن الله والمعنى جعلوا
له شركا جزءا من عباده وهم الملائكة وكانوا يعتقدون ان الملائكة
اناث لقوله ليسمون الملائكة تسمية الأنثى فذكر التسمية هناك
لأنه يريد به هناك اعني بذكر الأنثى اي المصنوع على ما بيناه في موضعه
واما هاهنا فانه يريد بالأنثى خلاف الذكر ولهذا اتبعه بذكر البنات
ان الإنسان لكفور مبين ام اتخذ مما يخلق بنات واصفاكم بالبنين
وبينه بقوله واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن مثلا قوله
ضرب يريد القول وهو التسمية للملائكة بانهم اناث وانهم آلهة
يعبدونها وقوله بعده وجعلوا يريد الفعل وهو ما اتخذوه من
الحجارة وغيرها فجعلوه تماثيل للملائكة كما سيأتي ظل وجهه
مسودا وهو كظيم تقدم والمعنى كاظم على غيظه وتلخيصه

ان الفاعل القادر المختار لو اراد ان يتخذ لنفسه شريكا كما زعمتم مما خلقه
لاتخذ الاجود فكيف يتخذ البنات ويرضاهن لنفسه وانتم لا ترضون
ذلك لانفسكم ثم قال اومن ولم يقل افمن وذلك يدل على صورة
عطف اي ايكون الله الها ومن ينشأ في الحلية الها معه بمعنى انه من اول
نشوئه تربى في الزينة والحلية وهن البنات اشارة الى النقص الذي
يكمل بغيره من الحلي وهو في الخصام غير مبين وجعلوا الملائكة
الذين هم عباد الرحمن اناثا لفظ الجعل يأتي بمعنى القول والحكم على الشيء
تقول قد جعلت زيدا اعلم الناس اي وصفته بذلك وحكمت به واما
هاهنا فهو يرجع الى الفعل والمعنى انهم ما كفى انهم قالوا ان الملائكة اناث
وعبدوا حتى انهم مع ذلك اتخذوا من الحجارة تماثيل الملائكة وعبدوا
الحجارة ايضا لكونها تماثيل الملائكة يزعمون ان ذلك تقرب بملائكته
اليه سبحانه اي قالوا ما قالوا مثلا وفعلوا ما فعلوه مثلا وهو قوله
وجعلوا ثم قال اشهدوا خلقهم والمراد بقوله هاهنا اناثا اي مصنوع
يقال لكل مصنوع انثى والمراد ما صنعوه من التماثيل ومعنى اشهدوا
خلقهم اي اشهدوا بالالهية لما خلقوه بايديهم لهذا بعد ستكتب
شهادتهم ويسألون وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم حكى الله
عنهم ما تقوله المجبرة من ان الله اراد كفرهم وما يصدر عنهم من
فواحشهم فظنوا لكونه لو شاء ان لا يكونوا عابدين لم يكونوا انه قد شاء
فاعتقدوا انه تعالى لكونه قادرا على المنع ولم يمنع لغاية التكليف

وهم يحسبون انهم مهتدون فالجواب ان التحذير انما هو لئلا يقع
هذا المحذور واما اذا وقع مراد الله واذا اراد الله بقوم سوءا عقابا لهم
بذنبهم فلا مرد له وفيه اشعار بوجوب اتباع العلماء العاملين والقادة
المحققين والتسليم اليهم وامتثال اوامرهم لئلا يعتمد الانسان على
جهل وهو يظن انه معتمد على عقل حتى اذا جاءنا هو وقرينه كما بيناه
في سورة ق قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين اعلم ان الشمس
في الفلك الرابع بحكم منها ان يحجب حرها الشديد بالافلاك التي تحتها
وبعدها عن الارض ومنها ان تضيء لثلاثة افلاك من فوق وثلاثة
من اسفل فتعطي الاشراق للقمر والدراري فهي في وسط من السبع
الطباق التي اولها مما يلي الارض فلك القمر ثم فلك عطارد ثم الزهرة
ثم الشمس ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل وهو الاعلا وهو يقطع الفلك
في اثنين وثلاثين سنة وفي النظر في ترتيب كل واحد في مكانه وتقدير
دورانه ما لا يعلمه الا الله سبحانه من حكم وعجائب ولا حاجة بنا الى
ذكر ما يخرجنا عن المقصود اذ قد نبهنا على التفكر في صنع الله ليتحقق
في الانفس عظمته فيجب عبادته ولكل كوكب وفلكه معه حركة
تخصه فالقمر يقطع الفلك ويرجع الى برج الحمل مثلا الى النقطة التي
جعلناها اولا بحركته في شهر بالتقدير ويزيد وينقص قليلا وهو
شهر القمر والشمس تفعل ذلك في سنة شمسية ولكل كوكب له
مقدار من الزمن مخصوص به وهذه الكواكب جميعها سيرها من

المغرب الى المشرق دائما واما الحركة اليومية حركة اخرى تدير الجميع
جملة من المشرق الى المغرب في يوم واحد باذن الله وسائر الكواكب المذكورة
انما تدور بالطبع من جهة المغرب الى جهة المشرق في ازمنة مختلفة
المقادير وبالقسر والرجع من جهة المشرق الى جهة المغرب في يوم
وليلة فكان الكواكب والشمس والقمر كل في فلكه يشبه نملة على طاحون
من الحجارة يدور الحجر يمينا والنملة تدور على الحجر شمالا فتدور
الدورة الشمسية كما يدور الحجر ثلثمائة وستين دورة حتى تدور
النملة على الحجر بالعكس دورة واحدة وذلك تقدير العزيز العليم فاذا
تصورت في ذهنك ما قلته لك تيقنت ان مشرق الشمس هو المغرب
اعني مشرقها الطبيعي لها واما مشرقها القسري فهو هذا المشرق
فافهم هذا المعنى الذي عرفنا الله اياه بقوله بعد المشرقين ومثله
رب المشرقين ورب المغربين وان كان ما قلناه هناك محتملا لكن
هذا الموضع لا بد له من هذا المعنى فافهم ذلك وان اشتغلت في هذا
العلم فلا تقبل منه ما يخالف الكتاب ولو قام عليه الدليل العقلي
فان الوحي فوق طور العقول فلزم في العقل الميل بالعقل عن العقل
الى الوحي ولا تنس وصيتي لك ان شاء الله تعالى واحذر من قرين
قال الله في حقه فبئس القرين ثم قال تعالى لهم ولقرنائهم ولن
ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون اذ كل واحد
لا يحمل عن قرينه شيئا من عذابه فهذه شركة لا ينتفع بها الشركاء

ثم قال لرسوله عليه السلام افانت تسمع الصم او تهدي العمي
ومن اي تهدي من كان في ضلال مبين فاما نذهبن بك اي الى
الاخرة بالتوفي فانا منهم منتقمون اي الانتقام منهم مستحق كما
تقول افرض ان خصمك مات فالدين لا يسقط عنك او نرينك الذي وعدناهم
من انتصار المؤمنين وانكسار الكافرين اي لا فرق بين ان تغيب او
تحضر لا بد من صدق الوعد في الدنيا والوعيد في الاخرى لهذا قال
بالفا فانا عليهم مقتدرون فاستمسك بالذي اوحي اليك انك
على صراط مستقيم وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون
اجمعين اعلاما ان كلا مسئول عن مقتضى الذكر امرا ونهيا نبيا
ووليا وصديقا وزنديقا فذكر الطرفين النبي والمشرك وعمهما
السؤال واسأل تقديره اسأل الذين قبلك من امم الرسل فيكون
قوله واسأل مفعوله ثم قال من ارسلنا من قبلك من رسلنا
ولو لم يكن كذلك لقال واسأل رسلنا بل السؤال مطلق اي اسأل كل
من يجب سؤاله عما سألته عنه ويحتمل ان تكون من بمعنى الذين
اي واسأل الذين ارسلنا وتقديره اليهم قبلك من رسلنا والاولى
ان تكون من في موضع نصب لكن لوضعها في موضع المفعول بل الفعل ان
الخافض مثاله اسأل زيدا ما جرى له بمعنى اسأل عن زيد فيعود
المعنى الى الاول كما قدمنا ومعناه واسأل عنا اجعلنا من دون الرحمن
الهة يعبدون ولقد ارسلنا موسى باياتنا الى فرعون وملائه

فقال اني رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها
يضحكون وما نريهم من آية الا هي في نفسها اكبر من اختها
المتقدمة لقوله فاراه الآية الكبرى وهي اول ما اراه فان قيل هذا يلزم
ان تعود الكبرى صغرى فالجواب انه يقال كبير واكبر لكبيرين
وصغير واصغر لصغيرين وهذا مبالغة في الايجاز والاعجاز ن
واخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون ولا يكون عذاب الدنيا للكفار
الا لهذا فهو رحمة واما العقاب فهو غير العذاب ولا يكون الا
بالاضلال كقوله فاعقبهم نفاقا الآية وقالوا يا ايها الساحر سموه
بمعتقدهم فيه قبل ان تستيقن الانفس بصدقه فاستمروا
على تلك التسمية ادع لنا ربك تقديره ان يؤتينا بما عهد عندك لمن آمن
واهتدى من كشف العذاب عنه ولو اثبت المحذوف لقال ان
يؤتينا ما عهد فجعل البا مبينة ومثل هذه البا تقول دعوت ما
لئلا يشتبه بالدعاء الذي معناه النداء والمراد ما معناه الطلب ثم
قال بلام القسم اننا لمهتدون معك وهذا القول منهم على صورة الحيل
للخلاص من العذاب والا يتناقض قولهم يا ايها الساحر اولا
وقولهم اننا لمهتدون اخرا ويحتمل ان يكون على طريق الامتحان
لموسى هل يقدر ان يغير الكائن بسحره كما اوقعه فيتحقق عندهم انه
ساحر عليم وينطبق على هذا فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون
ينقضون العهد حين وفينا بالعهد والمراد اعلام محمد صلى الله عليه

وسلم ان حاله مع قومه في تكذيبهم له ودعواهم فيه كحال موسى وان
حال من لم يؤمن من قومه سيؤول الى مثل حال من لم يؤمن من
قوم فرعون وهو ان يغلبوا في الدنيا ويدخلوا النار في الاخرى
ونادى فرعون في قومه قال يا قوم اليس لي ملك مصر وهذه
الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون لما عدم الملك الباطن وهو
القدرة على قهر موسى اعتز بالملك الظاهر لذلة وجدها في نفسه وقوله
ام بمعنى اما انا خير من هذا الذي هو مهين من الهوان لانهم
اهانوه بالزجر والتكذيب والاخراج من بين يدي فرعون كذلك
جا في التوراة نعابه فرعون بها معناه انه لو كان لهذا نفس لما احلها
محل الهوان منا فكان فرعون يكلم موسى بعتو الكفر وموسى يكلم فرعون
بلين الايمان رجاء وامتثالا لقوله تعالى فقولا له قولا لينا فنسبه فرعون
الى انه مهين وقوله ولا يكاد يبين لما بقي في لسانه بعد حل العقدة
فلولا القي عليه اساورة من ذهب وكان ملوكهم يحلون بالاساورة
وهي جمع سوار كما بينا في سورة الكهف او جاء معه الملائكة مقترنين
به بمعنى انهم قرناوه لان رسول الاله يجب ان يكون ملكا لا بشرا
فان كان بشرا فليكن له قرنا من الملائكة فاستخف قومه اي فاستخف
بعقولهم فاطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين فلما آسفونا جعلونا
بمنزلة من يأسف عليهم لما يستحقونه من الانتقام الذي اوجبه
التكذيب انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين فجعلناهم سلفا

السلف المتقدم والخلف ما خلف السلف فهو بعده **ومثلا للآخرين**
من الأمم يتمثلون بهم فيعتبرون بما جرى عليهم بتكذيبهم ولما
ذكر سبحانه انه جعل السلف الأول مثلا للخلف الآخر قال بعده
ولما ضرب ابن مريم مثلا تعديته لقومه من رؤسايهم كما
نبين وانظر كيف ذكر مع احد المثلين الجعل ومع الآخر الضرب
والجعل للفعل والضرب للقول اذ كل واحد منهما مجعول مثلا بالفعل
في وقته وعصره ومضروبا مثلا بالقول لمن ياتي بعده ولهذا قال هاهنا
اذا قومك منه اي من اجل المثل **يصدون** بضم الصاد وبكسرها
لغة وقيل معناها بالضم يعرضون ويقال في اللازم والمتعدي ومعناها
بالكسر يضجون والمعنى من القراتين يرجع الى الاعراض وقيل ضجوا لاستشعار
الفرج بالغلبة حين انزل الله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله
حصب جهنم فقالوا اذا كنا نحن والهتنا مع عيسى فقد رضينا
فاخبر الله ان قصدهم الجدل والغلبة لا الحق والذي يرفع عيسى
عليه السلام عن الدخول فيما يلزم دخول الهتهم فيه هو الخطاب
بما فلهذا لم يقل ومن لانه من لمن يعقل فلو كان عيسى فمن يجاز تغليب
من يعقل وقد بينا ذلك في موضعه ويجب ان نفهم كونه تعالى قال
هاهنا ولما ضرب وقال بعده ما ضربوه وقال بعد ذلك وجعلناه
والجميع عن عيسى فالاول وهو ما هاهنا جا على ما لم يسم فاعله اشارة
الى من ضرب عيسى مثلا لله من رؤسا النصارى فجعلوه الها لهم

وعبر بلفظ الضرب كقوله قبله بآيات واذا بشر احدهم بما ضرب للرحمن
مثلا فالمشركون ضربوا لله المثل بالملايكة والاوثان والنصارى ضربوا
لله المثل بعيسى ولما كان الضرب من الروسا قال ضرب كما لما كان
التشبيه من الروسا حين ادعوا صلبه قال شبه لهم فمعنى قوله هاهنا
ولما ضرب ابن مريم اي ضرب مثلا لله سبحانه من الروسا لبقية النصارى
اشارة الى ان عيسى لم يكن الها ولا ان النصارى فعلوا ذلك بل فعل لهم من
كبرايهم واشار الى ان ذلك ضرب مثلا كما يضرب المثل بالقول ولا حقيقة
لذلك في نفس الامر بل كما يقال بالافواه في ضرب الامثال سوا كان ذلك
بالاقوال او الافعال وقوله بعده ما ضربوه لك اي ان قومك ما ضربوا
عيسى مثلا لك الا جدلا كما نبين   واما قوله بعده وجعلناه مثلا
لبني اسرايل اي مثلا لقدرتنا على البعث واحيا الموتى وخلق النشاة الاخرى
ولهذا ذكر الجعل منه سبحانه والضرب من النصارى ومن العرب فالنصارى
ضربوا المسيح مثلا لله في الربوبية والعرب ضربوا المسيح مثلا
لمحمد صلى الله عليه وسلم وذلك من طريق الاستلزام الذي اوجبه
ارادة الجدل لا ارادة الحق كما نبينه فيكون المعنى ولما ضرب ابن
مريم مثلا لله من روسا النصارى لتابعيهم فاتخذوه الها اذا قومك
من اجله يعرضون عن الايمان بك وبما جيت به وبيان ذلك انه لما
تقدم قوله تعالى واسال من ارسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن
الهة يعبدون قال المشركون هذا عيسى اله يعبد فلما استلزموا من عبادة

النصارى لعيسى تكذيب هذا الكلام اعرضوا عن النبي عليه السلام من
اجل المثل الذي هو ها هنا عيسى وبين الله لنا ذلك الاعراض والمجادلة
منهم بقوله وقالوا آلهتنا خير ام هو اي ام عيسى بمعنى انا انما نعبدهم
ليقربونا الى الله والنصارى يعبدون عيسى معتقدين انه هو الله وهذا
الاحتجاج يعطي ان عبادة المشركين للاصنام خير من عبادة النصارى
لعيسى عليه السلام لان التقرب بالمخلوق الى الخالق خير ممن يعتقد ان
المخلوق هو الخالق ثم استلزموا من كون آلهتهم خيرا من عيسى انها تكون
خيرا من محمد فضربوا عيسى له مثلا بمعنى انه كما جاز ان اتخذ عيسى
الها كذلك يجوز ان نتخذ محمدا وعلمنا ذلك من قوله تعالى عنهم ما
ضربوه اي ما ضربوا عيسى لك مثلا الا جدلا والا فهم لا يعتقدون
ان عيسى كان الها ولا ان محمدا يروم الالهية لنفسه بل هم قوم
خصمون شديدوا الخصومة ثم اخبر الله عن عيسى رادا على الفريقين.
بما معناه انه ليس عيسى كما ظن النصارى فيه من الالهية ولا كما ادعى فيه
المشركون من انا جعلناه الها يعبد في الارض من دوننا ان هو الا عبد
انعمنا عليه وجعلناه مثلا لبني اسرائيل يدلهم على قدرتنا على احياء
الموتى وصدق وعدنا في البعث والنشاة الاخرى اي فاتخذه النصارى
الها وذلك من جعلهم لا من جعلنا ثم قال ما معناه ولو شئنا اجباركم
على الكفر لكان الاولى ان نجبركم على الهدى وهو معنى قوله ولو نشاء
لجعلنا بدلا منكم ملائكة في الارض يخلفون اي يكونون خلفا

بعدكم كما جعلناكم خلائف لننظر كيف تعملون وتقديره يخلفونكم ولا
يموتون ولا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون والدليل
على ان تاويل الاية ما قلناه تخويف العباد بعدها بالساعة والامر
لهم باتباع النبي والتحذير من الشيطان وهو ما عطفه على قوله من
قبل وانه لذكر لك ولقومك فنسق عليه بعد تمام الكلام وانه لعلم
للساعة اي نعلم بها انتهاء الخلق لفنائها فلا تمترن بها واتبعون هذا
صراط مستقيم فالاشارة الى القرآن بغير شك ولما كان كلام
عيسى لقومه مشبها لكلام محمد صلى الله عليهما وسلم لقومه
جا كلام محمد صلى الله عليه وسلم في وسط كلام عيسى لنعلم ان
كلا منهم قال لقومه كذلك ولا يصدنكم الشيطان انه لكم
عدو مبين ثم تمم الاخبار عن عيسى لان تحل الكلام والى اخر
السورة عنه فقال ولما جا عيسى بالبينات قال قد جئتكم
بالحكمة ولابين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون
ان الله هو جاء ها هنا لفظ هو للمماثلة بما تقدم وذلك قوله
آلهتنا خير ام هو وبعده ان هو الا عبد فتلا ذلك بقوله ان
الله هو ربي وربكم اي هو وحده لا شريك له ولا ولد فاعبدوه
هذا صراط مستقيم فاختلف الاحزاب الذين تحزبوا عليه
فكذبوه وقوم تحزبوا له تعبدوه من بينهم من بين المومنين به فويل
للذين ظلموا من عذاب يوم اليم هل ينظرون ينتظرون الا الساعة

فيه تقديم وتأخير لغاية ومعناه هل ينتظرون الا ان تاتيهم الساعة فلو
قال كذلك لكان الانتظار منهم اختيارا وانما لم يكن ذلك من قصدهم وان كانوا
في الحقيقة كذلك من حيث لا يعلمون غير اللفظ لتغير المعنى فافهمه
ومثله ولهذا اخر ان تاتيهم للاهتمام بذكر الساعة بغتة وهم لا يشعرون
الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين اتقوا المخالفة امرا ونهيا
يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا انتم تحزنون وقوله الذين
يحتمل ان يكون تمام النداء المتقدم امنوا باياتنا وكانوا مسلمين ادخلوا
الجنة انتم وازواجكم تحبرون يطاف عليهم بصحاف من ذهب واكواب
واحدها كوب وهو على صورة الابريق لا اذن له ولا خرطوم وهو كالكاس
للشراب ولما ذكر صحاف الطعام واكواب الشراب قال وفيها ما
تشتهي الانفس وتلذ الاعين وانتم فيها في الجنة خالدون وتلك الجنة
التي اورثتموها بما كنتم تعملون لكم فيها فاكهة كثيرة منها تاكلون
ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون
وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين لانفسهم ونادوا يا مالك
ليقض علينا ربك اي فليمتنا قال انكم ماكثون اي سرمدا لقد جئناكم
بالحق اي في الدنيا كما كان يقال لهم فيها واما اهل الجنة فيقولون
لقد جاءت رسل ربنا بالحق كما كانوا يقولون فيها ايضا وقوله ولكن
اكثركم للحق كارهون خطاب للحاضرين وهو اخبار عن اهل
النار ثم قال عن امثالهم ام ابرموا امرا فانا مبرمون البرم هو

احكام الفتل اي لم ابرموا امرا في مخالفتنا فانا مبرمون امرا في اهلاكهم
ام يحسبون انا لا نسمع سرهم بلى ورسلنا الملائكة لديهم يكتبون ونجواهم
ثم خاطب المشركين بما هو رد عليهم وعلى النصارى لان المشركين لما
ضربوا للنبي صلى الله عليه وسلم مثلا بعيسى جدلا ومخاصمة عادوا
مخاطبين منه مع النصارى فاذا قامت الحجة على احد الفريقين لزم على
الاخر قيامها فقال الله لرسوله عليه السلام قل ان كان للرحمن
ولد فانا اول العابدين للولد وليس له فلست بعابد الا الله وهذا تحقيق
نفي المعبودية لانه تعليق مشروط بمحال ولهذا بعده سبحان رب
السموات والارض رب العرش عما يصفون فذرهم يخوضوا ويلعبوا
حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون وهو الذي هو وحده في السماء اله
معبود ممن فيها وفي الارض اله يعبد ممن بها لا غيره وهو الحكيم
العليم وتبارك الذي له ملك السموات والارض وما بينهما ولما كان
الكلام في عيسى قال عن الله تعالى وعنده علم الساعة وهذا من
ابلغ الاحتجاج على النصارى اذ المكتوب في الانجيل الى يومنا هذا ان
الساعة لا يعلمها الابن ولا الملائكة المقربون ولا يعلمها الا الاب
وحده وهذا مما لا يقدر النصارى على جحده ولا على رد جواب
عنه الا بالباطل فيقال لهم لا يخلوا اما ان احد الالهين يقدر ان
يخفي عن الاخر شيئا فقد عاد الاخر جاهلا او لا يقدر فقد
عاد هو عاجزا ناقصا ومن المحال ان يكون واحد عالما جاهلا ناقصا

كالمالكي علم الساعة فسبحان من عنده علم الساعة وإليه ترجعون ولا يملك
الذين يدعون من دونه أي ولا يملك الآلهة الذين يدعونها أولاء من
دون الله الشفاعة أي حتى ولا الشفاعة عنده سبحانه لا يملكها إلا من
شهد بالحق وهو عيسى وعزير والملائكة والمعترفون بالعبودية كقول
عيسى عليه السلام إني عبد الله فهؤلاء والمؤمنون يملكون بإذن الله ولا
تملك المعبودون من دون الله الشفاعة بوجه وقوله وهم يعلمون
أي والداعون يعلمون أن المدعوين لا يملكون شفاعة إذ من لم يملك
النطق كيف يملك الشفاعة ودليله لقد علمت ما هؤلاء ينطقون
وينطبق على هذا الشرح قوله بعده ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن
الله فأنى يؤفكون ولما استثنى من شهد بالحق وأراد عيسى نصب وقيله
لأنه مفعول بالعطف على وهم يعلمون أي يعلمون أن أصنامهم لا تملك
الشفاعة ويعلمون قيل عيسى الذي يدعون فيه الإلهية وهو يقول
يا رب لأن الإله لا يكون مربوبا فلما قدم قوله قل إن كان للرحمن ولد
وكان الحجاج في عيسى الذي يدعون فيه الإلهية قال ما معناه وقل
لا يملك المدعوون الذين يدعونهم هؤلاء شفاعة إلا عيسى ولما كان
عيسى من جملة المدعوين وهو يملك الشفاعة بإذن الله لزم أن
يستثنى من المدعوين لأنه منهم ولم تخصص بالذكر بل قال إلا من
شهد بالحق ليدخل عيسى والملائكة والمؤمنون في ذلك ممن شهد
بالحق على نفسه أنه عبد وشهد بالحق لربه أنه إله ثم قال عن

الداعين وهم يعلمون أي يعلمون أن أصنامهم لا تملك شفاعة ويعلمون قيل
عيسى يا رب وهذا لا شك فيه فأما الأصنام فكما قدمنا من نفيهم لقد
علمت ما هؤلاء ينطقون وأما قول عيسى عليه السلام يا رب فنص
الإنجيل شاهد بذلك وأمثاله في عدة مواضع لا يجحده النصارى مع
اعترافهم أنه صلى وتضرع إلى الله وهذا من أبلغ الحجاج عقلا ونصا
عند الخصوم ولما كان قول عيسى عن قومه يا رب إن هؤلاء
قوم لا يؤمنون وقول محمد صلى الله عليه وسلم عن قومه
الكفار كذلك قال تعالى فاصفح عنهم يريد اصفح عنهم فيما ضربوه
لك جدلا ومثل ذلك مما تقدم وقل سلام من معنى وإذا خاطبهم
الجاهلون قالوا سلاما ثم تواعدهم بقوله فسوف يعلمون ۝

سورة الدخان

آيه ٥٦

بسم الله الرحمن الرحيم حم والكتاب المبين قسم
تقدم مثله إنا أنزلناه القرآن في ليلة مباركة ليلة القدر من شهر
رمضان وهذا ابتداء الإنزال إنا كنا منذرين ينذر الناس به وقدم ذكر
الإنذار لمعنيين أحدهما أن جل ما في هذه السورة إنذار وتخويف
والثاني أن ذكر الإنذار مع الليلة المباركة منبه على أن من بين يديه
مثل هذه المخاوف المذكورة في هذه السورة كيف لا يعمل في مثل هذه
الليلة وكيف لا يجتهد في تحقيق الصدق واستعلام الفرق بينه
وبين الشك والكذب ويعتمد الجد ويجتنب اللعب وهو معنى قوله

بل هم في شك يلعبون فلما ذكر الليلة ووصفها بالبركة وجعل ذكرها
بين الانزال والانذار وصفها بما يترك فيها من غير القرآن بل بعده اي في
مستقبل الزمان لهذا قال بلفظ الاستقبال فيها يفرق وقد علمنا
انها في شهر كله عبادة للعباد وجهاد واجتهاد وكونه خصها بانزال
القرآن وقد تقدم انه انزل في شهر رمضان علمنا ان له بركة ابلغ من بركة
ليلة وشهر انزل فيه على افضل الخلق افضل منزل نزل من الحق وانفع
كلام لساير العباد في المعاش والمعاد وانما اخفاها لتطلب في ساير الشهر
الى اخر الدهر فقوله يفرق اي يقسم وهو من القسمة كقوله تعالى وقرآنا
فرقناه اي قسمناه اقساما لتقرأه على الناس اي في ازمنة متطاولة
بحسب الوقايع التي تقتضي انزاله فقوله يفرق كلمة غريبة في
القرآن نبه بها على حكم تستنبط بالاذهان وقد ذكرنا في اخر
هذه السورة تصريف هذه الكلمة الغريبة وانما افردنا ذلك لنلحق
به انفع التنبيهات العجيبة وقوله كل امر اي كل امر نامر به في
تلك الليلة ثم وصف الامر بقوله حكيم اي محكم بمعنى انه لا مرد
له ولا خلاف فيه بوجه ثم بين ان ذلك الامر من عنده سبحانه
لئلا يشتبه علينا لفظ الامر فقال امرا من عندنا انا كنا مرسلين
للملايكة والانبيا فيما كان ثم الملايكة فيما يكون ولهذا قال مرسلين
فقط ولم يعين المرسلين ولم يذكرهم بلفظ يخصص زمانا
ماضيا ولا مستقبلا بل جعله محملا لذلك كله ثم ذكر ان هذا

الارسال فيما كان ويكون ليس من جهة وجوب حق للعباد على ربهم
سبحانه بل فعله رحمة من ربك انه هو السميع لدعاء الداعين
العليم بما ينزله على من يرسله رحمة للعالمين وعلى من يرسله
بعد ذلك من الروح والملايكة المقربين المرسلين في كل ليلة من
مثل تلك الليلة الى يوم الدين وذلك لانه رب السموات والارض
وما بينهما ان كنتم موقنين بالبعث وبانه لا اله الا هو يحيي
ويميت ربكم ورب آبايكم الاولين فهذا الكلام كله متعلق بالليلة
المذكورة وشارح لبركتها ومنبه على فضلها وتنويه قدرها وتعظيم
ذكرها فوصفها بنزول القرآن فيها الذي هو جماع الخيرات والبركات
ثم بعد ذلك وصفها بنزول الامر المحكم ممن يسمع ويعلم سبحانه وتعالى
واما فايدة ذكرها في موضعين اعني هاهنا وفي سورة القدر ففي ذلك
عدة منافع فمن ذلك ان نفهم كل كلام يشكل في احد الموضعين بالاخر
كما نجد قوله هناك من كل امر وهنا كل امر وذكر الانزال في الليلة هناك
كما ذكره هنا وذكر هناك القدر وهاهنا ذكر البركة وقال هناك تنزل
الملايكة والروح فيها باذن ربهم وقال هاهنا امرا من عندنا انا كنا
مرسلين وقال هناك سلام وقال هنا رحمة ومن ذلك ايضا ان نعلم
بعد علم قدرها وبركتها ان ملايكة الله سبحانه ورحمته من
حين بدا بانزالها على محمد صلى الله عليه وسلم بالقرآن استمر الامر
بعد القرآن في كل ليلة من امثالها الى اخر الزمان بالبركة والسلام وبنزول

الملائكة بما يقضى في ذلك العام ويقسم بأمر الله في سائر الأنام لهذا قال
بعد قوله انزلناه بلفظ الماضي يفرق بلفظ المستقبل اي يقسم كل
اجل ورزق وعمل وغير ذلك واذا كانت الليلة المذكورة تاتي في
كل سنة مرة واحدة وفيها يفرق دائما فقد دل على ان جميع ما يامر
الله به في تلك السنة انما تنزل به الملائكة في تلك الليلة واذا كان كل
شيء معلوما عنده سبحانه في الازل وقد ذكر انه في ليلة مخصوصة
في العام ينزل فليس المراد بذلك الا الحث فيها على العمل وارتقاب
ما فيها من البركة تنزل وامتثال ما كان فيها اولا تنزل واجتناب
الكسل في مدة المهل قبل هجوم الاجل وعلى الله المتكل واما ذكر الانذار
في هذه السورة دون تلك فلا شك انه من البين ان كل فضيلة ينبغي
عليها الخبير والمعلم البصير يجب ان يسلك في الحض عليها سبيلين احدهما
الترهيب والاخر الترغيب فخصص تلك السورة بما به تكون الرغبة
لان القصد فيها وصف الليلة لا غير وخصص هذه السورة بالرهبة
ولزم ان يذكر فيها الليلة ليعود ذكرها مع الرهبة موجبا لاجتناب
العمل المذموم واكتساب العمل المحمود في امثالها من سائر العمر فقدم
ذكر الانذار بعد ذكر البركة وجعل ذكر الليلة بين الانزال والانذار
حثا على الاجتهاد وتحذيرا للعباد واعلاما ان هذه الدار ليست
بدار شك وكذب ولا هزل ولعب فقال بعد قوله ان كنتم
موقنين ما معناه لكنهم ليسوا بموقنين ان لهم ربا يجزيهم ومعادا

يجزون فيه بل هم في شك يلعبون ثم تواعدهم بيوم الجزاء وهو
اليوم الذي ترجع السماء كانها قد استحالت الى ما كانت عليه يوم خلقها
الله من دخان وهو معنى قوله تعالى ويوم تشقق السماء بالغمام فقال
مخوفا ومشيرا الى قوله اولا انا كنا منذرين فارتقب يوم تاتي السماء
بدخان مبين اي فارتقب لهم العذاب ويقال انشق البحر بحوت
اذا خرج منه وكذلك اي البحر بحوت يغشى الناس ويقال هذا
عذاب اليم اي ما بما ناله عذاب ويقول الذين هم في شك يلعبون
ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون انى لهم الذكرى وقد
جاءهم رسول مبين ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون
فقال الله لهم انا كاشفوا العذاب قليلا من زمن انكم عائدون
كقوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانهم لكاذبون وقوله عائدون
اشارة الى انه لو تكرر منا الكشف دائما لتكرر منهم العود كذلك وانما جا
اللفظ على هذه الصيغة ولم يقل انا ان كشفنا بل كانه يحكي صورة
فعل الحاضر ليعرفنا ان حالهم في العذاب الادنى الخزي في الدنيا
هذا كان فجا اللفظ مشعرا بما هم عليه في الدنيا ودالا على ما يكونون
عليه في الاخرى ثم تواعدهم بذكر يوم هو ذاك اليوم ولكن وصفه
بنوع اخر من العذاب وهو كما تقول مخاطبا لصاحبك عن مذنب
حاضر تهددا له فارتقب يوم اخذه بالعذاب يوم اجد عليه
العقاب فنكر ذكر اليوم مع صفة اليوم يوم نبطش البطشة

الكبرى الأخذ بالضرب عن بأس وسرعة والكبرى عذاب الآخرة
والصغرى عذاب الدنيا إنا منتقمون ولقد فتنا اختبرنا بالرسل والعذاب
الأدنى قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم أن أدوا إلي أدى
ما عليه إذا سلمه إلى مالكه عباد الله إني لكم رسول أمين وأن
لا تعلوا من العلو بغير الحق وهو التكبر لأن الله لا يعلوا عليه عال
وقوله على الله أي على أمر الله إني آتيكم بسلطان مبين السلطان
هو ما يتسلط به المحق على المبطل وإني عذت بربي وربكم أن ترجمون
وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون أي واعتزلكم وما تدعون من دون الله
تقديره فاعتزلوه فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون ليس المراد أنه
دعا عليهم بل نادى ربه فأسر دل بالفاء على تقدير قوله فقلنا له أسر
وأصلها من أسرى لازم بعبادي ليلا إنكم متبعون من فرعون
وقومه واترك البحر رهوا ساكنا أي على حاله عند عبورهم فيه لأنه
أمره بشقه ولم يأمره برده إنهم جند مغرقون يقال عيش راه
إذا كان خفضا وادعا كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام
كريم مكرم بالكنس والبسط وغير ذلك والمقام ما يقيم به الشخص ونعمة
بفتح النون واحدة نعمات وهي من التنعم مثل نغمة ونغمات وسمة
وسمات والنعمة بكسر النون فهي من النعم والأرزاق كانوا فيها
فاكهين كذلك وقف وأورثناها عايد على الجنات وما بعدها
قوما آخرين ومعناه كم تركوا كذلك أي كم مثل ذلك الذي وصفناه

تركوه فلزم أن تقدم الموصوف ولم يحتج أن تكرر كم تركوا لأنه قدمها
أولا وكأنه أخيرا أن كم تركوا كذلك فما بكت عليهم السماء والأرض
أراد أنهم كانوا في الدنيا مبغوضين فوق الأرض وتحت السماء بمعاصيهم
فلما هلكوا طهرت الأرض منهم فلم يعرض للسماء والأرض ما يعرض للباكي
إذا فقد محبوبه وهو على طريق الاستعارة ولما كان المؤمن زبدة
الكون والكون خادم له والكافر بضد ذلك فإنه عدو الكون ومن
فقد عدوه فإنه لا يبكي عليه كما أن من فقد حبيبه يبكي عليه وما
كانوا منظرين بل عجل لهم العذاب ولقد نجينا بني إسرائيل
من العذاب المهين من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين
وهو من الاستعلاء ومعناه كان عاليا في الإسراف كما تقول عال من
الرجال ولقد اخترناهم بإرسال الأنبياء فيهم على علم
منا لأن الإنسان قد يختار المختار في نفسه وهو لا يعلم بل يصادف
ذلك وقد يختار وهو يعلم أنه هو الشيء المختار في نفسه فذلك
يقال له اختار على علم والآخر على جهل ومثله وأضله الله على علم
أي على علم عند الله وبحق يستحقه وقوله على العالمين أي من أهل
زمانهم ولا يلزم أن يكون على سائر العالمين إلى يوم القيامة وأما
قوله تعالى وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين لما كان محمد صلى الله عليه
وسلم خاتم النبيين كان ذلك الوصف له إلى يوم القيامة ولو كان
من قبله كذلك لكانت الرتبة له وآتيناهم من الآيات ما فيه

بلاء مبين من الابتلاء لأنه تعالى يبتلي بالسراء كقوله هذا من فضل ربي ليبلوني
ثم تواعد الأعراب بقوله إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى
وما نحن بمنشرين ولما جحدوا البعث وجعلوا لهم بزعمهم برهانا
فقالوا فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين جوابهم فيما سيأتي بقوله إن يوم
الفصل وقدم قبله ذكر من قبلهم ليعم إتيانهم من المكذبين بالبعث فقال
أهم خير أم قوم تبع يتبع من تقدمه والذين من قبلهم ممن كذب الرسل
أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين ثم قال مبرهنا على كونه لم يأت بما اقترحوه
من الإتيان بآبائهم وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما والناس
مما بينهما لاعبين أي لو أتينا بالآباء مع علمنا أنهم لو ردوا لعادوا لما
نهوا عنه لكان ذلك الفعل منا لعبا إذ من فعل ما لا يثمر ولا ينتج فهو
لعب وليس على وفق الحكمة وإذ لم نخلقهما بما بينهما لاعبين فهل تكون
أمور الخلائق سدى بحيث يفعلون ما يشاؤن ولا يجزون ولا يكون
الجزاء إلا بالبعث فلا يكون ما خلقناه لعبا ثم قال ما خلقناهما إلا
بالحق وقوله ولكن أكثرهم لا يعلمون يعطي أن بعض الناس يعلم كل
ومعنى أنه تعالى خلقهما بالحق هو أن يجعل له ثمرة ونتيجة فهو مفعول
بحق لا بباطل ولما خلق الله العباد لعبادته خلق سائر المخلوقات مسخرات
للعابد وعلامات دالات على المعبود فذلك بحق من غير شك ويحتمل
أن يقال هذا الإجمال تفصيل تفهم به فائدة جليلة عند التأمل وذلك بعل
أنه لما كان المقصود ليس إلا وجود الإنسان على ما هو عليه ولزم

أن يخلق له سائر ما يحتاج إليه والإنسان تمكنه أن يحل نفسه في سائر
الرتب ويحاكي الكل بالجد واللعب وذلك باختياره وكسبه والمراد
له به واصل إليه من ربه فلما تقدم علمه تعالى بأناسي كثيرة أنه إذا
خلقهم مكتسبين أحلوا أنفسهم بكسبهم في رتب مختلفات على
اختلاف سائر الموجودات من المعدن والحيوان والنبات والملائكة
والأرض والسموات وجميع المكونات خلق الموجودات في رتبها
لما علم منها أنها لو كانت أناسي لما أحلت أنفسها إلا في ذلك المحل فخلقها
فيه بحق علمه منها وإن لم تعلمه هي بل علمه الإنسان العالم بما علمه من
نفسه وعلمه من ربه ٥

فالكل إنسان ولكنه قد حل في كل محل وقام
فصار هذا ذهبا خالصا وصار هذا بهواه الرغام
وذا الجنيا وذا كوكبا أو فلكا للكاتبين الكرام
والعلم إذ كان محيطا بهم أقام كلا منهم في المقام
وسخر الأدنى لأعلاهم بذلك التسخير تم التمام
بالحق والعدل خلقناهم لسابق العلم بهم والسلام

ومن علم أن كل مخلوق في الكون حتى في الصورة والطعم واللون قد خلقه
الله بحق وسخر الأنقص للأكمل عمل على أن يكون هو الأفضل فسلك بحكم
الكتاب المنزل وعمل بالأمر كله يعمل وسأل ما يحب أن يسأل واستوطن
الصبر في مواطن الابتلاء وقيد قلبه ولسانه بالدعاء واتصف بما

امكنه من الاسماء حتى قهر هواه وعاد في خلق الله خليفة الله ولما اختلفت
مراتب المكتسبين قال تعالى ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين
يوم لا يغني مولى سيد عن مولى عبد وجاء بهذه العبارة
ليفهم منه المعنيان وانما قلنا ما قلناه للزوم ما سواه لانه اذا
لم يغن مولى عن عبد فكيف يغني عن حر شيئا ولا هم ينصرون
الا من رحم الله انه هو العزيز الرحيم وهذا الاستثناء منقطع
ومعناه لكن من رحم الله فانه ناج والمرحوم معلوم من قوله ورحمتي
وسعت كل شيء فسأكتبها باقية دائمة بما انعم به للذين الى قوله الذين
يتبعون الرسول الاية ان شجرة الزقوم طعام الاثيم الاثم كالمهل النحاس
المذاب وقيل سمي بذلك لشدة مهلة الحرارة فيه فانه يمسك الحرارة
اكثر من بقية الاجساد وقوله تغلي في البطون كغلي الحميم اي كما يغلي
الماء الحار الذي يحم به ولكنه اذا كان غاليا شبه ثمر الشجرة وهو
الزقوم بالمهل في الحرارة وشبه غليانها بغليان الحميم ثم يقال
للزبانية خذوه فاعتلوه كما يحمل العتالون الحجر مشدوده بالسلاسل
وهم جاقون بها الى سواء الجحيم ثم صبوا فوق راسه من عذاب
الحميم من هاهنا لتبيين الجنس واخر قوله ذق ليكون الذوق
لانواع العذاب المذكور والذوق استعارة كما ان عذاب الحميم
لا يصب بل الحميم لكنه ذكر الغرض موضع ما به يكون الغرض اعني
السبب وقوله انك انت العزيز الكريم تقديره ام عز ولهذا

بعده ان هذا ما كنتم به تمترون فيه تشكون ان المتقين في مقام
بالضم الاقامة وبالفتح المكان امين آمن في جنات وعيون يلبسون
من سندس من الحرير في قول الحسن واستبرق الديباج في قول
قتادة متقابلين وقدم كذلك للوزان والمعنى وزوجناهم
بحور عين كذلك اي يلبسون من سندس واستبرق يدعون
بمعنى يستدعون فيها بكل فاكهة امنين يريد مطلق الامن وتشير
الى الامن من ضرر الفاكهة الذي هو الامراض والاسقام المؤدية الى
الموت لهذا بعده لا يذوقون فيها الموت ثم استثنى استثناء
منقطعا الا لكن الموتة الاولى في الدنيا اذ لا موت في الجنة
واما الكفار فانهم ياتيهم الموت في النار من كل مكان ومن وراء الموت
عذاب والمؤمنون لا يذوقونه ووقاهم عذاب الجحيم فضلا
لان ما ذكره فوق ما يستحقونه من ربك ذلك هو الفوز العظيم
فان قيل ما معنى الاستثناء بقوله الا الموتة الاولى وقد علمنا انهم لا
يدخلون الجنة الا بعد البعث ولا يكون البعث الا بعد الموت
فالجواب انه لما قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا
بل احياء عارضه قوله تعالى كل نفس ذائقة الموت فبين الله بقوله
عن اهل الجنة الا الموتة الاولى ان الشهداء ذاقوا الموتة الاولى ولكن
الله احياهم في البرزخ الى يوم يبعثون احياء والدليل على انهم ذاقوا
الموتة بالقتل قوله تعالى فقال لهم الله موتوا ثم احياهم وهم

الشهدا كما بيناه دون ما قيل ولما كان الشهدا من جملة اهل الجنة فلو لم
يقل الا الموتة الاولى لوقع الجزم بان الشهدا لم يموتوا بالقتل بل حين قتلوا
دخلوا الجنة فلا يخرجون ولا يبعثون فانتفى ذلك كله ومثله بقوله الا
الموتة الاولى اعلاما ان هذه لا بد منها لكل نبي وشهيد ومومن وكافر
وقد يقال من باب الاحتمال ان قوله الا الموتة الاولى تحقق البعث
بالاجساد والدخول الى الجنة بها وهذا المعنى هو اكبر مطالب الشريعة
وبيانه انه لما تقدم العلم بان طايفة من متفلسفة هذه الامة ارادوا
ان يجمعوا بين الشريعة والحكمة فاعتقدوا البعث بالاجساد ولكنها
بعد ذلك تموت ويكون الدخول الى الجنة بالارواح فقط كما قدمنا في
البقرة رد الله عليها اولا عند ذكر اهل الجنة وبين انهم مع كونهم
لا يذوقون بها الموت انهم ايضا لا يذوقونه في الدنيا سوى الموتة
الاولى فلزم بطلان ما ادعاه اولا من ان البعث بالاجساد انما
يكون على صورة الاعجاز ثم تموت الاجساد موتة ثانية بعد البعث
ويكون الدخول الى الجنة بالارواح فانظر الى هذا البيان الالهي ولا
تقل هذا البيان للعوام المخاطبين على قدر الافهام ويكفي معتقده ان تكون
الحكمة مخالفة له بل قل ان هذا البيان خطاب للخاص والعام ويكفي معتقد
غيره ان تكون الشريعة مخالفة له وانما ضل هذا المدعي لمعنيين
احدهما انه ظن ان الحكمة هي ما خطر بباله والثاني انه اعتقد ان الله تعالى
لا يعلم الا كما يعلمه هذا المدعي فضل جهلا ولو امن بالغيب للزمه الاعتراف

يغلطه عقلا او انقادا الى قوله ولله المثل الاعلا ولما جاز ان يكون قول
اهل النار ربنا امتنا اثنتين مقويا لهذه الشبهة الفلسفية نفاه
الله بقوله عن اهل الجنة الا الموتة الاولى ويحتمل ان يزاد على ما
قلناه انه سبحانه انما قال عن اهل الجنة لا يذوقون فيها الموت الا
الموتة الاولى اعلاما ان اهل النار يذوقون فيها الموت بعد الموتة
الاولى فذكر السلب عنها اولا ليلزم عنه الايجاب لها ولهذا
لم يقل لا يذوقون الموت بل لا يذوقون فيها ليلزم ان اوليك يذوقون
فيها فانما يسرناه الها اشارة الى القران المضمر بقوله في اول السورة
انا انزلناه وان كان ما اعترض بين ذلك كثيرا فاتخذ هذا امثالا لا
للعطف على البعيد والاشارة اليه وقوله بلسانك اي العربي
كقوله وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم بلغته
التي هي لغتهم وقوله يسرناه اراد اطلاق اليسر لعلهم يتذكرون
بما عنده يسالون كقوله وانه لذكر لك ولقومك وسوف
تسالون فارتقب لهم يوم تاتي السما وامثال ذلك
انهم مرتقبون ما وعدناك من النصر عليهم لا نفسهم عليك واذ قد
نجزت هذه السورة فلنذكر حكمة العبارة بقوله تعالى فيها يفرق وبعد
ذلك نضيف اليه ما راينا فيه نفعا لمن هو بصدد ما قلناه والله الموفق
للصواب واعلم ان قوله تعالى يفرق وهو ما لم يسم فاعله من الماضي واصل
هذه اللفظة تعدى من فرق يفرق فرقا كقوله حسب يحسب حسبا

وان لم يستعمل مصدرها لئلا يشتبه بقولنا حسبنا الله ومعناه راجع
الى الحساب لغة اى يكفينا الله كفاية بحساب لا ينقص ذرة ويفرق ومثل
يحسب والاسم فرق وهو مذكر فرقة قال الله تعالى فكان كل فرق
كالطود العظيم وفرقة مثل حسبة ومفترق كمحتسب وتقول منه
اى يفرق
فرقا وفرقانا كما تقول حسابا وحسبانا فقوله تعالى يفرق فيكون
فرقانا كما تقول يقرأ فيكون قرآنا قال الله تعالى فاذا قرأناه فاتبع قرآنه
لانه لما قرئ كان قرآنا ولانه دائما يقرأ وكل قرآن فرقان وليس كل فرقان
قرآنا ولهذا كانت التوراة فرقانا ايضا قال الله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب
والفرقان فهو وصف لكتاب موسى عطف عليه باسم الصفة كقوله عنه
ايضا نورا وهدى فمن حيث قد علمت اصل هذه الكلمة وتصريفها لغة وان
المراد بها هو الفرق كالفصل والقسم فافهم اولا معنوية الفرق هاهنا
ولم سمي بهذه التسمية ثم افهم بعد ذلك كيف يكون ما يفرق فرقانا
وان لم يكن قرآنا لتعلم ان الليلة المحمدية انزل فيها قرآن وان امثالها
من الليالي ينزل فيه فرقان بامر الله رحمة مستمرة منه سبحانه على
من يستحقها من الانام كما نبين فنقول اعلم ان الفرق له اعتباران
عليه الصلاة والسلام
احدهما من جهة الخلق والآخر من جهة الحق فاما الذي من جهة
الخلق فهو ان يأتي المفروق مفصلا في ازمنة كقوله تعالى وقرآنا فرقناه
لتقرأه على الناس على مكث اى في ازمنة متطاولة فلم ننزله عليك
جملة بل بحسب الوقائع مفروقا مفصلا ولهذا بعده ونزلناه تنزيلا

وهذا فرق زماني وهو خاص بالنبي عليه السلام والمفروق هو القرآن
ومثله يكون الفرق لما يفرق في ازمنة متطاولة من كل امر محكم والمفروق
هو الفرقان وذلك فيما كان وهذا فيما يكون وذلك خاص وهذا عام قال
الله تعالى ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا فهذا فرق من جهة الخلق
واما الفرق من جهة الحق فاعلم انه لما كان العلم الازلي محيطا
بكل ما سينزل فلا شك ان المنزل قبل ان ينزل لم يفرق من العلم
الازلي ولم ينفصل وليس مرادنا ان العلم اذا فرق تنقطع منه قطعة
بحيث تكون جزءه ولا ان المنزل اذا نزل يكون قد انتقل لان العلم
لا يقبل الانتقال وسأبين لك ذلك بضرب المثال لا شك ان علم زيد
صفة له فاذا علمه لعمرو فقد صار لعمرو مثل صفة زيد لا نفس
صفة زيد اذ لم ينتقل علم زيد عنه ولم يتغير من زيادة ولا نقصان
ولما كان علم زيد قبل علم عمرو لزم ان علم زيد قديم ولما كان علم
عمرو بعد علم زيد لزم ان علم عمرو محدث وقد بينا ان ما
وصل الى عمرو هو صفة علم زيد لا نفس علم زيد فاذا فرضنا قدم زيد
وحدث عمرو فقد كان علم زيد قديما لانه صفة لزيد القديم وصار
علم عمرو محدثا لانه صفة لعمرو المحدث ولما لم يكن عمرو عالما ثم
علم حدث له علم بتعليمه له محدث غير قديم بلا شك ولما لم يزل زيد
عالما لم يحدث له علم بتعليمه له قديم غير محدث بلا شك ومن فهم
هذا المعنى وفهم به قوله تعالى الرحمن علم القرآن علم ان القرآن قديم ولم

يشتبه عليه قوله تعالى ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث فمن اعتقد أن
القديم محدث فقد جهل على الله ومن ظن أن المحدث قديم فقد رد
على الله ومن أعطى كل موصوف صفته فقد سلك سبيل الله وهنا
ضل من ظن أنه من الآحاد فقال بالاتحاد إذ اعتقد أن صفة الصفة
القديمة تكون نفس الصفة وهذا ظاهر الفساد يدركه المنصف من
أولي الرشاد فيؤديه في الله إلى أحسن الاعتقاد وإذ قد علمت أن
في هذه الليلة المخصوصة يفرق من العلم الأزلي ما به الملائكة تتنزل
في تلك الليلة خاصة وفي بقية العام عامة وقد علمت قوله تعالى
وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم وعلمت
أن القدر المعلوم ليس عن هوى من الخالق أو عن ميل إلى بعض الخلائق
بل على وفق الحكمة ومقتضى العلم السابق بما له يستحقون وبه يمتحنون
وقد قال تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون فلما تساوى
في هذا الإعلام كل أحد من الخاص والعام ظهرت فضيلة التنبيه
على ليلة تكون المواهب بها في طي المكاسب فإن قيل إن ملائكة
الله دائما تتنزل ليلا ونهارا بالرحمة التي تسع سائر الأشياء والعلم
على قلوب المستنبطين من العلماء والكشف ببعض ما سيكون
كما قد تخبر به ألسنة الأولياء وغير ذلك كوحي المنام وكسائر
النعم الواردة من باب الإلهام فأي فائدة في تخصيص ليلة من الشهر
والرحمة من لدن الكريم فياضة في سائر الدهر فالجواب أنه يجب

أن

أن تعلم أن التنزلات الملكية لا تستقصى والنعم الرحمانية الواصلة بواسطة
الملائكة لا تحصى فمن ذلك أن الملك ينزل بما أمر الله أن ينزل به من أمر
ما علما أو عملا أو ذوقا أو إلهاما في صناعة أو طاعة أو غير ذلك فمن
ذلك ما يتم في وقته ومنه ما ينفثه في الروع فيكون خبا إلى أجل
مسمى ثم يظهر عند ظهور شروطه كبلوغ الصبي والوصول
إلى مكة مثلا وقد ينزل الملك بما هو كالبزر الذي يحتاج إلى فلاحة وعمل
فتكون ثمرته غيبا وخبا في شجرته وشجرته غيبا في بزرته التي إنما
نزل الملك بها وذلك كالنخلة في النواة وقد يكون أخفى من ذلك وهو كالنواة
في الماء فتكون الملكوتية المنزلة واحدة والمراتب مفترقة وهذه التنزلات
الملكوتية هي مستمرة في كل آن سرمدا لا تختص بليلة ولا بشهر أو سنة
ولكنه لما كان الوارد المحمدي ليس من قبيل الأعمال الفانيات بل من قبيل
العلوم بالله أو بشرعة الله فهذا للخاصة وهذا للعامة وكان مفتتح
الفضل الأعظم ومبدأ نزوله على النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مخصوصة
من هذا الشهر عادت بركة تلك الليلة عائدة على أمته أبدا إلى آخر الدهر
بما هو من قبيل ما أنزل إليه وأنعم به عليه فرقانا لا قرآنا فكما كان في تلك
الليلة ما لم يكن من قبل والملائكة تتنزل دائما بما قدرناه كذلك يكون في أمثال
تلك الليلة والملائكة على حالها تتنزل بما قررناه ولما كانت هذه
الليلة مفتاح البركات من جهة الوهاب وقد تحققت لنا فائدة
الأدعية والعبادات من جهة الطلاب نبه بها خواص على

التعرض للنفحات ودل بها عوام على استرواح الراحات في لها ولا اوان
الاطلاعات عليها ولا ابان النزاعات والنزلات على قدر الطاعات في
الاوقات المخصصات ومن جحد خواص الاوقات فليجحد اوقات الصلوات
ومواسم العبادات كالاعياد والاصوام وساعات الجمعات والاسحار
المخصوصة بالاستغفار والدعوات ومواقيت الحج والاشهر المحرمات
وذلك مما يأباه صحيح العقول ويشهد بضده اصح المنقول فهذا ما اردنا
بيانه واثبتنا بالعقل والشريعة برهانه فافقه غير محتجب بمعارضة
بعض الالفاظ التي اوجب لنا جمعها قصد التفهيم وان لم نات بها
على الوضع الاولى في باب التعليم وفوق كل ذي علم عليم

سورة الجاثية ٣٦ آية

بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز
الحكيم ان في السموات والارض لايات للمؤمنين وفي خلقكم
وما يبث من دابة ايات لقوم يوقنون قيل اليقين مشاهدة
الغيوب باعين القلوب واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من
السماء من رزق الما رزق وسبب لرزق فاحيا به الارض
بعد موتها وتصريف الرياح ايات لقوم يعقلون انظر كيف بدأ
بالايمان اولا ثم اليقين بما وقع الايمان به ثم التعقل المرتقي بعد
اليقين ثم قال بعد ذلك عما به كان ذلك المنظور متلوا تلك
ايات الله نتلوها عليك بالحق فباي حديث بعد الله واياته

يؤمنون ويل لكل افاك اثيم اثم وغير للوزن يسمع
ايات الله تتلى عليه ثم يصر على كفره مستكبرا على الايات كان
لم يسمعها فبشره بعذاب اليم واذا علم من اياتنا شيئا
اتخذها هزوا اي اذا وصل اليه علم مهما كان من اياتنا استهزا
به لانه يؤوله وينظر له وجها يطعن به في القران كله لهذا قال
اتخذها ولم يقل اتخذه اولئك لهم عذاب مهين من ورائهم
جهنم ولا يغني عنهم ما مما كسبوا ولهذا لم يقل ما كسبوه شيئا
ولا ما اتخذوا من دون الله اولياء ولهم عذاب عظيم هذا هدى
اي لاما اتخذوا وهو على صورة الامتزاج لهذا قال والذين كفروا
بايات ربهم لهم عذاب من رجز اليم الله الذي سخر لكم البحر
لتجري الفلك فيه بامره ولتبتغوا بها في البحر من فضله برا بما فيها
وبحرا بما فيه ولعلكم تشكرون وسخر لكم ما في السموات
وما في الارض جميعا منه دليل لقوله تعالى انما المسيح عيسى ابن
مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم وروح منه فلو كانت
منه هناك تدل على البعضية او على ذات الباري عز وجل
للزم كذلك هاهنا ان في ذلك لايات لقوم يتفكرون قل للذين
امنوا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله انما امر المؤمنين ان
يغفروا لغيرهم من المعاهدين ما جنوه عليهم لا ما جاوا به مما
يجب عليه اقامة الحدود فيهم او الجهاد لهم ثم تكفل الله بالجزاء

للمؤمنين والكفار ليجزي قوما بما كانوا يكسبون قرأ أبو جعفر بضم
الياء الأولى وجزم الثانية ليجزى قال أبو عمرو وهذا لحن ظاهر من عمل
صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها في الدنيا يعود ثم إلى ربكم ترجعون
فيجازيكم في الأخرى ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة
ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين وآتيناهم آيات
بينات من الأمر وهو ما نأمر به عبادنا في كل زمن بحسب ما يجب
والأمر هاهنا مثل قوله الكتاب إذا أراد به اسم الجنس وإنما أجل ما أمرهم
به في التوراة ومعظم الأمر اتباع هذا الرسول صلى الله عليه وسلم
عند مجيئه وكانوا متفقين على مجيء رسول يجعل الله كلامه في فيه
ويأمر بأمر من الله وكانوا على بينات من الأمر المنتظر فما اختلفوا إلا
من بعد ما جاءهم العلم بأن هذا هو صاحب الأمر فاختلفوا بغيا
بينهم بعد العلم وهذا الكلام يعطي أيضا ما وقع بينهم من ضروب
الاختلاف كالمذاهب المختلفة في اليهود والنصارى بعد العلم بالواجب
فكان ذلك منهم بغيا ويكون اتباع هذا الرسول من جملة ذلك فلهذا
قال بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه
يختلفون ثم جعلناك على شريعة طريقة بينة من الأمر فاتبعها
ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا
وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولي المتقين هذا بصائر
وهو جمع بصيرة للناس أي كلهم إذا آمنوا به وهدى ورحمة

لقوم يوقنون أم حسب الذين اجترحوا بجوارحهم وهي جمع جارحة
بمعنى تعلموا سيئة بأي جارحة كانت لأي سيئة كانت من السيئات
أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم
ساء ما يحكمون به لأنفسهم لأن الأمر لو كان كما يزعمون لذهبت
فائدة التكليف ولم تخلق السموات والأرض إلا لأجل التكليف ولهذا
بعده وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما
كسبت وهم لا يظلمون والمعنى أيحسب المسيئون أن نجعلهم
كالمحسنين والحالة هذه أي وقد خلقنا بالحق وقد بينا كيف خلق
الكل بالحق ولهذا قال هاهنا بالحق ولتجزى فافهم واو العطف بعد
الخلق بالحق أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم أي
علم عند الله سبحانه وهذا كقوله في هذه السورة ولقد اخترناهم
على علم على العالمين والمعنى أضله الله على علم بما يستحقه لا عن هوى
كما تعتقده المجبرة وتقوله من أن له أن يفعل ما شاء ولا يسأل عما يفعل
ولما كان هذا الإضلال بحق على علم بما يستحقه المعاقب به قال بعده
وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من
بعد الله أي من بعد عقوبة الله له بهذا العقاب أفلا تذكرون
بمن عاقبناه على عمل السيئات بمثل هذا العقاب وقالوا ما هي إلا
حياتنا الدنيا ثم قالوا مستبعدين مستفهمين استفهاما ما يعطي
الجحود والنفي نموت ونحيا يعني نموت ثم نعود أحياء بعد الموت

اي لا يكون ذلك بوجه وما اي وقالوا ما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك
من علم ان هم الا يظنون واذا تتلى عليهم اياتنا بينات ما كان حجتهم
منصوبة لانها خبر كان واما اسمها فهو قوله الا ان قالوا ائتوا باباينا
ان كنتم صادقين قل الله يحييكم وهي الحياة الاولى في الدنيا ثم
يميتكم الموتة الاولى المذوقة في الدنيا ثم يجمعكم في القبور الى
يوم القيامة لا ريب فيه فيبعثكم احيا للجزاء ودل على الحياة
بذكر القيامة ولكن اكثر الناس لا يعلمون ولله ملك السموات
والارض فله القدرة على ما شا فيما هو ملكه ويوم تقوم الساعة
يومئذ يخسر المبطلون وترى كل امة جاثية كل امة تدعا
الى كتابها يريد المنزل اليها مع رسولها ولهذا ذكر الامة كقوله ولكل
امة رسول ليعم الاولين من قبل القران ويعم الاخرين من حين
نزول القران الى يوم القيامة فقبل القران كانوا امما واما بعده فالجميع
امة واحدة والاحتجاج عليهم بالقران فمن كان من الامم باقيا على كتابه
فكتابه حجة لانه يامر القران فلهذا قال كل امة تدعى الى كتابها اي الى باتباع
حكم كتابها المنزل عليها مع نبيها المرسل اليها واما قوله بعد ذلك هذا
كتابنا فانه يريد ما كتبته الحفظة من اعمال العباد وجمع بلفظ
الامة لان الجميع يعود الى كتابين كتاب الابرار وكتاب الفجار ولهذا
بعده اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق
انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون فافهم انه ليس المراد بعد الاول

الا ما كتبته الحفظة ولهذا قال اولا الى كتابها ثم قال هذا كتابنا ثم بينه واما
واما شهادة الكتب المنزلة عليهم فهو هاهنا بعد قوله فاما الذين
امنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو
الفوز المبين ثم قال واما الذين كفروا يقول لهم افلم تكن اياتي تتلى
عليكم فاستكبرتم وكنتم قوما مجرمين واذا قيل اي وكنتم اذا قيل
ان وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة
ان نظن الا ظنا وما نحن بمستيقنين فهذا هو شهادة الكتب
المنزلة عليهم مع شهادة ما كتبته الحفظة ولما كان تكذيب الرسل
اسوا الاعمال ذكر الله الكتب المنزلة اولا ثم تلا ذلك بقوله انا كنا
نستنسخ ما كنتم تعملون فدخل التكذيب في جملة الاعمال وبدا
لهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزءون من الوعيد
وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا اي نسيان اهمال
لا نسيان اغفال وماواكم النار وما لكم من ناصرين ثم احتج
عليهم بما انزل اليهم من اول الزمان الى اخره لان الكتب المتقدمة
امرت باتباع الكتاب المتاخر فقال ذلكم بانكم اتخذتم ايات
الله هزوا وغرتكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا
هم يستعتبون ولما كان الانعام عاما على ساير الانام بالكتب
والعقول والتمكين من الاجتناب والاكتساب وتحقق الكفار
ان دخولهم الى النار انما هو من قبل انفسهم وان الفضل قد عمهم من

بأيديهم كما عم المؤمنين لزم أن يكون الله سبحانه محمودا من الفريقين
وأن كفر الكفار لم يكن قادحا في ربوبيته ولا في كبريائه وعزته فلهذا
قال بالفاء ما معناه ودا إذا كان ظلمهم لأنفسهم عائدا عليهم وإحساننا لم
يزل واصلا إليهم فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين
وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ٥

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله
العزيز الحكيم جاء ما تأخر من أسمائه سبحانه في آخر السورة من
قبل مبدأ لأول هذه السورة من بعد وختم في تلك بما بدأ به فيهما من
ذكر العزيز الحكيم وهذه الحواميم السبع بمنزلة سورة واحدة
ولهذا جاء شعارها واحدا وزاد في بعضها عسق إعلاما بما ذكرناه
فيها ولما كان ذكر الكتاب او التنزيل في سائر هذه السبع وقد
نزلت متفرقة جاء شعار الجميع حم ولهذا جعلت في القرآن
مجتمعة وإذا تأملت مفتتح السور والأسماء وجدت مناسبة
لا بد تقتضي تلك الأسماء مع ذلك الكلام كقوله في أول سورة المؤمن
العزيز العليم ثم تلا العليم بقوله غافر وكقوله في فصلت الرحيم
تلاه بقوله بشيرا فافقه ذلك وأمثاله ما خلقنا السموات
والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل وبأجل مسمى لأن العلم
الأزلي لما كان متقدما بما سيكون كان لا شك في أجل مسمى ولم

يكن لازما للذات كلزوم الصفات لأن الحدث الذي لم يكن لما وقع
ممن لم يزل لزم كونه بالأجل لا عن عبث ولا اتفاق بل عن اختيار
وحكمة ولهذا قدم العزيز الحكيم ولما كان حدوث الكون بأجل مسمى
فكذلك زواله يكون بأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا به
من خالق السموات والأرض وهو القرآن الدال على زوال السموات
والأرض وغير ذلك مما تضمنه الإنذار معرضون إلى آلهتهم
قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا أي شيء هو الذي
خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أي في خلق أو أمر
ولا يعارض هذا بأن عيسى خلق من الطين كهيئة الطير بأن ذلك
بالإذن من غيره عبد لمن أذن له ائتوني بكتاب من قبل هذا القرآن
يشهد بأنهم آلهة من دون الله أو أثارة أثرة وأثارة مؤنثة أثر
وتؤنث للتقليل لأن الأثر يدل على كثير وهو يريد ها هنا أثرة
ما من علم ولهذا قاله منكرا ومن للتبعيض وأخر الأثرة ليعود
الكلام دالا على الثاني مع احتمال عوده على الأول فأما الثاني فهو
أنهم لا يأتون بكتاب ولا بأثرة من علم يدل على دعواهم وأما الأول
فهو أن آلهتهم لا تخلق وليس لها شرك بمعنى شركة في السموات ولا
في أثارة من علم لأن من لا يعلم كيف يخلق إن كنتم صادقين ومن
أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له ولو دعاه
إلى يوم القيامة وهم أي الآلهة عن دعائهم دعاء الداعين

غافلون لاحتمال انهم قد لا يستجيبون لكنهم غير غافلين واذا حشر
الناس كانوا الالهة لهم اعداء وكانوا الداعون بعبادتهم للالهة
كافرين وهذا كقوله ويوم القيامة يكفر بعضكم ببعض لان من كفر
بالمعبود فقد كفر بالعبادة له وكذلك ان كفر بالعبادة ويحتمل انهم
انما يكونون كفارا من اجل انهم عبدوا غير الله لان العبادة تعطي
الايمان فالمراد ان هؤلاء بنفس العبادة عادوا كفارا كما ان المؤمنين هم بنفس
العبادة صاروا مؤمنين اعني اثرت عبادة هؤلاء كفرا وعبادة هؤلاء
ايمانا ويحتمل ان الالهة تجحد عبادة العابدين لها كقولهم ما كانوا ايانا
يعبدون وجميع هذه الاحتمالات لايقة بهذا الكلام ومذكورة
في القران كل منها في موضعه والاول هو الاولى هاهنا ولهذا
لم يقل لعبادتهم فتامل لتفهم جيدا ولهذا لم يعطف على الالهة
بل على العابدين فقال واذا تتلى عليهم اياتنا بينات قال الذين
كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ام تاتي في بعض المواضع بمعنى
اما اي يقولون اما هذا واما هذا فهؤلاء يقولون هذا اما انه سحر
واما كذب وهو الافتراء يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون
لي من الله شيئا اي من نفع او ضر هو اعلم بما تفيضون فيه افاض
في الامر اذا دخل فيه وهي استعارة ويقال هذا كلام مستفاض
بين الناس اي شايع فالمراد الله اعلم بما تشيعون في امري وفيما
جئتكم به كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم

لمن امن بعد كفره وان كان كفره عظيما كما ادعيتم ودعوتم قل ما كنت
بدعا من الرسل اي لم اكن بدعا الله تعالى فجئتكم بما لم يات به غيري
بل انما ارسلني ربي كما ارسل من قبلي وما ادري ما يفعل بي ولا بكم
ان اتبع الا ما يوحى الي وما انا الا نذير مبين قل ارايتم ان كان
هذا القران من عند الله وكفرتم به بالقران وشهد شاهد من
بني اسرائيل على مثله اي على صحة مثله كانه قال ان شهد ان مثل
هذا الكتاب لا يكون الا من عند الله والمراد هو فافهم فامن الشاهد
به واستكبرتم ثم اضمر محذوفا معناه الستم من الظالمين لانفسهم
ان الله لا يهدي القوم الظالمين اجبارا بل يضل الله الظالمين جزاء
لانه هداهم فكذبوا فعاقبهم بان مدهم في طغيانهم كقوله ونذرهم
في طغيانهم يعمهون فافهم قوله على مثله فانه لما قال ان كان لزم ان
يقول على مثله فلما قال وشهد شاهد ولم يقل رجل علمنا انه اراد
شاهدا على مثله يعتمد بنو اسرائيل فاذا شهد بصحة مثل هذا القران
لزمتهم الحجة البالغة وقال الذين كفروا اليهود وهو عام للذين
امنوا المراد عن الذين امنوا منهم بالقران لان الكلام هاهنا تقدم
في القران بقوله ان كان من عند الله وفيمن امن من بني اسرائيل
بقوله فامن وعبر هاهنا باللام في قوله للذين كقوله وقال الذين كفروا
بالحق لما جاءهم اي عن الحق فافهم ذلك ولهذا بعده لو كان اي القران
خيرا ما سبقونا اليه اي بل كنا نحن اولى بالسبق لانا خير منهم

وإذ ولم يقل وإذا لأنه لو قال وإذا لكان الكلام ردا إلا على السابقين إلى الإيمان
وإنما الكلام عن الكفار القائلين ومعناها ولكونهم لم يهتدوا به فافهم
ذلك مثالا مثلا وكذلك لم يقل وإن في موضع وإذ لم يهتدوا به
بالقرآن فسيقولون أي مقالتهم في المستقبل كما هذا إفك قديم أي
هو كان من قبل مختلقا من غيره من البشر فتعلمه هذا وهو معنى إنما يعلمه
بشر والمعنى لو لم يكن إفكا لآمنا به فرد الله عليهم بقوله ومن قبله
كتاب موسى أنزلناه إماما لبني إسرائيل يأتمون به ورحمة وهذا كتاب
مصدق لكتاب موسى لسانا عربيا أي بلسان المراد بلغة لينذر
الذين ظلموا وبشرى للمحسنين لا يناقض قوله إنما تنذر من اتبع
الذكر لأن المعنى إنما تنذر فينتفع إنذارك لمن اتبع لا لغيره وغيره تنذره
فلا يفيده بل ينفع إنذارك له حجة عليه فكأنك لم تنذره فافهم
المعنى جيدا في مثل ذلك ولما قال هاهنا لينذر مدح المؤمنين بعد
فقال إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تقديره لهم البشرى ودل
على ذلك بقوله بالفاء فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون هذه علامة
المستقيم مع الله في إيمانه لأنه لقيامه بالأمر والنهي لا يخاف عليه
من الوقوع في أمر يذهب عنه ما يبقى في الآخرة ولا هو يحزن
من فوات ما يفنى في الدنيا وهذا حاله في الدنيا فافهمه جيدا وافهم
كونه لم يقل لا يخافون بل لا خوف عليهم وزاد قوله هم فهنا لأنه
لا خوف عليهم من جهة الله ولا من جهة الناس ولا من جهة النفس

ولا الشيطان لأنهم استقاموا وانظر كونه لم يقل لا خوف بل بالفاء وإن
كان ما قدمناه حسنا لكن هذا أحسن وذلك لأن الفاء دلت على أن الجملة
في محل الابتداء وهو الموضوع فيكون خبره المحمول عليه أولئك
أصحاب الجنة خالدين نصب على الحال فيها جزاء على المصدر بما
كانوا يعملون ووصينا الإنسان بوالديه حسنا تقدم حملته
أمه كرها ووضعته كرها المراد لأم الحمل ومشقته وأوجاعه
في مدته لا في أوله فقط ولما كان في ذلك مشقة وما أحد إلا يكره
المشقة سماه كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا قيل لأن أقل
مدة الحمل ستة أشهر تضاف إلى حولين هما مدة الرضاعة والأولى
من مفهوم هذه الألفاظ أنه أراد الإشعار بما يلزم عنه بيان الحولين
الغير كاملين وذلك أحد وعشرون شهرا فيقتضي أن يكون من حق
الولد أن يرضع هذا القدر وهذا أحق على الوالدة المطلقة يلزمها
كما بيناه في قوله والوالدات يرضعن ومن أراد أن يتم فليكمل فافهمه
جيدا حتى إذا بلغ أشده وهو الحلم وبلغ أربعين سنة بدأ بما يجب
عليه من حين البلوغ وهو الأشد إلى الأربعين إذ هي نهاية التزيد
في نمو البدن والشباب ودونها لا يكمل العقل ثم بعدها بشرى الضعف
قال رب أوزعني تقدم في النمل أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي
وعلى والدي أراد الإسلام لأنه لما أنعم الله على والديه بالإسلام
أولا كانت النعمة على الولد أخيرا فلزم الولد الشكر على ما أنعم عليه وعلى

والديه وذلك تعليم في معرض الحكاية من حين بلوغ الأشد إلى الأربعين ومن
الأربعين إلى آخر العمر ولهذا كرر لفظة أن بقوله وأن أعمل صالحا ترضاه
وأصلح لي في ذريتي أي واجعل لي في ذريتي صلاحا كما تقول بارك الله لك
في هذا ولا تقول واجعل لي في ذريتي صالحين فيلزم أن لا يكون فيهما غير صالح
ولما كان الكلام الذي يحسن بالمؤمن حين الأشد إلى الأربعين يحسن به
بعد الأربعين وما بعد الأربعين يحسن به قبل أيضا جاء الكلام جملة
فذكر الأشد والأربعين وذكر الكلامين متتابعين ففيهما مفهوم التفصيل
ومفهوم الإجمال إني تبت إليك وإني من المسلمين ثم مدحهم الله
سبحانه ولم يقل ذلك بل أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا
وهم القائلون من حين التكليف إلى الأربعين وبعدها ونتجاوز عن
سيئاتهم في أصحاب الجنة أي هم في جملة أصحاب الجنة وعد نصب
على المصدر الصدق الذي كانوا يوعدون والذي قال لوالديه
أف لكما أتعدانني أن أخرج من القبر حيا وقد خلت القرون من قبلي
وما أحد منهم خرج وهما يستغيثان الله أي أتق الله كما تقول الأسد
أي خف الأسد ويحتمل ما معناه يستغيثان من سوء معاملته لهما
إلى الله فيقولان له ويلك آمن بالقرآن إن وعد الله حق فيقول
ما هذا القرآن إلا أساطير الأولين هذا القول لا يلزم أنه لا يكون
إلا باللسان بل نفس الأفعال يلزم عنها اعتقاد هذه الأقوال واعلم
أنه لما كان المراد ما يستقر في أفهام الخلق من تعظيم الحق ذكر الله

عز وجل البعث الذي هو أبعد ما في العقول وأمر بالإيمان به إعلاما أن
هذا المخلوق من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة حتى يرد إلى أرذل العمر
في مدة مديدة يعيده الله بنفخة من عنده يوم فيقوم الكل أحياء
فلا شك أن القادر المطلق يجب عقلا أن يكون قادرا على هذا فإذا
كان قادرا على الإيجاد بهذه السرعة وقد أوجد أولا على تلك الصورة
المذكورة بالتراخي والتدريج فذلك لحكمة تعود على العباد وليس
إلا التكليف وقيام الحجة عليهم بما يصح في أفهامهم كقوله أولم
نعمركم ثم ليقول لهم يوم القيامة ويوم يعرضون على النار أليس
هذا بالحق أولئك الذين حق عليهم القول في أمم هم في جملة أمم
قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ثم أخبر
الله سبحانه عن الفريقين بقوله ولكل من الفريقين في الجنة والنار
درجات على اختلاف طبقات المؤمنين والكفار مما عملوا فهؤلاء
يصعدون وهؤلاء يهبطون فنفس صعودهم هو المعبر عنه
بالدرجة استعارة وكذلك الآخرون وليوفيهم أعمالهم وهم
لا يظلمون ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم
في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها هذا تصريح منبه على ترك
الملاذ الجسمانية والحظوظ النفسانية نفسا وجسما وعقلا وعزما
فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض
بغير الحق وبما كنتم تفسقون واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف

أرض خلا لها رمل في قول الحسن وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه
يدل على ما ذكرناه من أن المراد بقوله بين يديه ما حضر ومن خلفه ما
غبر ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم اعلم أن زبدة
الحياة وجملة الرسالات ونهاية المطلوب من الأمم في العرب والعجم
ألا تعبدوا إلا الله وعلى هذا المطلب العلي يترتب ساير المصالح وبه
يجري الصالح والطالح ومن رأى الله تدلم كل شيء حجبه عن هواه
ومن رأى هواه حجبه عن الله ولما اختلفت الأهوا تنوعت الالهة
فضرب الله الأمثال لكل عابد هواه في حال من الأحوال فقال قالوا أجئتنا
لتأفكنا لتردنا بالكذب والإفك عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من
الصادقين قال إنما العلم بالوقت الذي يأتيكم به ما وعدتكم عند الله
وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوما تجهلون على أنفسكم باستعجال
العذاب فيوشك أن يعجل لكم فلما رأوه أي العذاب عارضا كالعارض
مستقبل أوديتهم جاءهم من جهة الشمال واستقبل الأودية
فاقتلعهم من مساكنهم ورمى بهم في أوديتهم قالوا هذا عارض
ممطرنا فقال الله بل هو ما استعجلتم به من العذاب وفسر العارض
بقوله ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمرها الله أن تدمر
أي في قوتها ذلك بأمر ربها ولولا الأمر لما قال فأصبحوا لا يرى
إلا مساكنهم لأن المساكن شيء وأراد بذلك أيضا قوة المساكن
وعظمها بحيث أن الريح التي أهلكت السكان لم تنسف المساكن

لقوتها وما هي عليه من الإحكام وفيه إشعار أن مساكنهم لم ترى
الى كذلك أي مدة مملكة ثم قال كذلك نجزي القوم المجرمين
أي إذا شئنا الانتقام منهم في الدنيا لأن القادر على الانتقام من القوي
هو على الضعيف أقدر وهذا بعده ولقد مكناهم فيما إن مكناكم
فيه قوله فيما معناها في الذي وإن ها هنا بمعنى النفي تقول إن فعلت
هذا بدل فليست إن بزائدة ودليله قوله تعالى مكناهم في الأرض
ما لم نمكن لكم وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة أي لتقوم عليهم
الحجة وتتضح لهم المحجة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا
أفئدتهم من شيء يصيبهم من عذاب الله إذ كانوا يجحدون
بآيات الله أي بتصديقها ويلزم أنهم لو لم يجحدوا لأغنى فلما استعملوا
الجوارح المذكورة في غير ما خلقت لهم من أجله ما أغنى عنهم ما
كسبوا بها وحاق وحاط بهم من العذاب ما كانوا به يستهزؤون
ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى أي من كل جانب وهذا يعطي
العموم لكل متملك من أول الزمان إلى ذلك الآن ولما كذبوا وصرفنا
الآيات لهم قبل الإهلاك لعلهم يرجعون وتصريف الآيات
تصييرها تارة في الإعجاز وتارة في الإهلاك وتارة في التذكير بالنعم
وتارة في التخويف بالنقم وهذا التصريف مشتمل على الأقوال والأفعال
منه سبحانه فافقه فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله
ليتقربوا بهم بزعمهم إلى الله قربانا قربا وقربانا كما تقول شكرا

وشكرانا وقوله آلهة اي من الآلهة التي يتقربون بها بل ضلوا عنهم وذلك
افكهم اي هو كذبهم ولهذا لم ينفع ولم ينصر اذ ليسوا في الحقيقة
آلهة بل افكهم هم وما والذي كانوا يفترون منسوق بقوله الذين
اتخذوا من دون الله واخر ليوازن ولما ذكر الموصوفين بالقوة من
الانس قال واذ صرفنا اليك نفرا من الجن فهم مصروفون بامر الله
الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعظيما لقدره عن ان يصرف هو
اليهم وليكون المرسل الى الجن رسلا منهم اليهم صرفوا الى الرسول
يستمعون القرآن واعلم انه اذا غلب على الانسان شيطانه كان
جنيا شيطانا وكذلك اذا غلب عليه صفات القردة والخنازير وغير
ذلك وليس المراد هاهنا ذلك بل الجن المخلوقون لا صفات البشر فلما
حضروه هم من تلقاء انفسهم ولهذا لم يقل فلما احضروا بل اراد
الاعلام بان الله صرفهم لخير اراده بهم والصرف تمييل القلب
الى جهة كقوله صرف الله قلوبهم عن المنافقين واما هؤلاء
فلما صرفوا حضروا القرآن اي حين نزوله وتلاوة الرسول له
قالوا انصتوا لنستمع هذا فلما قضي وحيه اليك واسمعتهم
منه ما اسمعتهم ولوا الى قومهم منذرين لهم بما سمعوه
فهؤلاء هم المبعوثون الى قومهم وبعثتهم لازمة عن صرفهم قالوا
يا قومنا انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى كما تقول مستعظما
اني رايت اليوم سيفا اي يا ما احسنه وما اجوده مصدقا

لما بين يديه وصف له ايضا يهدي الى الحق وصف آيات على ما قالوه
مستحسنين مستعظمين والى طريق مستقيم وصف كذلك
فاعلم انه كان عليه السلام رسولا الى الجن لا بلسانه لكن بالسنة
المستمعين فيصح ان يقال انه رسول اليهم ولكنه عليه الصلاة
والسلام اعلا قدرا فجعل الله الواسطة نفرا منهم اليهم يامرونهم
باتباع النبي عليه السلام ولهذا قالوا لهم يا قومنا اجيبوا داعي
الله وآمنوا به اي بالله لهذا بعده يغفر لكم من ذنوبكم اي ما تقدم
وهذا فايدته من لئلا يلزم غفران ما تاخر فيهما دام الايمان فالمغفرة دايمة
وهذا في الدنيا ويجركم من عذاب اليم في الآخرة ثم قال تعالى ما يحتمل
ان يكون من قول الجن لقومهم وهو قول منه سبحانه للانس والجن
ومن لا يجب داعي الله اي من ساير خلقه فليس بمعجز في الارض
وليس له من دونه اوليا ينصرونه اولئك في ضلال مبين فلما ذكر
سبحانه عظما الانس ثم عظما الجن ذكر ما هو اشد خلقا واعظم صنعا
ابنا عن قدرته على ما هو مستحيل في عقول بعض العباد من امر البعث
والمعاد فقال او لم يروا من رؤية القلب المدلول عليها برؤية العين
ان الله الذي خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن لان الاعيا
من الصانع يوجب تغيرا واختلالا في الصنعة فهيئة السموات
وثباتهما دليل على انه سبحانه وتعالى لم يعي بخلقهن وقوله بالباء بقادر
تقدم الكلام على مثل هذه الباء والمعنى اولم يروا ان من قدر على ان

تخلو ابدا اهذا الشيء العظيم احق بالقدرة على ان يحيي الموتى بلى انه على
كل شيء قدير ويوم يعرض الذين كفروا على النار اليس هذا الجزاء
والعذاب بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون
ولما تحققت القدرة وقامت الحجة في الافهام بهذا الكلام خاطب
النبي عليه السلام فقال له بالفاء اي واذ ظهر الحق ولزم فاصبر
على تكذيبهم واذاهم كما صبر اولوا العزم من الرسل والمخصص منهم
بالذكر لعظم قدره هو ما قاله تعالى في الاية انا اوحينا اليك كما اوحينا
الى نوح وتمام الاية والمقصود قوم كان لهم عزم على امضاء ما امروا
به فصبروا على ما كذبوا واوذوا ولا تستعجل لهم بالعذاب كما استعجلوا
لانفسهم من قبلهم فالامر قريب كانهم يوم يرون ما يوعدون لم
يلبثوا في ملاذهم ودنياهم وقبورهم الا ساعة من نهار ثم قال تعالى
بلاغ اي هذا بلاغ للناس كما تقول نداء يا قوم فهل يهلك الا القوم الفاسقون

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

بسم الله الرحمن الرحيم الذين كفروا وصدوا عن سبيل
الله اضل اعمالهم عن سبيل الله والمراد انه عاقبهم في الدنيا على الذنوب
بالطبع على القلوب لما كانت الذنوب كفرا فلم يمكنهم من عمل يثوب به
عليهم فاضلهم في اعمالهم ومثل ذلك في اقوالهم كقوله وما دعاء الكافرين
الا في ضلال والذين امنوا وعملوا الصالحات وامنوا بما نزل على
محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم واصلح بالهم هذا

هو

هو المحكم الذي من رعاه لا يحتاج معه الى سواه في نفي الجبر وتحقيق الكسب
الكسب وعدل الرب واعتقاد ان الله تعالى انما يضل عقابا لمن كفر هو
من نفسه فان الانسان قد مكن فمن شاء فليؤمن ومن كفر بعد ما تبين
له الهدى اضله الله عقابا له ابدا ثم زاد هذا التعريف بيانا بالتعليل
فقال ذلك بان اي بالسبب اي بسبب ان الذين كفروا اتبعوا الباطل
وان الذين امنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس
اي لجميعهم امثالهم اي المضروبة لهم في جميع القران فلما تحقق
العدل من الله وحق على الكافر الضلال والقتال تميله الى هواه قال بالفاء
ما معناه واذ قد ثبت ذلك الاضلال بحق فاذا لقيتم الذين كفروا
فضرب مصدر منصوب بالامر حذف فعله لاضافته الى الرقاب
حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق يقال اثخنه بالضرب اذا
بالغ في ضربه كانه صار ثخينا وهي استعارة تدل على العجز ولهذا قال
عن الجميع اثخنتموهم فبعد هذا اشدوا الوثاق اوثقه بالحبل اذا
كتفه وكانه جعله على ثقة من نفسه بالعجز لا يظن غير ذلك والمعنى
انهم امروا بالقتل اولا الى ان يثخنوا ثم بعد ذلك لهم ان ياسروا ولان
المقاتل اذا اسر خصمه اولا اشتغل به عن مقاتلة اخر فهو كقوله
تعالى ما كان لنبي ان يكون له اسرى الاية ولما فهم الحسن وعطاء وعمر
بن عبد العزيز هاتين الايتين قالوا ليست هذه ها هنا منسوخة
بتلك وخالف غيرهم لانه لم يفهم ما ازال المناقضة واذا لم تكن مناقضة

فلا نسخ فاما منا بعد اى اطلاق لتظهر القدرة والغلبة التامة وتحكم
بهم بما من يلتمس عليها بالتأمل واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها
اى تجوز الاسر حينئذ ومعنى تضع الحرب اى رجال الحرب اثقالهم
من السلاح اى فضرب الرقاب الى ان تضع الحماة الاسلحة بمعنى حتى
يكفوا القتال والاولى انه توسع في العبارة بمعنى حتى يرمى القتال ثقله
عنكم اى اذا قتلتم واسرتم زال ما يثقل عليكم من حرب الاعداء
من اجل طمانينة قلوبكم بكسر العدو وتكون حتى تعليلا للحكم بمعنى
لاجل ولهذا اخر قوله حتى الثانية واما الاولى ففى معنى الى ان ويكون
المراد مطلق الكفار في بقية البلاد لا هاولاء المحاربين فقط لانه متى
قتل بعض الكفار ضعف الباقون ممن في عزمهم المحاربة فزال اثقال
الحرب وان لم تبطل الحرب جملة وهذا ايضا فائدة تاخير الكلام وان
كان الاول حسنا ذلك معناها تثبيت لما تقدم من الخبر ومثله
كذلك واورثناها بني اسرائيل فذلك فهذا نقيضان للاول واما كذلك
فهى نقيض لكلا ولو يشاء الله لانتصر منهم بغير قتال منكم لهم ولكن
ليبلو بعضكم ببعض اى ليختبر المومنين بالكفار والكفار بالمومنين
ولو قال بعضهم لكان الاختبار للمومنين بالكفار فقط والذين
قاتلوا في سبيل الله فلن يضل اعمالهم اى قاتلوا فقط سواء قتلوا او
قتلوا كسروا او كسروا سيهديهم ويصلح بالهم في الدنيا
ويدخلهم الجنة عرفها لهم من العرف وهو الطيب والرائحة التي

تقبلها النفس تقبل ما تعرفه ولا تنكره يقال لها عرف يا ايها الذين امنوا
ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم في الحرب والقيامة فان
حاجتهم الى التثبيت اشد والذين كفروا فتعسا لهم دعاء قدم ليتاخر هنالك
الاخبار للوزان بقوله واضل اعمالهم والمعنى والذين كفروا واضل الله
اعمالهم بكفرهم فلهم التعس وزاد الفاء لينبه على الدعاء عليهم لا على الاخبار
عنهم ذلك بانهم كرهوا ما انزل الله فاحبط اعمالهم افلم يسيروا
في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم
اى ضرب الهلاك عليهم فاحاط بهم وللكافرين بالقران امثالها
امثال تلك العاقبة في الدنيا والاخرة ذلك الجزاء بان الله مولى الذين
امنوا هو سبحانه مولى الكل ولكن لما لم يتخذه الكفار مولى قال تعالى
وان الكافرين لا مولى لهم اى في اعتقادهم وفي مدلول اعمالهم وهذا
من ابلغ ما دفع به الجبر لان الله مع كل انسان ولا ينفع كون الله مع
الانسان اذا لم يكن الانسان مع الله فان فعل الرب لا يكون فعلا للعبد
فلا يعود عليه سعى غيره وان ليس للانسان الا ما سعى وتمامه الى
قوله الاول في ان الله يدخل الذين امنوا وعملوا الصالحات جنات
تجري من تحتها الانهار وقوله والذين كفروا يتمتعون بالمنكوح
والملبوس وغيره من متاع الحياة الدنيا وياكلون كما تاكل الانعام
غير الاكل لانه مرض يعتاد في كل يوم وهو الابتلاء الاشد لان الافات
منه كثيرة وكفى به انه سقطه ادم وابلغ الوصية في امره قوله

ولا تشربوا ففي ذلك جماع خيرات المعاش والمعاد ومن حفظ بطنه حفظ
الله عليه قلبه ومن حفظ قلبه ولم يحفظ بطنه رجع إلى صفات الأنعام
واستولت عليه لوازم الطعام من الهم والكسل والنوم وغير ذلك
مضافا إلى ما يتوقع له من الأسقام والنار مثوى لهم وكأين من
قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا
ناصر لهم أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله
واتبعوا أهواءهم ثم ضرب المثل بأتم صورة محبوبة في الدنيا
الفانية فوعد به في الآخرة الباقية وجاء هذا الوعد بما يؤكل عقيب
ذكر الوعيد المقدم بعد قوله ويأكلون كما تأكل الأنعام فقال مثل
الجنة أي لذاتها وحقيقتها الآن ذلك مما لا تعلمه نفس ولا يمثله
عقل وإن من ذاق المحبة فأراد أن يمثل لغيره ما ذاقه بنفسه كان
ذلك أبعد ممن رام أن يبين للأكمه الفرق بين الألوان وهذا مما
لا يدرك بالأذهان وإنما يعرفه بحسبه كل إنسان وإذا عز إدراك
المحبة في الدنيا مع تخصيصها بأحد الفانيات فما ظنك بدار فيها
سائر المحبوبات على أكمل الصفات الباقيات ولما كان قوله تعالى لهم
ما يشاؤن فيها نهاية ما يتوقعه العبيد قال بعده مما لا يعلم فيطلب
ولدينا مزيد ورفع بما تقديره وهذا مثل الجنة التي وعد المتقون مثل
فيها أي هذا من جملة ما فيها أنهار من ماء غير آسن متغير
بدأ بالماء لأنه أصل الحياة ومعدن الخيرات والبركات وأنهار من

لبن لم يتغير طعمه إنما ذكره بعد الماء لأنه يشرب ويؤكل ولأنه
مبدأ في تغذية كل إنسان وحيوان وأنهار من خمر لذة للشاربين
قوله لذة يعود على سائر الأنهار المذكورة ولهذا تلاذ لك بعضه ببعض
لأنه مما يشرب فقال للشاربين ثم قال وأنهار من عسل مصفى
من سائر الأكدار والأذى ولهم فيها من كل الثمرات من هاهنا
لتبيين الجنس ومغفرة من ربهم ذكر المغفرة بعد الثمار لأنها
ثمرة الأعمال الصالحات ثم قال ما تقديره أمن هو خالد في هذه الجنة
كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم فسبحان
من خاطبنا بالأمثال ليدلنا على الغائب عندنا بالحاضر عندنا
فالأسماء متفقة للدلالة والحقائق مختلفة ولولا ذلك لما بقي في النار
شيء من شجرة الزقوم ولا من السلاسل والأغلال وغير ذلك بل
كانت النار تأكله جميعه وما في الجنة من فرشها وأشجارها وأنهارها
كذلك ثم قال تعالى بعد تمام المثلين ومنهم من يستمع إليك حتى إذا
خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم وهم المؤمنون عن علم
ماذا قال آنفا أي حين كان مبتدئا تقول استأنفت الأمر إذا ابتدأته
من أوله ومنه الأنف لأنه أول ما يبدو من الوجه لبروزه وأنف
الجبل أعلاه فهؤلاء لما حضروا بالأبدان كانت قلوبهم مشغولة
عن كلام النبي صلى الله عليه وسلم فسؤالهم دل على حالهم فهم
لم يحفظوه ولم يفقهوه ويحتمل أن يكون معنى قوله آنفا من أنف

يا نفا أي استنكف ومثل أنفه فقالوا ماذا قال آنفا أن يعبد آلهتكم وهذا
القول منهم بصورة الاستخفاف والقدح ولهذا لم يقل سألوا
أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم أي مستمرين
على اتباع الأهواء مجبرين على ذلك عقابا لهم على وصفهم أولا بمثله أخيرا
إلى يوم القيامة والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم
كان الهدى إلى القرآن سببا لإتيان التقوى المؤدية إلى الجنان بعد
زيادة الهدى من لدن الرحمن فأفقه كون الأمر كله إلى الإنسان
وهو البادي بأفعاله بإذن الله وعلى هذا الابتداء يكون سائر الجزاء
فهل ينظرون هؤلاء بمعنى ينتظرون إلا الساعة أن تقديره إلا أن
تأتيهم الساعة ولما لم يكن هذا من اختيارهم بل هم في الحقيقة كذلك
غير اللفظ في مواضعه لتغير المعنى تأتيهم الساعة بغتة فقد جاء
أشراطها علاماتها وهو النبي والكتاب فأنى لهم ذكراهم إذا جاءتهم
الساعة وأخر ذكراهم للوزان وهو كقوله يومئذ يتذكر
الإنسان وأنى له الذكرى والمعنى من أين لهم في ذلك الوقت ما كانوا
يدعون إليه من إيمان وتوبة وعمل يجوز به فإنه لا يقبل إذا جاءت فاعلم أنه
لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم
تقلبات الإنسان وتحركه في سائر ما يتقلب فيه من نوم وسفر وصلاة
ومعايش وغير ذلك لكنه يدل على حركة ومثواكم يدل على سكون
والإنسان لا ينفك من أحد هاتين الصورتين ويقول الذين آمنوا

بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم فهم مؤمنون بزعمهم ودعواهم وهذا
القول منهم هو إذا أمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقتال والأولى
أن قوله ويقول الذين آمنوا هو من كلام المؤمنين لا من كلام المنافقين
لأن المؤمنين كانوا ينتظرون ما ينزله الله من الأمر بالقتال فهم كانوا
يقولون لولا هلا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة أي
ليس فيها متشابه بل كهذه السورة وذكر فيها القتال رأيت الذين
في قلوبهم مرض وإن لم يكونوا ممن قال لولا نزلت سورة مع جواز
أن يكون القول منهم أيضا كما تقدم ينظرون إليك نظر المغشي عليه
من الموت فأولى لهم بمعنى فالويل لهم وهو قوله أولى لك فأولى والمعنى
إذا ذكر القتال فالويل لهم طاعة أي تصير الويل في قلوبهم وألسنتهم
هو الطاعة لأنهم يقولون ذلك ولا يفعلونه عند العزم فقولهم
طاعة وقول معروف هو الويل لهم لأنهم يكذبون عند العزم
فإذا عزم الأمر تخلفوا أي أمر الحرب إذا اشتد ووقع الأمر الذي
له يجب أن يعزم أولوا العزم وأضاف العزم فجعله صفة للأمر
كما تقول إذا اشتد الأمر وهو استعارة بمعنى فإذا عزم أصحاب
الأمر عليه وهذا كثير في كلام العرب فلو صدقوا الله فيما قالوه
للنبي صلى الله عليه وسلم من الطاعة والقول المعروف وقاتلوا
معه لكان خيرا لهم من قعودهم عنه لتصدق أقوالهم أفعالهم
والمعنى أنهم مع كونهم منافقين فالموت مع الصدق لهم خير من

الحياة مع الكذب لهذا قال لهم والكلام كله عن الذين في قلوبهم مرض ولهذا
بعده فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم
تقول عسى أن أفعل كيت وكيت بمعنى لعل وربما وهي كالظن والمعنى
هل ظننتم إن توليتم عن الداعي أنكم تفسدون في الأرض وتقطعون
الأرحام ولا تجازون على ذلك وقوله توليتم أي معرضين عما أمرناكم
به في السورة المنزلة المحكمة من الحرب ثم قدم قوله هل يسألهم
عن ذلك وكل عنى بلفظ الفراد خبر وبلفظ الجمع استخبار واستفهام
ولهذا تأتي مع هل بصورة الإنكار عليهم والتوبيخ لهم في معرض السؤال
فافهم ذلك وقف مع المعنى لتفهم به العبارة ثم تنقاد بها إلى ما
قصد بها من المعنى الذي لا تخرج عنها كما تخرج معنى المثل المفهوم
لك من كلامي فإني إنما أزيد اللفظ وأنقصه وأغيره وأقلبه لأفهمك
المعنى المشار إليه بلفظ القرآن فلا تترك لفظ القرآن وتفهم
من لفظي خلافه فإذا أدمنت النظر والتفكر متأملا واقفا مع نفس
العبارة المدلول بها من القرآن على معنى ما قلته لك بلفظي فهمت إن
شاء الله تعالى ثم قال عن الموصوفين بتلك الصفات أولئك الذين
لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم عقابا لهم فالجارحة على حالها
ولكنه تعالى أصمهم عن سماع الموعظة وأعمى أبصارهم عن رؤية
الآيات ثم عاتبهم لم لا يتدبرون القرآن قبل العقاب إذ لو تأملوا
وتدبروا لما عاقبهم فكان هذا الإخبار عنهم مانعا لغيرهم عن مثل

ما حل بهم إن آمن وتدبر أو منعا لوقوع ما حل بهم إن أعرض وتكبر فقال
أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ولم يقل أقفال بل أراد أنها
هي قفلت أقفالها عليها بإعراضها عن التدبر إلى التكبر فهي أقفال قلبية
لما انقلبت القلوب عن تدبر ما أنزل إليها عادت لها أقفال كالختم والطبع
عليها فهي أقفال قلوب انقفلت فلم يدخل إليها إيمان ولم يخرج منها الكفر وهذا
العتاب يدل على أن الأمر بالعكس مما ظننته المجبرة وأنه يمكنهم التدبر
والفهم وأن القلوب ليس عليها قفل من حين خلقت يمنعها عن التدبر
ولكنها هي أوجبت ذلك فالأقفال أقفالها فهي معاقبة بها وإن كان
العقاب من باريها فهي لما عصت وضلت بأهوائها عاقبها الله بذلك
عدلا منه لأنه تعالى هداهم فاستحبوا العمى على الهدى وهذا العقاب
بالعدل هو منبئ عن غاية الفضل لأن المحسن المطلق أخبر عن نفسه
أنه أباح عباده وأمرهم بما طلبوه منه ولو كان مطلوبهم الحرمان
والخلود في النيران فكيف إذا طلبوا الإيمان والخلود في الجنان وإذا
أعطاهم ما سألوه مما لا يريده لهم ولا يرضاه فكيف لا يعطيهم ما
سألوه مما يريده لهم ويرضاه من الإيمان واليسر دون الكفر والعسر
وقد بينا في عدة مواضع أنه مكنهم من الشيء وضده ليرتقوا بالإحسان
كثر ترقيهم بالاكتساب وهذا هو غاية الفضل من الكريم الوهاب وفي
هذه الآية دليل على أن الله أمر بالتدبر في آيات القرآن ولم يأمر
بالتقليد لأنه تعالى دعا إلى التدبر وذلك مناف للتعامي والتجاهل وإن

زعم الخصم انه لا يفهم العربية وانه لا يقدر ان يتدبر القرآن فيحتاج
حينئذ الى التقليد فهذا ان كان صادقا فيه فلا ينبغي له ان يعمى عن الجميع
فلا ينظر في معنى قل او جل ابدا ولا يجوز له ان يترك التعلم والنظر فيما
تعلمه فذلك اعراض وحجة بالباطل وصرف صرفه الله عن النظر
والتأمل كما صرف قلبه اولا عنهما فكان فعل الله به تابعا لفعله بنفسه
سيجزيهم وصفهم واذ قد فهمت ان الاقفال التي على القلوب ليست
من حديد ونحاس او غير ذلك بل اقفال معنوية وقد بان لك هذا في
الدنيا مع وجود الاجسام وتحققت انه لم يرد الا معاني الاقفال
لا صورها الجسمية فما بالك لا تجعل ذلك مثالا لا تفهم به الجنة والنار
والسلاسل والاغلال وتبديل الجلود وغيره مما تعارض به ولا تفهمه
الا ان نعيمه اجساما مثل هذه الاجسام الفانية في دار غير باقية
فافقه هذا ولا تفهم من كلامي اني اريد بعث الارواح دون الاجسام
ليس كذلك بل المراد ان جميع ما في الجنة ليس يشبهه في الحقيقة
شيء من الفاني وانما ضرب بالفاني مثل للباقي فافهم هذا ولا تفهم عني
بل افهم ان الله تعالى يبعث الاجساد ويحيي هذه العظام بعينها
في نفخة كما خلقها اولا في مرة فيعيدها كما بدأها اول مرة وتبقى الاجساد
غير فانية ابدا لان القادر المطلق لا يعجزه شيء وقد رأينا في هذه الدار
الدنيا طيرا يعرف بالسمندل يبيض ويفرخ في النار ولا تؤثر
النار ايضا في ريشه بعد مفارقة الريش للطاير والذي يقدر على

ان يخلق مخلوقا لا تؤثر فيه النار في الدنيا فهو يفعل ما يشاء فان قلت ما
فايدة البعث بالابدان قلنا يلزم انا لا نؤمن الا بما نعلم من القرآن بل نؤمن
بما نعلم حكمته وبما لا نعلم والا عاد الايمان نقصا لانه يعود ايماننا
بحسب علمنا لا بحسب علمه سبحانه على ان الله قد بين في كتابه من
حكمة البعث ما فيه كفاية لمن وعى اما في الكفار فقوله تعالى ليبين لهم
الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا انهم كانوا كاذبين واما في
المؤمنين فكقوله تعالى لابراهيم اولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي
ولا شك ان طمانينة القلب معنى زايد على الايمان وذلك بما يستقر
في القلب من جهة العيان عيانا فوق ما تقدم به الايمان فهذا مفهوم
من النص واما ما نفهمه من العقل فهو ينقسم الى قسمين احدهما ما هو
من جهة الرب والاخر ما هو من جهة العبد فاما الذي من
جهة الرب فهو غاية التعظيم واما الذي من جهة العبد فهو
ابلغ ما اهين به المهين واكرم به الكريم وايضاح ذلك من جهة الرب
سبحانه انه من ابلغ ما تقضي به العقول لمن له الخلق والامر ان يخلق
فانيا وباقيا كالاجسام والارواح ثم يستخدم الاجسام الفانية
للارواح الباقية ثم يذهب الفاني ويبقي الباقي ثم يعيد ما اذهبه
من الفاني كما كان بعد تكوينه اولا في مدة من الزمان فيعيد الارواح
الى الصور بنفخة واحدة كلمح بالبصر ثم يبقى ذلك الفاني المعاد باقيا
سرمدا الى ابد الاباد وهذا بلا شك من اعظم ما يستقر به عظم

القدرة في افهام العباد ولا يحجره الا ذو جهل او عناد فهذا ما قدمناه
من جهة الرب واما ما هو من جهة العبد فلا شك ان المعذب هو
النفس ولكن اذا كان لها عذاب بواسطة الجسم وعذاب بغير واسطة
كان ذلك ابلغ من ان يكون باحد الصورتين وكذلك الكلام في المومنين
لكن هاهنا معنى يجب ان تلحظه لتعلم مقصودي من الكلام على التمام
فيزول الاشكال الذي قد يقع في بعض الاذهان فيتوهم اني اريد بعث
الارواح دون الابدان وليس كذلك بل اعلم ان الكفار في جهنم
لا تزال ابدانهم على حالها كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها
وعلله بقوله ليذوقوا العذاب اعني اصحاب الجلود ولهذا لم يقل
لتذوق الجلود فهم لا يفارقون الجسم في الاخرة وهذا من ابلغ
العذاب كونهم سجنوا في دار البقاء في هيكل الفناء ولا يفنى كقوله
لا يموت فيها ولا يحيى واما المومنون فانهم يخلعون الاجساد متى
شاؤا ويلبسونها ويلبسون غيرها وغير ذلك ولا يذوقون فيها
الموت فلهم قدرة بالابدان على الملاذ البدنية كلها لكنها لذة لا
تفنى بل تبقى مهما شاؤا لتكون قدرة الله عندهم اشمل ويصح
قوله كما بدانا اول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ولهم بعد
ذلك قدرة على خلع الابدان وادراك ما لا عين رات ولا
اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وقد نطق الكتاب بالصورتين
اما الاولى فظاهر واما الثانية فكقوله ولهم فيها ما يدعون

وهذا في المفهوم من اعم العموم واما ما هو فوق المفهوم فهو قوله تعالى فلا
تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين فاذا سمعت من كلامي ما يسوقك الى
رفض الاشباح وتجريد الارواح في عالم البقاء فاعلم ان مرادي هذا
فان انكرت ما اقوله فافقه قوله تعالى يومنون بالغيب وقد علمت
ان علوم العلماء ومعارف العارفين باسرهم ليست غيبا ولهذا لم
يقل يعلمون الغيب بل يومنون فالاعمال كلها مجتنبة الا ما اتصل
بالعلم والعلوم كلها مجتنبة الا ما اتصل بالمعرفة والمعارف كلها مجتنبة
الا ما اتصل بالايمان والايمان كله مجتنب الا ما اتصل بالغيب والانسان
هو القايم بين الغيب والشهادة فمهما توجه الى الغيب فليس الا
الايمان ومهما توجه الى الشهادة فليس الا العبادة فاما عبادة الرحمن
واما عبادة الشيطان ولما كان سوس الانسان وجوهره الظاهر
في الاكوان ليس الا الاختيار وعن ذلك الاختيار تكون الجنة او النار
هدي بالعقول والرسول ومكن من المخالفة والقبول فبالمخالفة يكون شيطانيا
باختياره وبالقبول يكون ربانيا باختياره ان الذين ارتدوا على
ادبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم واملى لهم
اي مد لهم في الامل ذلك التسويل بانهم بسبب انهم قالوا للذين
كرهوا ما نزل الله في السورة المحكمة من الامر بالقتال سنطيعكم في بعض
الامر قالوا لهم ذلك سرا سواء كان القول لفظا او عزما فمن هاهنا
حكم عليهم الشيطان والله يعلم اسرارهم فكيف يكون حالهم

إذا توفتهم الملائكة في الحرب وهو مطلق أيضا يضربون وجوههم وأدبارهم
بأيدي المؤمنين في الحرب وبأيدي الملائكة في غير الحرب ذلك بأنهم
اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم الصالحة
التي عملوها في الإسلام أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج
الله أضغانهم اعتقادهم على الله يخرجها من قلوبهم بالابتلاء والامتحان
ويريها لرسوله وللمؤمنين ويريها أيضا لئلا يكون الله عندهم
ظالما لهم في الجزاء فافقه هذا جيدا ولو نشاء لأريناكهم بغير امتحان
منا لهم فلعرفتهم بسيماهم بعلاماتهم الظاهرة ولتعرفنهم في
لحن القول فمن ذلك أنهم يقولون طاعة ويفعلون ضدها والله يعلم
أعمالكم من قبل أن تبدو منكم ولنبلونكم أجمعين حتى نعلم المجاهدين
منكم والصابرين وقوله ونبلو أي ونعلم وهي معطوفة على حتى
وغير العبارة لئلا يتكرر اللفظ فكأنه قال ولنختبرنكم حتى نعلم بالاختبار
المجاهدين منكم ونعلم الصابرين وحتى نعلم أخباركم كلها أي سرائركم
وقضايا بواطنكم وخفايا قلوبكم فلا تظنوا أن الاختبار هو للذين
في قلوبهم مرض فقط بل للكل فهذه الآية منسوقة بما تقدم قبلها
وهو قوله أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله
أضغانهم بالابتلاء ثم قال وليس الابتلاء مقصورا على أولئك فقط
بل على المجاهدين والصابرين أيضا ولما كانت هذه اللفظة أعني
قوله ونبلو أخباركم يعبر بها تارة عن الاختبار وتارة عن العلم

وقع الاشتباه عند من اعتقد أنها هاهنا بمعنى الاختبار أعني الامتحان فأما إذا فهمها
بمعنى العلم زال ذلك والدليل على أنها بمعنى العلم هاهنا قوله تعالى هنالك تبلوا
كل نفس ما أسلفت أي تخبر ومعنى تخبر أي تعلم علم الخبير ولقد تعبت في
هذه الكلمة سنين لا أفهم كيف يجوز الامتحان للأخبار ولهذا قرأ بعضهم
ونبلوا أخباركم وهو جمع خبير فزال الإشكال بتلك القراءة وأما بهذه
فزواله بما قلناه فلم يقل ولنبلونكم حتى نبلو بل حتى نعلم وكذلك لم يقل
يقل حتى نعلم المجاهدين ونعلم أخباركم لئلا يتكرر اللفظ وإن كان
المراد واحدا وهو العلم فصار معنى الآية بمقدرها ولنختبرنكم بالامتحان
حتى نعلم المجاهدين منكم وحتى نعلم الصابرين وحتى نخبر أخباركم
كلها فنعلمها علم الخبير بها فنجزيكم بما تستحقونه مما تبدونه أو
تخفونه والمراد بقوله حتى نعلم أي حتى نعلم من نعاقبه أن عقابنا
ليس عن ظلم كما بينا في لفظة نعلم ولما كان قوله هاهنا ولنبلونكم يعطي
أن أعمال العباد عائدة عليهم والله غني عنهم جاء الكلام منطبقا
على قوله تعالى بعد الامتحان إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل
الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا
الله شيئا وسيحبط أعمالهم إن لم يتوبوا ولهذا بعده يا أيها
الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول أي إذا دعاكم لما يحييكم
في الآخرة وهو الموت في الجهاد فهذا خاصة هاهنا وإن احتمل
الإطلاق ولا تبطلوا أعمالكم بالشقاق يقال بطل العمارة مثلا

إذا عمر البعض وبطل الباقي وأبطل الأمر إذا نقضه وغيّره جملة فالمقصود
هاهنا إبطال جميع ما عملوه وهو معنى الإحباط لا ترك ما هم عاملوه مع
بقاء ما عملوا من قبل لأن الأعمال لا تنفعهم إلا مع الطاعة وفي قوله ولا
تبطلوا أعمالكم كفاية في دفع الجبر ولما كان هؤلاء قد يتوبون وقد
يموتون على كفرهم قال بعده إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم
ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم وهؤلاء هم المذكورون في أول
السورة فضرب بهم مثلا وعرّفنا أنهم بعد أن عاقبهم بأن أضل أعمالهم يمكنهم
أن يستدركوا ويتوبوا ولهذا لم يقل أضلهم بل أضل أعمالهم لأن أعمالهم عادت في
ضلال فلهذا قال عنهم وسيحبط أي إن لم يتوبوا فهذا كله عن قوم من
المسلمين مخاطبين بقوله يا أيها الذين آمنوا ولكنهم قالوا للذين كرهوا ما نزّل
الله في أمر القتال سنطيعكم في بعض الأمر فافهمه هذا كله جيدا ولما قدم
قوله تعالى إن تنصروا الله ينصركم وذكر أحوال من نكل عن القتال قال
ما معناه إذا ارتد هؤلاء على أدبارهم فلا تهنوا أيها المؤمنون وهو من
الوهن وقد تقدم تصريفه أي فلا تظنوا بأنفسكم وهنا بارتداد من ارتد
وتدعوا إلى السلم من دعاكم الرسول إلى محاربته وأنتم الأعلون
والله معكم ولن يتركم ينقصكم وتر يتر كوعد يعد يقال وتره حقه
إذا نقصه وبخسه ومنه قوله عليه السلام إن الذي تفوته صلاة
العصر كأنما وتر أهله وماله أي ذهب بهما وقوله ولن يتركم أعمالكم
أي من أعمالكم شيئا فالنصب على تقدير من المحذوفة ثم أخبر سبحانه

إخبارا عاما وإن كان هاهنا إشارة إلى الترغيب في الجهاد لأن فيه الحياة
الأخرى فقال إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وإن تؤمنوا بالله وتتقوا
مخالفته يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم أي كلها ولا يلزم أن لا
يسأل بعضها فبينه بعده بقوله إن يسألكموها أي كلها وهو معنى فيحفكم
أي فيستقصي أخذ الكل ولهذا قابلها بالفاء وليست جواب الشرط بل جوابه
تبخلوا ولهذا جاء مجزوما وكذلك المعطوف عليه وهو قوله ويخرج
أضغانكم أحقاد قلوبكم بالاستقصاء والحفي هو المستقصي في السؤال
ثم قال ما يدلهم على مثل هذا الحال ها أنتم يا هؤلاء تدعون
لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل أي ومنكم من يعطي وهو الأقل
فلهذا أضمره وأظهر الأكثر فقال ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه عن
بمعنى على هاهنا تقول بخلت عن ضيافة زيد أي عليه فامتنعت أن
تضيفه والله الغني يستحيل أن يكون الغنيان كل منهما مستغن على
الإطلاق فإن المستغني على الإطلاق لا يستغني عنه بل منه فانظر ما أحسن
هذا وأنتم الفقراء على الإطلاق وذلك أن الإنسان ممكن والممكن فقير
إلى مرجح مخرج له من الإمكان إلى الوجوب وافتقاره من جهة تردده
بين طرفي العدم والوجود وهما المستحيل والواجب ولهذا كان
التغير دليل الحدث لأنه يستدعي مغيرا فإذا كان المغير غنيا
بذاته من قبل ومن بعد والمغير فقيرا بذاته من قبل ومن بعد فالله

غني على الاطلاق والانسان فقير على الاطلاق وان تتولوا عن الجهاد
ويحتمل الاطلاق اي عن الامر والنهي يستبدل قوما غيركم كقوله
يحبهم ويحبونه فلا يشاقونه ثم لا يكونوا امثالكم بل خيرا منكم فانهم
ان كانوا امثالا لكم فليس للاستبدال فايدة بل يجب ان يستبدل بهم
قوما غيرهم ايضا الى ان ياتي قوم ليسوا بامثالكم في التولي واعلم ان
الجهاد الظاهر يفهم به مثله في الجهاد الاكبر الباطن وقد علمت
قبل من الاعداء فافقه المراد وجاهد باجتهاد والله بصير بالعباد

سورة الفتح

آيه ٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم انا فتحنا لك فتحا مبينا يبين
لك صدق الوعد بما ذكر هاهنا من المغفرة وتمام الاية وبما في اخر
السورة بقوله لقد صدق الله رسوله والفتح هاهنا هو قوله فجعل
من دون ذلك فتحا قريبا ولهذا نسبه سبحانه الى نفسه اولا واخيرا
وقوله ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك اي قبل الفتح وما تاخر
الى اخر العمر واللام في ليغفر لام العاقبة والصيرورة وليست لام
كي لان المغفرة لا تتعلق بالفتح ولهذا قيل ان الفتح يريد به ما فتحه
الله من القران وان المعنى في قوله ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما
تاخر اي باتباعك له ويكون المراد بالخطاب الخاص به عليه السلام
عاما للامة فهذا وان كان جايزا لكونه صحيحا في نفسه لكن مراد

الاية هو الاول والله اعلم ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما
وهذه المواعيد كلها قد جعل الفتح سببا لها على القول الثاني وعلامة
تدل على صدق الوعد على القول الاول ثم قال اخيرا وينصرك الله
نصرا عزيزا يعزك به فلا تذل ابدا وهذا النصر على الاعداء يلزم عنه
فتح البلاد في المستقبل واعلم ان من زعم ان الانبيا معصومون
فقد نقصهم بما به رام ان يمدحهم لكنهم معصومون من الكذب
خاصة وقد جا القران بذكر الذنوب وذكر المغفرة التي لا تكون
الا لذنب وهذا مما لا يدفع نصا واما ما لا يدفع عقلا فلا شك ان
من لو اراد الخطا لم يقدر عليه لا يكون ممدوحا بتركه وانما الممدوح
هو من يقدر ويصبر ولا يفعل بل يقهر نفسه فيكون ذا حياة
والا فهو شجرة او موات خلق على صورة لا يستطيع الانتقال عنها
فهو كالمطبوع وذلك ليس بانسان ولكن قد يقال هنا معنيان كما
قدمنا في غير هذا الموضع احدهما ان الانبيا معصومون من جهة
انفسهم لا من جهة تهم فلما كان النبي قد سلك من الخيرات التي
امر الله بسلوكها ما صار طبعا له بحيث لو اراد تغييره لم يقدر
عليه كان حكمه حكم المجبر المعصوم والثاني انه لما كان ذكر
المغفرة يستلزم الاتيان بالذنب وقدم ذكر المغفرة لزم
ان لا ذنب فيكون الباري تعالى قد غفر له ما تقدم قبل النبوة
وغفر له في علمه الازلي ما يمكن وقوعه وان لم يقع والله اعلم وما

كان هذا الإخبار بعد الفتح قد أنزله الله على قلب النبي عليه السلام
وجعله له خاصة قال بعده ما أنزل على قلوب المؤمنين هو الذي
أنزل السكينة فعيلة من سكن يسكن وهذه اللفظة جاءت بعينها
في العبرانية وهي تدل على ما يعتري القلب من النبي عند نزول الوحي
من السكون والطمأنينة وكان إذا اعترى نبي ذلك الزمان غشية
عن الحس فسكنت جوارحه يقال جاءته السكينة وليس المراد بها
سكون البدن بل السكينة للنفوس كالسكون للأبدان وإنما أنزل
الله السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ثم قال
ولله جنود السموات ممن فيها من ملائكة وغيرها والأرض ممن
في الأرض أي يفعل ما يشاء ويأمر وينزل بحسب العلم السابق والحكمة
الكاملة وكان الله عليما حكيما والمعنى أنه سبحانه لو شاء لنصركم
بالجنود ولكنه أراد تكليفكم الجهاد للثواب ليدخل المؤمنين والمؤمنات
جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم
وكان ذلك عند الله فوزا عظيما ويعذب المنافقين والمنافقات
والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء معلوم من قوله بل
ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وتمامه كما
سيأتي لأنهم إذا ظنوا ذلك بالمؤمنين فهو ظن بالله لأن الله وعد
المؤمنين بالنصر ويدخل في ظن السوء ما تعتقده المجبرة من ظنهم
السوء بالله كقولهم لو شاء الله ما أشركنا عليهم دائرة السوء

عليهم

عليهم وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا
إنما جاء هذا الدعاء بلفظ الماضي إخبارا بأن الغضب واللعنة عليهم من
الأزل علما بما سيكون منهم من العمل وإن كانوا إنما يستحقونها في مواقيتها
ثم قال ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما
من الحكم بما يقتضيها والوجه في إعادة ذكر الجنود أن الأول للمؤمنين ذكرهم
عند إنزال السكينة وهاهنا عند غلب الكفار والمنافقين ونصر
الرسول وإعزازه والمعنى أنه لا يزيد في قدرته إيمان المؤمنين ونصرهم
ولا ينقصها كفر الكفار وكسرتهم بل له جنود السموات والأرض وكان
في الأزل عزيزا حكيما من قبل أن يخلق الجنود إنا أرسلناك شاهدا
لمن آمن بالحق وعلى كفر من كفر من الخلق ومبشرا لمن آمن ونذيرا
لمن كفر لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه التعزير النصر وهو
عائد على الله سبحانه مع بقية الصفات وهو كقوله ولينصرن الله
من ينصره وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا إن الذين يبايعونك
إنما يبايعون الله لأن الرسول منه إليهم بالمبايعة لله والله هو
الذي اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم وقوله يد الله فوق
أيديهم كما تقول سماء الله وأرض الله وهذه يدي يد له سبحانه لأن
الله له كل شيء وليس المراد عضوا وجزءا ولكن المرسل سبحانه جعل
يد المرسل بمنزلة يده في المبايعة إعلاما بصحة القبول وشرف الرسول
كما أن من اتبعه فقد اتبع الله ومن خالفه فقد خالف الله فمن نكث

فانما ينكث على نفسه ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه اجرا
عظيما سيقول لك المخلفون من الاعراب مشتق من الخلف الذي هو
ضد القدام وتقديره يقولون عند عودتك من الجهاد اليهم معتذرين
شغلتنا اموالنا واهلونا فاستغفر لنا ثم اخبر سبحانه انهم يقولون
بالسنتهم ما ليس في قلوبهم ولو كان ذلك في قلوبهم لما تخلفوا الا باذن
قل فمن يملك لكم وفي المائدة قل فمن يملك من الله باسقاط لكم لان الكلام
هاهنا مخصص وهناك مطلق من الله شيئا ان اراد بكم ضرا او اراد
بكم نفعا اي جزاء على اعمالكم فلا تظنوا انه يخفى عليه شيء منها فمن تفع
الجزاء من اجل الخفاء بل كان الله بما تعملون خبيرا فليس ما شغلكم عن
اتباع الرسول ما ادعيتموه بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمومنون
الى اهليهم ابدا وزين ذلك في قلوبكم عقابا لكم لما ظننتم كقوله زين له
سوء عمله وظننتم ظن السوء بالله اي بوعده واخباره لرسوله من
النصر وكنتم قوما بورا جهالا وهي استعارة ومنها الارض البور
كما تقدم ومن لم يومن منكم بعد هذه المرة وهو مطلق ايضا
بالله ورسوله فانا اعتدنا للكافرين سعيرا ولله ملك السموات
والارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء اي بحق ولهذا بعده
وكان الله غفورا رحيما سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى
مغانم لتاخذوها اي لا الى حرب ذرونا نتبعكم يريدون ان
يبدلوا كلام الله لان الله منع خروجهم مع المومنين في صحبة

الرسول عليه السلام فطلبوا هاهنا ما حكمه حكم الفتوى بالاتباع بعد
توجه المومنين الى المغانم فقال الله تعالى قل خطابا للرسول فافهمه
ليلا يتناقض لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون
بل تحسدوننا ليس كما قالوا بل كانوا لا يفقهون الا قليلا منهم
والكثير ملحق بالكفار لقوله في اخر سورة الانفال وان يكن منكم مائة
يغلبوا الفا الاية قال عن الكفار ذلك بانهم قوم لا يفقهون فهاولاء ملحقون
بهم لتخلفهم اولا ولو امنوا فقهوا ولو فقهوا لما تخلفوا اول مرة
ثم قال قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قتال قوم
اولي باس شديد تقاتلونهم او يسلمون فان تطيعوا يوتكم الله
اجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا اليما
وهذا بيان لقوله في سورة التوبة بعد قوله وقعد الذين كذبوا الله
ورسوله فقال سيصيب الذين كفروا منهم عذاب اليم اي الذين
كفروا التكذيب بهم وتخلفهم ثم لم يتوبوا بل تولوا من بعد كما تولوا من قبل وبيان
ذلك هو ان تعلم ان المخلفين ينقسمون اولا الى قسمين احدهما اذن الرسول
الله صلى الله عليه وسلم والاخر لم ياذن ومن اذن ينقسم ايضا الى قسمين
احدهما الذي يوذن له في الخروج ولكن لم يعد عدة مع القدرة والقسم
الاخر الذي يوذن له في القعود وهم المذكورون بقوله استاذنك
اولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين واما من لم ياذن
فهم المذكورون بعد قوله وجاء المعذرون من الاعراب ليوذن

فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا
عظيما سيقول لك المخلفون من الأعراب مشتق من الخلف الذي هو
ضد القدام وتقديره يقولون عند عودتك من الجهاد إليهم معتذرين
شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا ثم أخبر سبحانه أنهم يقولون
بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ولو كان ذلك في قلوبهم لما تخلفوا إلا بإذن
قل فمن يملك لكم وفي المائدة قل فمن يملك من الله بإسقاط لكم لأن الكلام
هاهنا مخصص وهناك مطلق من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد
بكم نفعا أي جزاء على أعمالكم فلا تظنوا أنه يخفى عليه شيء منها فمن نفع
الجزاء من أجل الخفاء بل كان الله بما تعملون خبيرا فليس ما شغلكم عن
اتباع الرسول ما ادعيتموه بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون
إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم عقابا لكم لما ظننتم كقوله زين له
سوء عمله وظننتم ظن السوء بالله أي بوعده وإخباره لرسوله من
النصر وكنتم قوما بورا جهالا وهي استعارة ومنها الأرض البور
كما تقدم ومن لم يؤمن منكم بعد هذه المرة وهو مطلق أيضا
بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا ولله ملك السموات
والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء أي بحق ولهذا بعده
وكان الله غفورا رحيما سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى
مغانم لتأخذوها أي لا إلى حرب ذرونا نتبعكم يريدون أن
يبدلوا كلام الله لأن الله منع خروجهم مع المؤمنين في صحبة

الرسول عليه السلام فطلبوا هاهنا ما حكمه حكم الفتوى بالاتباع بعد
توجه المؤمنين إلى المغانم فقال الله تعالى قل خطابا للرسول فافهمه
لئلا يتناقض لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون
بل تحسدوننا ليس كما قالوا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا منهم
والكثير ملحق بالكفار لقوله في آخر سورة الأنفال فإن يكن منكم مائة
يغلبوا ألفا ثم قال عن الكفار ذلك بأنهم قوم لا يفقهون فهاولاء ملحقون
بهم لتخلفهم أولا ولو آمنوا فقهوا أو لو فقهوا لما تخلفوا أول مرة
ثم قال قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قتال قوم
أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله
أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما
وهذا بيان لقوله في سورة التوبة بعد قوله وقعد الذين كذبوا الله
ورسوله فقال سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم أي الذين
كفروا بالتكذيب منهم وتخلفهم ثم لم يتوبوا بل تولوا من بعد كما تولوا من قبل وبيان
ذلك هو أن تعلم أن المخلفين ينقسمون أولا إلى قسمين أحدهما أتى إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم والآخر لم يأت ومن أتى ينقسم أيضا إلى قسمين
أحدهما أتى ليؤذن له في الخروج ولكن لم يعد عدة مع القدرة والقسم
الآخر أتى ليؤذن له في القعود وهم المذكورون بقوله استأذنك
أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين وأما من لم يأت
فهم المذكورون بعد قوله وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن

ثم قال وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ولما كان قوله وقعد يعم كل
قاعد من المنافقين ممن لم يأت ويعتذر أي ليؤذن له في الخروج او في
القعود قال بعده سيصيب الذين كفروا منهم فكان الاشكال
في قوله سيصيب الذين كفروا بعد قوله وقعد الذين كذبوا الله
ورسوله لازما اذ لم يقل سيصيبهم ثم نحل ذلك الاشكال الذي في
سورة التوبة وهو المتشابه بما ذكره ها هنا من المحكم وذلك ان
الكل يدعون الى قتال قوم اولي باس شديد فمن اجاب فقد تاب
ومن لم يجب بقي على كفره فلهذا لما قال وقعد الذين كذبوا الله ورسوله
قال بعده سيصيب الذين كذبوا الله ورسوله قال بعده سيصيب
الذين كفروا منهم اي من الذين كذبوا الله ورسوله اذا بقوا على كفرهم
بعد الدعوة الى القتال فانظر ما احسن هذا كيف خوفهم غاية التخويف
واطلق عليهم كلمة الكفر والتكذيب وبقي الامر على حاله الى ان نزل
من القرآن ما فتح لهم به باب التوبة ان شاؤوا فكان الكلام الثاني
كانه ناسخ للاول لكون الاول في غاية التخويف وليس بناسخ عند
من علمه الله ولقد كانت الوقائع في زمن رسول الله صلى الله
عليه وسلم تشرح القرآن لان القرآن كان اذا انزل انما ينزل
في واقعة اقتضت انزاله فكانوا يعلمونه ويعظم وقعه من انفسهم
خلاف ما يعظم وقعه في انفس من سمع من بعدهم بصورة الحال
فكيف اذا وقع الاختلاف في نقل ما وقع وسبب ما نزل وغيره

ذلك ونحن الان نجد لان احدنا اذا تمثل بكلمة من كتاب الله في حال
من احواله وجاءت في موضعها وعلى حسب واقعته طرب لها اذا
سمعها او قالها لصاحبه فكيف اذا انزلت على سيد البشر من رب
العزة في واقعة بعينها تخص قوما وتعم امثالهم الى يوم القيامة
فانظر كيف جعل الكلام كاللغز ليخوف به وجعله عند الذين اوتوا
العلم بينا بكلمة واحدة وهي قوله معي فقال لن تخرجوا معي ابدا
ولن تقاتلوا معي عدوا ثم قال ها هنا عنهم ستدعون الى قوم ولا
يدل ذلك على انهم كانوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا
يكونون في المستقبل بل يدل على انهم دعوا من قبل فتولوا ورضوا
بان يكونوا مع الخوالف فحرمهم الله ان يخرجوا او يقاتلوا مع الرسول
خاصة فان تولوا بعد كما تولوا قبل عذبهم الله عذابا اليما وان لم
يتولوا فذلك توبة لهم واجر حسن لهم مع انهم لا يخرجون مع
الرسول ابدا فلا مناقضة بوجه ولهذا قال الله لهم وسيرى الله
عملكم ورسوله واذا تاملت ما ذكره هنالك وها هنا مفصلا
تبينت على ما ذكره من طوائف وخصصهم بكلمات من ثواب وعقاب
وانه تعالى فصل تفصيلا شافيا لا اشتباه فيه وقد علمت قوله وآخرون
مرجون فيها ولا المذكورون ها هنا هم مثل المرجين لانه ذكرهم
باسم يعم وهو قوله قل للمخلفين من الاعراب اي باسرهم وهذا
فائدة زيادة قوله من الاعراب وقدم قوله قبله سيقول المخلفون

إذا انطلقتم إلى مغانم ثم قال ستدعون إلى قوم أولي بأس أي كما إلى مغانم كما
طلبتم فيها ولا مرجون أيضا إلى أن يتبين أمرهم إما طاعة أو معصية
فإما يتوب عليهم أو يعذبهم وقد بينا ذلك كله في سورة التوبة وأوضحناه
هاهنا وكما أتبع ذكرهم هناك بقوله ليس على الضعفاء ولا على المرضى كذلك
لما ذكرهم هاهنا مع الأمر بالقتال فقال ليس على الأعمى حرج ولا على
الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله
جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول عن أمره وهو مطلق
ومخصص هاهنا بالجهاد لهذا ذكر الأليم في جميع المواضع المخصوصة
بالمخلفين فقال هاهنا يعذبه عذابا أليما ثم وصف من لم يتول فقال ٢
لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في
قلوبهم من الصدق والإيمان الذي عليه تنبني أفعالهم في مستقبل
الزمان فأنزل السكينة عليهم في الحرب خاصة وإن احتمل
العموم والسكينة في الحرب تعطي الثبات والصبر اللذين يعطيان
النصر ولهذا بعده وأثابهم أي بما علم فتحا قريبا أي بفتح قريب
وكذلك حذف الباء ودل عليها بالنصب مع العطف في قوله ومغانم
كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما ثم أخبر المؤمنين بما
سيكون في المستقبل وجعل الفتح دليلا وبرهانا على صدق الوعد
فقال وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه
الغنيمة ومع نعمة الغنيمة نعمة السلامة وهي قوله وكف أيدي

الناس عنكم لتكون النعمة تامة بالظفر والسلامة ولتكون آية
للمؤمنين في ذلك الزمن تدلهم على صدق الوعد بما سيكون ولتكون
آية لسائر المؤمنين إلى يوم القيامة تدلهم على صدق الرسول وإخباره
من الله بما سيكون قبل أن يكون ويهديكم صراطا مستقيما وقوله
وأخرى لم تقدروا عليها معطوف على وعدكم الله مغانم وأخرى
وبين الأخرى بقوله وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب
وبشر المؤمنين قد أحاط الله بها علما وقدرة كقوله وظنوا
أنهم أحيط بهم وكقوله وأحيط بثمره بمعنى أدير فلم يفلت منهم
أحد وهو غاية البلاغة إذ لما نفى القدرة لهم من جهة أثبتها لهم
من كل جهة ولهذا قال لما وعدهم بالأخرى وكان الله على كل شيء
قديرا وكانوا في ذلك الوقت غير قادرين على مكة فعجل لهم خيبر
فيما روي وعرفنا أن المعجلة كانت بغير قتال فقال ولو قاتلكم
الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا سنة
الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا
ثم ذكرهم بنعمة أخرى مثل هذه فقال وهو الذي كف أيديهم عنكم
وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم يحتمل أن
يكون ذلك قوله ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه
فكف أيدي الكفار بالرعب وتلك نعمة على المؤمنين وكف أيدي
المؤمنين بالأمر تعبدا وتلك نعمة على المؤمنين فالأولى نعمة

الابتداء والثانية نعمة الجزاء اذا عملوا وامتثلوا ولهذا بعده وكان
الله بما تعملون بصيرا هم الذين كفروا وبين ما شرحناه بقوله
وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي منصوب بالعطف على
الكاف والميم في صدوكم معكوفا منصوب على الحال تقديره محبوسا
عن ان يبلغ محله المكان الذي يحل فيه ذبحه ثم قال ولولا رجال
مؤمنون ونساء مؤمنات كانوا في مكة لم تعلموهم فتخشى ان
تطؤهم ان تطؤا منازلهم بالسوء تقول ما وطينا اليوم انسان
اي ما دخل علينا وتحمل الوطي بالاقدام بعد القتل وقيل تطؤهم بخيلكم
ورجلكم وهذا اشبه بمراد الاية والله اعلم فتصيبكم منهم معرة
اثم من العار في دينكم بغير علم منكم ومعنى العار ههنا ان يقول المشركون
قد قتلوا ابناء دينهم كما قتلوا اعاديهم اي لولا ذلك لبسط الله ايديكم
بقتلهم حين صدوكم في ذلك الوقت ولكنه كفها ليدخل الله في رحمته
وهي الاسلام من يشاء من المذكورين الذين علم الله منهم القبول واتباع
الرسول ثم قال لو تزيلوا اي لو تفرقوا وانفرز المؤمنون من الكفار
لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا اليما وذلك حين اذ جعل الذين
كفروا هم جعلوا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية اي لا بوجه
حق بل ارادوا ان يحموا مكة من المؤمنين فمنعوا الهدي ومن معه
من المؤمنين فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين
فبالله بلا الحمية والزمهم كلمة التقوى اي الكلمة التي لا تصدر

الا من المتقي فاولئك كفروا وصدوا وهؤلاء امنوا واتقوا فوصف الله كلا منهما
في قوله وفعله فالمؤمنون مع كونهم راوا حمية الجاهلية من المشركين
وكان يقتضي ان يقابلها المؤمنون بمثلها فانزل الله السكينة بحيث لم يصدر
منهم فعل بسوء ولا قول ولهذا قال والزمهم اي بطريق الامر لا الجبر كلمة
التقوى ولما كان قوله والزمهم يحتمل الجبر بينه الله بقوله وكانوا احق
بها واهلها فلم يكلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم الا بالسمع والطاعة
ولم يكلموا الكفار الا بما امرهم به الرسول ولما لم يكن الزامهم من
الله محجة للكفار ولا عن هوى من الله عز وجل بل على وفق العلم الازلي
المتقدم على ما يكون من القول والعمل فلهذا بينا في اخر الاية وكان
الله بكل شيء عليما ثم اخبر الله سبحانه بفتح مكة ودخول المؤمنين
امنين من شر الاعداء المانعين من قبل وكان النبي عليه السلام راى
ذلك في رؤيا المنام لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق ومعنى
بالحق اي بالحق الذي لا بد من وقوعه في الوقت الذي اذن الله بوقوعه
فيه فقال بالحق ردا على من ارتد اذ اعتقد ان الرؤيا كانت بالباطل
وهذا هو معنى قوله تعالى وما جعلنا الرؤيا التي اريناك الا فتنة للناس
اي امتحانا واختبارا لانه عليه السلام لما ابدى ما راى ولم يقع في
ذلك العام ارتد جماعة عن الاسلام فاخبر الله انه لم يجعل
تاويل الرؤيا مؤخرا الا ابتلاء للناس ليظهر ايمان المؤمن كابي بكر
فيما روي انه قال لهم فهل قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم

انكم تملكون مكة في هذا العام قالوا لا فبالرؤيا ظهر ايمان المومنين وارتداد
المنافقين وكان ما ابداه النبي عليه السلام للمومنين ان قال لتدخلن
المسجد الحرام وقوله ان شاء الله انما استثنى وهو عالم له تعليما للاستثناء
آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين اي منكم من يحلق ومنكم من يقصر
من شعره اشارة الى دخولكم متعبدين لا مقاتلين لهذا قال اولا آمنين
وقال اخيرا لا تخافون اي بوجه من الوجوه وقوله فعلم ما لم تعلموا
تقديره فلهذا كف الايدي منكم ومنهم اولا عن القتال لما علم من النصر
الكاين على احسن الاحوال فجعل من دون ذلك الفتح المكي فتحا
قريبا مبشرا للمومنين ومنذرا للكافرين وهو فيما قيل فتح خيبر
او الحديبية هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره
من الاستظهار فاصبحوا ظاهرين على الدين كله والدين لفظة
جنس تعم ساير الاديان وكفى بالله شهيدا له بذلك محمد رسول
الله والذين معه اشداء على الكفار من الشدة وهي القوة رحماء بينهم
بين المومنين تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا
سيماهم في وجوههم من اثر السجود ثم قال ذلك مثلهم في
التوراة اي اشداء على الكفار رحماء بينهم لان الله تعالى ذكر في التوراة
من نعمة الله من نسل اسمعيل من امة عظيمة مباركة ولا تكون
هذه الامة كذلك الا بان يكونوا اشداء على الكفار رحماء بينهم فهذا
تخصيص واما العموم فهو ما في التوراة من ذكر اوصاف المومنين

واوصاف من نصر الانبياء ومن ينصرهم مطلقا في كل زمن فيدخل التخصيص
في ذلك المطلق لذا قال مثلهم ثم قال ومثلهم في الانجيل اي كهذا المثل الاخر
وهو قوله كزرع اخرج شطأه اي فراخه يقال اشطأ الزرع اذا
افرخ من جوانبه ومنه شاطئ النهر جانبه فآزره اي عاونه اي فشد
فراخ الزرع ازر النبت فاستغلظ الزرع فاستوى قايما على سوقه
جمع ساق يعجب الزراع تم المثل الذي معناه في الانجيل ثم قال ما
معناه انما كان اصحاب محمد كذلك ليغيظ بهم الكفار ثم اخبر
عنهم بقوله وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقوله منهم
ليس للتبعيض بل لتبيين الجنس اي لكل واحد منهم كما للآخر ومن
قال انها للتبعيض فانه اراد ان منهم من هو منا والى يومنا هذا
وان الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر فهم وان نصروا الاسلام
وكسروا الاعداء لا يفيدهم ذلك الا بالايمان والعمل الصالح فوعد
الله هؤلاء خاصة مغفرة واجرا عظيما وهذه الآية فيها جميع
الحروف ووجه ضرب هذا المثل بالزرع الذي اخرج شطأه هو
ان النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم الى دينه وكان ضعيفا فاجابه
الواحد بعد الواحد حتى كثر جمعه وقوي امره كالزرع يبدوا
بعد البذر ضعيفا فيقوى حالا بعد حال والقرآن هو الغيث المنزل
من السماء لامداد النبات حتى يغلظ ساقه وفراخه اولاد المومنين
وهذا من اوضح البيان لاهل ذلك الزمان ٥

سورة الحجرات ١٨

بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين
يدي الله ورسوله أي لا تقدموا لأنفسكم قولا أو فعلا إلا برضاء الله
لكم ورسوله وقد سمعت قوله تعالى في يوم الجزاء ذلك بما قدمت يداك
وقوله تعالى وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه وفي سورة البقرة
حذف لفظ خير فقال وقدموا لأنفسكم وهاهنا حذف ذكر الأنفس
وقال لا تقدموا فلزم أن يكون نهي عن ضد ما أمر به فافهم ذلك ثم
بينه بقوله واتقوا الله إن الله سميع لما تقولون عليم بما تفعلون
ثم أوضح بما نهى عنه مثلا يبعد فهمه عن أذهانهم فلا يفهمونه
من تلقاء أنفسهم بغير منبه لهم ينبههم عليه فنبههم بقوله
يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم بحيث أنها تعلوا فوق صوت
النبي إنما ذكر ذلك لأنه إذا نهاهم عن رفع الصوت عند مخاطبة
الرسول صلى الله عليه وسلم فقد لزم النهي عما هو أسوأ من ذلك مثل
أن يكون الصوت بما يسوء من الكلام ولو كان بصوت منخفض فإنه
أقبح في العقول مما لا يسوء ولو بصوت عال وهذا النهي هاهنا يستوعب
الصوت العالي ولو كان فيما يسر فكأنه قال الصوت العالي فوق صوت
الرسول لا يحل فكيف غير ذلك من ضروب العلو والتكبر والمراد المخاطبة
بالأدب والخشية لأنهم إذا رفعوا أصواتهم بما يسر مثلا يلزم
عن ذلك إما أن يرفع صوته أيضا ليعلو على أصواتهم وإما أن يسكت

وإما أن يقول فلا يسمع صوته وكل ذلك مضر بهم ضررا تتفاوت مقاديره
بحسب تباين نياتهم ثم نبه المؤمنين على المراد من هذا الكلام
تعظيما لقدر النبي عليه السلام بعد القول الأول بقوله ثانيا
ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض واحذروا ان تعملوا
ذلك أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ثم لما حذرهم
أكد الأمر بعد الترهيب بالترغيب فقال إن الذين يغضون
أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم
للتقوى أي لأجل أن تسكنها التقوى بصبرها عن المنكر لهم مغفرة
عما بدا منهم من هذا المنهي عنه وإن كان مطلقا أيضا وأجر عظيم
وهذا من أبلغ التعريف وأشد التخويف وأعظم البيان فيما يجب
من تعظيم حرمة النبي صلى الله عليه وسلم وهو أن يكون بنفس
الخطاب له يكتسب الأجر العظيم أو تحبط الأعمال كلها اي الجحيم
ثم أكد القول تأكيدا ونبه على ما هو أدق في باب الأدب فقال
إن الذين ينادونك من وراء الحجرات جمع حجرة أكثرهم لا يعقلون
شبههم بالحيوان المنسلخ عن الإنسانية إذ سلبهم العقل الذي
هو منشأ السعادتين وقوله أكثرهم دليل على أن منهم من يعقل
وينادي أيضا فهو أسوأ حالا لقلة أدبه وكثرة تعديه ثم قال
معلما لهم ثم لنا فيما يجب أن نسلكه مع العلماء الذين هم ورثة
الأنبياء ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان ذلك خيرا

...عت قوله تعالى في يوم اخزاء ذلك بما قدمت يداك
موا لأنفسكم من خير تجدوه وفي سورة البقرة
فقال وقدموا لأنفسكم وههنا حذف ذكر الأنفس
أن يكون نهي عن ضد ما أمر به فافهم ذلك ثم
الله إن الله سميع عليم لما تقولون عليم بما تفعلون
في مثلا ينفي فهمه عن أذهانهم فلا يفهمونه
...ير منبه لهم ينبههم عليه فنبههم بقوله
...رفعوا أصواتكم بحيث أنها تعلوا فوق صوت
...لأنه إذا نهاهم عن رفع الصوت عند مخاطبته
...ه وسلم فقد لزم النهي عما هو أسوأ من ذلك مثل
يسوء من الكلام ولو كان بصوت منخفض فإنه
يسوء ولو بصوت عال وهذا النهي ههنا يستو...
...رفيما يسر فكأنه قال الصوت العالي فوق صوت
...غير ذلك من ضروب العلو والتكبر والمراد المخاطبة

الحمد لله
قوله تعالى ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت
ما هؤلاء ينطقون قال صاحب الكشاف
نكسته قلبته فجعلت أسفله أعلاه المسئلة الأولى
في المعنى وجوه أحدها أن المراد استقاموا
حين رجعوا إلى أنفسهم وأتوا بالفكرة الصالحة
ثم انتكسوا وانقلبوا حتى رجعوا عن تلك
الحالة فأخذوا في المجادلة بالباطل وثانيها
قلبوا على رؤسهم حقيقة لفرط اطراقهم
خجلا وانكسارا وانخذالا مما بهتهم ابراهيم
انقلبوا إلى المجادلة بعد ما استقاموا
بالمراجعة شبه عودهم إلى الباطل بصيرورة
شيء مستعليا على اعلاه

ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض
فلا أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون
...الترهيب بالترغيب فقال
...رسول الله أولئك الذين ا...
...ل أن يسكنها التقوى يصير بها عن
...هذا المنهي عنه وإن كان مط...
...تعريف وأشد التخويف وأع...
...النبي صلى الله عليه وسلم
...الأجر العظيم أو تحبط الأع...
...بدا ونبه على ما هو أدق في با...
من وراء الحجرات جمع حج...
شبههم بالحيوان المنسلخ عن الإنسانية إذ سا...
هو منشأ السعادتين وقوله أكثرهم دليل
وينادي أيضا فهو أسوأ حالا لقلة أدبه وك...
معلما لهم ثم لنا في ... أن نسلكه مع العل...

لهم ثم عرفنا ان هذا وان كان من مؤمنا لكنه ليس كالاول فان الاول
وهو رفع الصوت تحبط العمل واما هذا فقال بعده والله غفور
رحيم وفيه ايضا انه لولا غفرانه ورحمته لاهلك فاعل ذلك
وفيه ما معناه انه سبحانه غفور لما مضى رحيم فيما سياتي ولا
يعلمكم ويهديكم سبله يا ايها الذين امنوا ان جاءكم فاسق بنبا
فتبينوا صحة ما انبأكم به وافحصوا عنه حتى يتبين اي تحققوا حذرا
ان تصيبوا قوما بجهالة سموا قوما لانهم يقومون مع داعيهم
في الشدايد وكانه جمع قايم مثل نفر جمع نافر ومعناه ان تصيبوا
بجهالة قوما بسوء فتصبحوا على ما فعلتم نادمين واعلموا ان فيكم
رسول الله لو يطيعكم في كثير من الامر لعنتم اي لاثمتم ومنه
قوله تعالى ذلك لمن خشي العنت منكم يريد الاثم ولكنه اثم وقع
من عنت النفس وقد بيناه في موضعه والمعنى انه كما ان الرسول
عليه السلام لا يطيعكم في اكثر اموركم بل فيما تبين له من الله كذلك
لا تطيعوا انتم كل نبا الا ما تبين لكم صحته ثم قال ما معناه انتم بتلك
المثابة ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره
اليكم الكفر والفسوق والعصيان كرما منه وهذه الثلاثة
هي جملة الذنوب والفرق بين الفسوق والعصيان ان الفسوق
ترك الامر اعني الخروج عنه بدليل قوله ففسق عن امر ربه والعصيان
هو انتهاك المنهي عنه بدليل قوله وعصى ادم ربه فغوى وهاهنا

اربعة اقسام فالاول مؤمن منتبه فهو من الفايزين والثاني غير مؤمن
وغير منتبه فهو من الهالكين والثالث غير مؤمن بل منتبه وهو
من الفاسقين والرابع غير منتبه بل مؤمن وهو من العاصين فالمذكورون
هاهنا هم من القسم الاول فضلا من الله لا كسبا وذلك لكون الرسول
فيهم وهذا يعم ساير الامة الى يوم القيامة وان خص قوما في زمنه
صلى الله عليه وسلم ولهذا لم يقل فانتم بل قال اولئك هم الراشدون
ثم قال فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم وان طايفتان
من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى
تعديا فلم تجب الى امر الله فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء ترجع الى
امر الله بين انه لا يجوز قتال المؤمن الا لهذه الحالة فان فاءت فاصلحوا
بينهما بالعدل واقسطوا اشارة الى الوقوف في حد من العدل كالوزن
بالقسطاس ان الله يحب المقسطين ولما قدم قوله اقتتلوا الذي
يدل على الكثير قال بعده ما يدل على القليل واقله نفران فقال انما المؤمنون
اخوة في الاسلام فاصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون
ثم منع ما يجلب اذى خصومة او تشويش خاطر فقال يا ايها الذين
امنوا لا يسخر قوم من قوم عسى ان يكونوا المسخور بهم خيرا
منهم ولا نساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولا تلمزوا
اللمز العيب واصله الاشارة بالعين ونحوها الى ما يتنبه على العيب
بوجه غيبة للحاضر يقال لمزه يلمزه ويلمزه وقرئ بهما

ومنهم من يلمزك في الصدقات ومنه الهمزة اي العياب وهو دفع
وضرب بالمعنى المفهوم عن تلك الاشارة انفسكم اي بعضكم بعضا
ولا تنابزوا تتنابزوا والنبز بالقبيح واللقب بالحسن والقبيح والنبز
بتحريك الباء اللقب وبتسكينها مصدر نبز ينبز نبزا وهو لقب
سوء ولهذا بعده بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان
ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون ثم دقق في الامر بالادب
فذكر ما لم يذكر لفظا بل هو من الحركات الباطنة كسبا فقال
يا ايها الذين امنوا اجتنبوا كثيرا من الظن امر باجتناب الكثير
من ظن السوء لئلا يقع في القليل الذي هو الاثم ان بعض الظن
اثم دل بلفظ الاجتناب على انه سوء ولم يقل سوء الظن لئلا يعم
ما لا سبيل الى اجتنابه من ذلك وهو ما لا طريق الى تحقق العلم
فيه كما نبين والذي تعطيه بديهة النظر ان يقول ان بعض الظن
صدق ليعود الكثير كذبا فيكون اثما فيحسن في العقل اجتنابه
والحد هاهنا ان كل ما لصاحبه طريق الى العلم ثم يبنى فيه
على الظن فهو الذي يجب اجتنابه لاحتمال ان يكون كذلك وان لا
يكون فيكون اثما وهو البعض فاما ما لا طريق له الى علمه فلا بد فيه
من الظن لكنه في محل الشك فنهى ان يبنى على الظن بالسوء مع امكان
طريق العلم فيه فافهمه جيدا والانسان انما يؤمر بما في طاقته
وله اليه سبيل واما كونه لم يقل ان بعضه اثم فلئلا يعود

على الكثير فلا يصح لانه قد يكون الكثير كله اثما لا بعضه وقد يكون كله صدقا
فلما قال بعض الظن جاز ان يكون بعض الكثير او كله في بعض الاخبار ويكون
الكل بعضا ولا تجسسوا ومنه الجاسوس وهو الذي يفحص عن الاخبار
الردية ولم يقل ولا تجسسوا بسينين واحدة لانه من جس الطبيب
يد المريض وان رجع في التصريف الى اصله ولا يغتب بعضكم بعضا
والغيبة هي ما تكره ان تواجه به اخاك او تكرهه منك ثم ضرب
لذلك مثلا جامعا بين الحرام والمكروه عند النفس فان من الحرام
ما لا يكون مكروها للنفس فقال ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه
ميتا ثم قال فكرهتموه فدل بالفاء على ما معناه واذا كان كذلك
فاكرهوا من انفسكم لغيركم ما تكرهونه من غيركم لانفسكم
واتقوا الله ان الله تواب رحيم وقوله هاهنا تواب يدل
على مضاعفة ما يظهر عنه سبحانه من صفة التوبة لان هذا
الذنب يتكرر كثيرا من العبد فليكن ايضا توابا فان الله تواب
على التوابين ثم قال ما نعلم به المساواة من جهته لئلا نكون
مجبرين منه ونعلم به ما وهبنا من التمكن بحيث نكون عنده
اكرم البشر بكسبنا لا باجباره لنا فقال يا ايها الناس انا خلقناكم
من ذكر وانثى تذكيرا منه بنظر الاخوة القديمة اصلا وجعلناكم
شعوبا جمع شعب وهو الحي العظيم مثل ربيعة ومضر
وقبايل دونها كبكر من ربيعة وتميم من مضر والشعوب

تفرق وتتشعب شعبا والقبايل تقابل بعضها بعضا فالشعوب من شعبة
الشجرة والقبيلة من الجماعة القابلة من اب واحد فهم على سنته
لتعارفوا لتتعارفوا ويحتمل ان يكون من المعروف لا من المعرفة
ويجوز ان يكون من المعرفة بمعنى ان هذا يعرف بقبيلته وهذا
بشعبه والاولى انه من عارف يعارف معارفة والاسم عارفة
واراد المفاعلة من الخصمين ثم بين غاية البيان لكل انسان بقوله
ان اكرمكم عند الله اتقاكم وقد بينا المراد بلفظ التقوى عند
قوله تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجا وكمال التقوى بكمال العقل
والعقل هو المكلف بحسبه فغاية المكلفين على اختلاف عقولهم
غاية واحدة كل بحسبه فالعقل من جملة المقسوم كما ان الرزق
بالقدر المعلوم فكما تقدم العلم بما يجب ان يبتلى به هذا في مقدار
ماله كذلك تقدم العلم بما يجب ان يبتلى به هذا في مقدار عقله
وكما يتصرف هذا بمقدار ماله مع فقره فيكون اجره كاجر الغني
كذلك يتصرف هذا بمقدار عقله مع ضعفه فيكون كالقوي ولو
لم يكن التكليف على قدر العقول لما قامت حجة الله سبحانه بالرسول
ومن اوتي فضلا في عقله لزمه ان ياتي بمثله في فعله كما لزم ذا المال
في ماله وعشر الفقير كعشر الغني فيما بذلا من مالهما في طاعة
الله واجر الضعيف كاجر القوي فيما وصلا اليه بعقولهما من
معرفة الله وكما ان الرزق ينمي بالتكسب فكذلك العقل ينمي

بالتعلم فالعقل الطبيعي كالسراج والعلم بمدة كالزيت ولو لم يكن العقل
قابلا للازدياد بالتعلم والاجتهاد لما قامت به حجة الله على العباد ولما
كان ازدياده راجعا اليهم قامت حجة الله به عليهم فقد ثبت ان ابتداه
وهب وان تمامه كسب ولو لم يكن كذلك لكانت القسمة بالهوى
ولم يكن الكرم بالتقوى بل بالقسم السابق من الرب اجبارا لا بالكسب
اللاحق من العبد اختيارا ولهذا ظهرت فايدة الحديث في قوله عليه
السلام اتمكم عقلا اشدكم لله خوفا واحسنكم فيما امر الله عز وجل
به ونهى عنه نظرا وان كانوا اقلكم تطوعا وقال انما يسال الله الناس
عن عقولهم ويحاطبون بحسب عقولهم وبحسب ذلك الثواب والعقاب
وقال انما يجزي الرجل يوم القيامة عند الله في كل ما عمله على قدر عقله
وقال انما يرفع الله سبحانه العباد الدرجات غدا عنده وينالون
الزلفى منه على قدر عقولهم وهذه الاحاديث تعطي ان العقل المشار
اليه هو ما يتعلق بالعبد المكلف ولو لم يكن كذلك لعادت حجة العباد
واضحة لان الاعمال على قدر العقل والعقل على قدر القسمة الربانية
والقسمة الربانية
لا يسال عنها وليس كذلك بل القسمة الربانية هي على وفق العلم والحكمة
بما يعمل زيد دون عمرو وكما بيناه في اخر الكهف ولهذا قال عليه
السلام انما العاقل من امن بالله وصدق رسله وعمل بطاعته
ولا شك ان هذا كله من باب الكسب بما اتاه الرب واذا لم يفهم ذلك
عارضه قوله عليه السلام ان الرجل ليكون من اهل الصوم والصلاة

والزكاة والحج ولا يجزى الا بقدر عقله قالت عايشة رضي الله عنها يا رسول
الله بماذا يتجازون الناس في الدنيا قال بالعقل قالت فبماذا يتجازون في الآخرة
قال بالعقل قالت اولا يجازون بقدر اعمالهم قال يا عايشة وهل عملوا
الا بقدر ما اعطاهم الله عز وجل من العقل ثم قال ما تم دين انسان
قط حتى يتم عقله واذا علمت ان تمام العقل انما هو بصرفه الى ما خلق
له وهو الكسب فقد وضح ان العقل دليل على التقوى والتقوى تمام العقل
وثمرته والا لا ثمرة له وانه كالميزان ولو فرضنا ميزانا معيبا
فذلك كالصبي والمجنون ولا شك انه غير مكلف وهاهنا بحث
قد ذكرناه في عدة مواضع فلم نكرره فاذا رجعت به الى ما اصلناه
في اخر سورة الكهف فتممته وهو غير بعيد عن فهم المنصف
وان لم تطالع ما قلناه واصله يرجع الى ان الله لم يجعل للعباد عليه
حجة فيما قسم لهم من الرزق ولا فيما قسم لهم من العقل بل جعل ذلك
على وفق العلم والخبرة لانه عليم بما سيكون منهم خبير بما يجب لهم ولهذا
ختم الاية بقوله ان الله عليم خبير واذا نبهتك على لطيفة فافكر
في جزئيات تتعلق بها وتلزم عنها مثل ان تعلم ان قوله لتعارفوا عايد
على قوله انا خلقناكم من ذكر وانثى ثم يجب ان تعلم حكمة تاخيرها
اعني لفظة التعارف لانه لو قال من ذكر وانثى لتعارفوا ثم قال
وجعلناكم شعوبا وقبايل لكان التعارف قبل الجعل فذكره بعد الجعل
ليكون التعارف دايما ابدا وسببه الخلق الاول من ذكر وانثى لان

الجعل لا يلزمه التعارف والاحسان بل الاول ملزوم ولو ذكرت ما يجب عندي
في كل موضع من الحكم لطال الكتاب ولكني ابقيت لك ما يكون علامة للقبول اذا
فهمته من نفسك في امر من الامور بما تشاهده في نفسك من السرور
وذلك امر لا يتم الا بالايمان دون الاسلام وحده قالت الاعراب امنا
قل لم تومنوا ولكن قولوا اسلمنا اسلم واستسلم بمعنى انقاد ويقال
لمن دخل في السلم كما تقول اشتى اذا دخل في الشتاء واصيف واربع
ومنه قوله تعالى وله اسلم من في السموات والارض وهو الاسلام
الفطري ومنه اسلام الانبياء المتقدمين ولكنه اعم فهم مومنون
مسلمون فكان القلب يتبع اللسان في الاسلام واللسان يتبع القلب
في الايمان ولهذا قال ولما يدخل الايمان في قلوبكم فالاسلام لازم
عن الايمان ولا ينعكس لانه اعم فيها ولا انتقلوا من اسلام الكره الفطري
الى الاسلام الطوعي الاختياري ولكن لم يدخل الايمان في قلوبهم فهم
مضطرون الى فعل الطاعات فبادمان فعلها تعود للنفس قوة وينفتح
على القلب طمانينة ولهذا قال وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم
ينقصكم من جزاء اعمالكم شيئا اي بسبب ما بقي في قلوبكم من الريبة
بعد الاسلام ان الله غفور رحيم وبين ذلك بقوله انما المومنون
الذين امنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا باموالهم
وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون قل اتعلمون
التعليم غير الاعلام فالتعليم للمجهول والاعلام كالاخبار بما قد

يكون معلوماً من وجهٍ او اكثر اى فكيف تعلمون الله بدينكم اى بما تدعونه
من الايمان ولولا الباء في قوله بدينكم لكان المفهوم انهم يعلمون الدين من
التعليم والمراد مضاعفة الاعلام بالدين فهذه العبارة تعطي تكرر
صدور الاعلام منهم والله يعلم ما في السموات وما في الارض والله
بكل شيء عليم ثم قال ما ينبئ عما بدا منهم يمنون عليك ان اسلموا
قل لا تمنوا على اسلامكم باسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم
للايمان ان كنتم صادقين ولما كان علم الرسول صلى الله عليه وسلم
انما هو من الحق لا من الخلق وكان منهم على الرسول بما هو دعوى منهم
اعلمه الله بحالهم وذكر اطلاق العلم اولاً بقوله والله يعلم الآية ثم ذكره
لخبير مطلقاً وخصصهم بالذكر في اخر الآية لان من يعلم الكل يعلم
الجزء بلا شك فقال ان الله عالم غيب السموات والارض والله
بصير بما تعملون اى مع كونه عالماً من قبل بما غاب علمه عن العباد وانه
وانه بكل شيء عليم وانه يعلم ما في السموات وما في الارض علماً مطلقاً
بكل وجه فهو ايضاً بصير بما يعملون دائماً ٥

سورة ق

آية ٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم ق والقرآن قسم
المجيد ذي المجد وهو الكرم من الكرامة ثم حذف ما معناه انك
لنذير امين او مثل ذلك كقوله في سورة يس مظهراً غير مضمر
وبينه هاهنا بقوله بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال

الكافرون هذا شيء عجيب وهو ايضاً عما جاء به المنذر فالعجب اولاً
منه والتعجيب ثانياً ما جاء به وهو أئذا متنا وكنا تراباً نرجع الى هذه
الاجساد احياء ذلك رجع بعيد في العقول فهذا من تمام كلامهم
فقال تعالى قد علمنا في الازل ولهذا قال بلفظ الماضي ما تنقص
الارض منهم نقص الشيء ينقص نقصاً ونقصاناً ونقصته انا يتعدى
ولا يتعدى فيكون المعنى قد علمنا ما تنقصه الارض منهم وتأكله
من لحومهم اولاً فاولاً وتفنيه من عظامهم وسائر ما تنقصه
منهم بكل وجه وعندنا كتاب اى يحوي الكل والمراد التمثيل بما
هو اوضح في العقول وقوله حفيظ اى محفوظ من طوارق الحدثان
ومن ان يطلع عليه الانسان وهم لا يؤمنون بل كذبوا بالحق
لما جاءهم فهم في امر مريج مختلط ومنه المرج اى منهم من يقول
هو ساحر او مجنون او مفتر او شاعر ولما قدم قوله قد علمنا
وتمامه ذكر ما يستلزم العلم وهو الخلق الا يعلم من خلق فقال
أفلم ينظروا الى السماء فوقهم ذكر الفوقية للعموم والعلو والعظمة
لان القادر على ما فوق الشيء قادر على الشيء وقوله كيف تقديره قد
بنيناها ولو قال بنيناها فوقهم لكان المفهوم ان البناية بعد ايجادهم
وزيناها بالمصابيح وما لها من فروج خروق وشقوق ومنفرجة
والمعنى ليست قطعاً ضم بعضها الى بعض كابنية الدنيا بل قطعة
واحدة والارض مددناها والقينا فيها من كل زوج بهيج

[illegible]

ذي بهجة في منظره ومن ليست بزايدة بل للتبيين الجنس تبصرة دالة
على الصانع لمن له بصيرة وذكرى مذكرة بالبعث لكل عبد منيب
ونزلنا من السماء ماء مباركا بورك فيه ليثبت وتكون من تلك
البركة بركة في الارض ولقد كان ملحا اجاجا فصار عذبا فراتا في السحاب
فانبتنا به جنات وحب الحصيد كلما يحصد لاجل حبه والنخل
باسقات طوالا لها طلع نضيد منضود رزقا للعباد واحيينا [illegible]
به بلدة ميتا اي ميتا من بلده ولم تنسب البلدة نفسها الى الموت
لهذا لم يقل ميتة لانه كان يلزم موت كل ما فيها حتى الناس والدواب
كذلك الخروج من القبور يوم البعث كذبت قبلهم قوم نوح
واصحاب الرس وثمود وعاد وفرعون واخوان لوط واصحاب
الايكة وقوم تبع كل كذب الرسل فحق عليهم وعيد ثم اخذ
يبينهم على صحة البعث بشاهد من انفسهم فقال افعيينا عيي بالامر.
لم يعرف وجهه واعيي تعب ومن انكر البعث اعني بعث الاجساد
لكونه لا يعلم الحكمة في ذلك لزمه ان ينكر وجوده لانه لا يعرف
الحكمة في ذلك فافقه هذا جيدا مستقصيا فاذا عرفت موجب
الابداع فيجب ان يكون موجبا للاعادة كذلك كما بيناه وقوله
بالخلق الاول اي اذا نظرتم الى الخلقة الاولى رايتم اننا لم نعي بل
عرفنا الوجه الاتم والاولى بها بل هم في لبس من خلق جديد
ولقد خلقنا الانسان ونعلم في كل حين ما توسوس به نفسه

ونحن اقرب اليه من حبل الوريد اليه وهو العرق الكائن في
العنق وسمي هذا العرق وريدا لانه ظاهر ومنه زهر الورد
لوروده فمثل به دون الاعصر القلبي لانه اظهر للحس ومن شهد
الحق بينه وبين ما يخافه حجبه عن البعد ومن شهده بينه
وبين ما يرجوه شغله عن القرب وبيان ذلك ان السوى كله
حجاب الكرم لانه تعالى جعل اعيان الكون حاجبة لك لير ذكر اليك فتراه
بك قريبا كانه يقول من كرمي تواريت عنك فما بعد ومن كرمي تراءيت
لك فما قرب فانت لك اذل من الاشياء علي واقرب منها الى وانا
اكرم من الكل عليك واقرب منك اليك والمعنى نحن اقرب اذ يتلقى
المتلقيان الملكان اللذان لا تراهما العينان وسماهما متلقيين لانه
ليس لهما شغل في الدنيا غير ذلك عن اليمين قعيد وعن الشمال
قعيد قاعد يتلقى اعماله وما يصدر منه في هذا العالم وحذف
قعيد الاول من الفصاحة ومنه قول الشاعر
نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والامر مختلف
ما يلفظ من قول الا لديه منهما رقيب عتيد وهو من
قوله واعتدت لهن متكا فذو اليمين يراقب الخيرات وذو
الشمال يراقب ضدها واذا كان هذا وصفهما في الاقوال فكيف
لا يكون في الافعال فعرفنا سبحانه انه اقرب الينا والة هذه وقد
قيل تقريبا الى الاذهان قلم الملك لسان الانسان ومداده ريقه

في كل آن وجاءت سكرة الموت بالحق اي بالحق الذي لا محيد له منه
والمعنى كأنه وقد جاءت فيقال له ذلك ما كنت منه تحيد
في الدنيا فلا محيد لك الآن ونفخ في الصور النفخة الثانية ذلك
يوم الوعيد وجاءت كل نفس لا تظن انه اراد بعث الارواح دون
الاجساد وانما عبر بهذه العبارة اعني قوله كل نفس ليعم الذكر
والانثى صغيرا وكبيرا حرا وعبدا مؤمنا وكافرا معها سائق وشهيد
يسوقها الى الجنة لقوله وسيق الذين اتقوا او الى النار لقوله وسيق
الذين كفروا فان شهد صاحب اليمين عاد صاحب الشمال معه سائقا
الى الجنة وان شهد صاحب الشمال عاد صاحب اليمين سائقا معه الى
النار لا شاهدا فتأمل هذه العبارة ما اعجبها وادلها وانما يشهد له او عليه
من كان رقيبا فكل منهما سائق وشاهد ولكن في حال دون حال فاما بالخير
واما بالشر واما الى الجنة واما الى النار وهذا كما تقول فلان حكيم
و[illegible] في المراد ان الوصفين لواحد فالمراد ها هنا ان الوصفين لكل
واحد من الملكين وبين ذلك عند قوله القيا بلفظ التثنية وافرد
عند قوله سائق كما افرد عند قوله قعيد ثم وصف مما يقال له
بلسان التوبيخ لقد كنت في غفلة من هذا اي من رؤية هذا
الحال كنت غافلا في الدنيا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم
حديد من الحدة يقال حاد البصر اذا كان يرى البعيد كما يرى
القريب واعلم انه كما ان الحواس الخمس موجودة للجنين

ولكنه لا ينتفع بها الا بعد خروجه الى هذه الدار كذلك لنا الآن حواس لا
تظهر لنا ولا ننتفع بها الا بعد خروجنا من هذه الدار وكما ان الجنين
يجوز ان تحدث لبعض حواسه حادثة فيولد اعمى فكذلك يجوز ان
تحدث له ها هنا ما به يكون هناك اعمى وحفظ هذه الحواس ها هنا
انما هو بالشريعة وما هو الا ان يكشف الغطاء وقد ظهرت الحواس
وقال قرينه شيطانه الذي قارنه في الدنيا كقوله نقيض له شيطانا
فهو له قرين والشيطان الذي يجري مجرى الدم هو الذي من خارج
اذ الصفة واحدة وقوله هذا ما لدي هذا اعتراف القرين حين
راى النار وهو كقوله للكفار هذا ما وعد الرحمن لان الله تعالى لما كشف
الغطاء راى المجرم النار وهو كقوله وراى المجرمون النار فظنوا انهم
مواقعوها فقال قرينه الذي اضله في الدنيا معتذرا هذا ما لدي عتيد
من قوله انا اعتدنا جهنم للكافرين ولهذا بعده ها هنا ما تقديره قال
الله للملكين القيا في جهنم كل كفار عنيد معاند لله مناع للخير
معتد مريب متشكك في صدق الرسل وما جاؤوا به من التوحيد
الذي جعل مع الله الها آخر وكرر الالقاء لما بعده ولهذا قاله بالفاء
فالقياه في العذاب الشديد ولما قال تعالى كل كفار لزم ان يكون
الالقاء للانسان وشيطانه معا ودليله واذا القوا منها مكانا ضيقا
مقرنين اي هم وقرناؤهم وتقديره فالقياهما الملكان مع الكافر
ولقرينه فاقترنا في الجحيم كاقترانهما في الدنيا قال قرينه مستغيثا

ربنا ما اطغيته لانك لم تجعل لي عليه سلطانا ولكن كان في ضلال بعيد
عن الهدى وحذف عند قوله القيا ما تقديره قال الله وانما حذف لكونه
استغنى هاهنا بقوله قال لا تختصموا لدي وقد قدمت اليكم بالوعيد
اي رسولا منذرا بالوعيد ورسالة صريحة به ما يبدل القول
لدي اي الذي قلته لكم في الدنيا وهو لاملان جهنم من الجنة والناس
وكقوله ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره وما انا بظلام للعبيد وذلك
كله يوم نقول لجهنم هل امتلات وهذه حالة من يقول حين الالقاء
وهو يلقي وتقول هل من مزيد وهي تلقى وازلفت الازلاف
اشد القرب لانه اعدام مسافة بين المتواصلين لا تعجيل قطعها
بل اذهاب البون من البين كذلك تقرب الجنة للمتقين وقوله
غير بعيد اي بوجه من الوجوه وهذا يصدق من قيل في حقه اذا
رأتهم من مكان بعيد لان هذا البعد وهم يساقون اليها هو اشد
عليهم من عذابها واما المومنون فانهم يجدون الجنة من مكان غير
بعيد لئلا يتحسروا عليها عند رويتها بل تعجل لهم عن اقرب ما يكون
فهو غير بعيد بوجه من وجوه البعد واذا كان هذا الوصف للجنة
فكيف لمن هو اقرب من حبل الوريد الى من في الجنة ولهذا قال
بعض العارفين فمن كرم الكريم ان تكون اللذة منه لعباده كاملة
ومن كمالها قربها ولا الذ من النظر اليه ولا اقرب من ذاتك اليك
والى هذا التجلي اشارت طايفة المتصوفة في الدنيا ولله ان يخاطب

من شاء بما شاء فكما يخاطب المرء بغيره يخاطبه بنفسه لانه عبد من بعض
عباده وكذلك في غير ذلك هذا ما توعدون خطاب عام
من حين الارسال الى يوم المعاد لكل اواب حفيظ حافظ عهوده
مع الله بعد اوبته رجعته اليه بالتوبة من خشي الرحمن بالغيب
وجا يوم القيامة بقلب منيب ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود
لهم ما يشاؤن فيها وهذا غير ما وصفها به من الاوصاف المذكورة
ولدينا مزيد وهذا غير ما يخطر في بالهم هناك فضلا عن انه
يخطرها هاهنا في بال او يشار اليه بمقال فهذا المزيد لا ينقطع
ولذلك لم يقل زيادة بل هو ابدا مزيد من زاد يزيد مفعول
ثم ذكر بعد هذا الوعد الجميل والاحسان الجزيل الى من صدق
الوعد حال من كذب الوعيد في الدنيا ممن كان اشد ممن كذب
هذا الرسول عليه السلام فقال وكم اهلكنا قبلهم من قرن
القرن مقدار التوسط في مقدار اعمار اهل الزمان فهو في قوم نوح
على مقدار اعمارهم وفي قوم موسى وعيسى وعاد وثمود على مقدار
اعمارهم ايضا واشتقاقه من الاقتران فكانه المقدار الذي اكثر
ما يقترن به اهل ذلك الزمان في بقايهم وقوله هم هي هاهنا
للتبيين وهي عايدة على القرن اشد منهم بطشا فنقبوا في
البلاد نقبوا جمعوا النقايب وهي الجماعات في البلاد طالبين
المحيص من اهلاكنا لهم ولهذا بعده هل من محيص ان في ذلك

لذكرى لمن كان له قلب يدرك الحق من نفسه او القى السمع لينذرك
من غيره ولما كان الانسان قد يلقي سمعه الى قول القائل ولكنه
لا يكون قلبه حاضرا فلا يكون بقلبه مشاهدا لما يلج في سمعه قال مع
ذلك وهو شهيد والمعنى اما انه يكون ذا قلب يفقه هذا
الكلام بموهبة من الله او يكون سامعا من ذي موهبة فاما عالم
او مستمع واع وقوله وهو شهيد عائد على القلب ولم يكرر فيقول
والقلب لان ذلك لازم ولا يكون ذو القلب شاهدا الا بقلبه
ثم عطف على قوله افعيينا ولقد خلقنا السموات والارض وما
بينهما في ستة ايام ادل على الحدث وفيه معنوية تعليم الصبر
والتؤدة وما مسنا من لغوب تعب واعياء والمعنى لم نتعب
حتى اننا خلقنا ذلك في هذه المدة لاجل ما مسنا من لغوب بل
لحكمة فاصبر على ما يقولون من تكذيبك وكفرهم بآيات ربك
وسبح بحمد ربك اي يقول الحمد لله الذي انقذني من ضلالهم ومثل
ذلك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ولم يذكر بعد ذكر الليل
سوى الليل ليعرفنا ان اول الليل هو من حين كمال الغروب ومن الليل
فسبحه وادبار اعقاب السجود وهذا امر بتسبيح في هذه الاوقات
لا بصلاة فان الصلاة غير هذا ولهذا قال قبل الغروب وادبار السجود
واستمع السمع ادراك المسموع والاستماع طلب الادراك بالاصغاء
اليه والمعنى واستمع ما يجري متعظا متذكرا يوم ينادي المنادي

من مكان قريب كل ذرة تسمع النداء من ذاتها لان الله اقرب الى ذات
الشيء من الشيء الى نفسه لانه تعالى كان عالما بالشيء قبل ايجاده له فكما هو
اعلم به منه كذلك هو سبحانه اقرب اليه منه يوم يسمعون
الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج فالخروج الثاني في النشأة الثانية
كالخروج الاول في النشأة الاولى ولهذا قال بعده انا نحن نحيي اي
نحن لا غيرنا نحيي من نحييه ونميت من نميته فهلا دلهم ذلك
على قدرتنا على الاعادة والينا المصير يوم تشقق الارض عنهم
سراعا اي يخرجون مسرعين ذلك حشر علينا يسير نحن
اعلم بما يقولون من انكار البعث وهو قولهم ذلك رجع بعيد
وهو مطلق ايضا وما انت عليهم بجبار تجبرهم على الايمان بالبعث
وباحكام القرآن فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ٥

٦٠

سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم والذاريات الرياح ذروا
مصدر من ذرى يذرو اي تذروه الرياح ومثله في المعنى اذرى يذري
فالحاملات الرياح لقوله حتى اذا اقلت سحابا ثقالا ويحتمل ان تكون
السفن التي تحمل وقرها وتجري بيسر وعن علي عليه السلام انها
السحب الثقال بما حملته من الماء وقرا ثقلا وانما كان القسم
بهذه الاشياء متتابعا للمماثلة صفاتها بعضها ببعض ولهذا وقع
الاشتباه مع جواز ان تكون الاشارة بالكل الى الرياح لان ذلك

أشبه فالجاريات تجري بأمره رخاء يسرا بيسر وسهولة فالمقسمات
أمرا أي بأمر وهي الرياح تقسم الغيث على البلاد بأمر الله كما يشاء وابن
بحر حمل الكل على الرياح لعطفه بالفاء وهو جيد ويحتمل أن اللفظ أتى
بصورة محتملة للرياح وغيرها ليدل على الجميع وإن كان أدل على الرياح
وقوله إنما بمعنى أن الذي توعدون وهي أولى أن تكتب مفصولة
لولا ترجيح صدق النقلة وصحة النقل كما بيناه في موضعه وبينا الكلمة
في ذلك وقوله لصادق أي لصدق صادق كما تقول بحر باحر
ومطر ماطر وإن الدين الجزاء لواقع والسماء ذات الحبك الطرايق
ولما أقسم باسم الجنس أشار إلى السبع الطرايق المطروقات بالكواكب
وعرفها هاهنا لئلا تشتبه بسماء الغيث والحبك إحادة النسج
والحبك بضم الباء جمع حبك بتخفيفها والحبك بمعنى الحبوك إنكم
لفي قول مختلف هذه الجملة جواب القسم ولو قال لفي قول مخالف
لدل على أنهم اتفقوا على قول واحد لكنه مخالف للحق والمراد أن
القول في نفسه مختلف يخالف بعضه بعضا وإذا كان مختلفا في
نفسه فهو غير واحد والحق واحد يخالفه وقوله يؤفك يخدع
بالكذب عنه من أفك والفرق بين الإفك والكذب أن الإفك
خديعة بالكذب ثم قال قتل الخراصون الحزارون لأن الذي
يحزر تختلف أقواله والإشارة إلى من تقدم من المذكورين الذين
هم في غمرة ما يغمر من الجهل كما يغمر الماء ساهون عن الإنذار

يسألون مستهزئين أيان أي أي أوان يكون يوم الدين فقال الله تعالى يوم
هم على النار يفتنون لأن الصراط موضوع بين ظهري جهنم والفتنة
هاهنا يريد بها العذاب وهو من باب إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا
وحذف ما تقديره يقال لهم ذوقوا فتنتكم سمى العذاب هاهنا فتنة
لأنهم فتنوا أنفسهم بتكذيب وقوعه فهم الفاتنون وهم المفتونون
كأنه قال ذوقوا عذاب فتنتكم لأنفسكم هذا الذي كنتم به تستعجلون
أي بوقوعه في الدنيا لكونكم كنتم تكذبون به وتحذرون صحته إن المتقين
في جنات وعيون آخذين ما آتاهم ربهم من ضروب الإحسان
الذي له لذة لا تسع إدراكها الأذهان إنهم كانوا قبل ذلك محسنين
الأقوال والأفعال والظنون والعقايد وإلى أنفسهم وغيرهم ولهذا
لم يقيده ثم وصف بعض صفاتهم التي هي من جملة الإحسان
ليتنبه على مثلها فقال كانوا قليلا من الليل ما الذي يهجعون
أي يهجعونه وحذفت الهاء للوزن يقال أتانا فلان بعد هجعة أي بعد
نومة يسيرة من أول الليل والهجعة منه كالجلسة من الجلوس وهجع
جوعه إذا انكسر ولم يشبع قال أبو قيس بن الأسلت

قد حصت البيضة رأسي فما أطعم نوما غير تهجاع

وبالأسحار هم يستغفرون وفي أموالهم حق وهو غير
الزكاة وإن جاز دخول الزكاة في ذلك وقوله للسائل يريد الذي
يسأل كائنا من كان والمحروم ضد المرزوق ويريد به المحروم

من جهة الله سبحانه لانه هو الرزاق والمغني وفي اموالهم حق للسايل وان
لم يكن محروما والمحروم وان لم يكن سايلا فيهما ولا جعلوا في اموالهم حقا
لمن يسال ولمن لا يسال وقال الشعبي اعياني ان اعلم ما المحروم وقال
تعالى في اصحاب الجنة التي اصبحت كالصريم فلما راوها قالوا انا لضالون
بل نحن محرومون وكذلك في سورة الواقعة في الحرث فالحرمان
ان يذهب جميع مال الغني لا بعضه فليس الحرمان ان المال ينقص
لان اصله ماخوذ من الحرام والحرام لا يكون فيه شي حلال فكان
المحروم قد حرم عليه رزقه لكنه محروم بالفعل مانع من التصرف
وليس بالقول فهو الذي يمكن التصرف فيه وان كان حراما ومن
هاهنا قال ابن عباس هو المحارف والنص قد بين المقصود وفي
الارض ايات للموقنين ايقنوا ان لا منعم الا هو امن هذا الذي يرزقكم
ان امسك رزقه فلا يخلون بنعم الله على عباد الله ولما كانت النعم
تنقسم الى قسمين باطنة وظاهرة ذكر الظاهرة البعيدة بقوله
وفي الارض وذكر الباطنة القريبة بقوله وفي انفسكم وجعل
الجميع ايات وهي العلامات الدالات على الصانع لان النعم والنقم
علامات والنقم في الدنيا نعم في الحقيقة لانها مكفرة ومانعة
عن كسب ما يوجب امثالها فالكل نعم ايات ثم قال ما يجمع بين
البصر والبصيرة وهو الابصار افلا تبصرون اي ما في الارض
بالابصار وما في الانفس بالبصاير وهذا كلام جامع عظيم لا

يدرك وصفه ويفقه منه ما معناه افلا تبصرون انكم تبصرون فيكون نفس
الابصار ايضا بصرا وبصيرة من جملة الايات بل من اظهرها ولهذا خصصه
بالذكر هاهنا اذ به تظهر الايات التي هي مظاهر القدرة واثار الرحمة
ومن هاهنا قال بعض المتصوفة واصفا العموم نظره الى تجلي ربه بساير
مبدعاته ظاهرا وباطنا تجلى بكل فكل ناظر يرى انه ناظري والنظر
فرندقة من لم يفهم مراده بهذه العبارة ولهذا قال فكل ناظر فبين
انه يرى في نظره ذلك لفرط القرب لا انه كذلك في الحقيقة وقوله
وفي السماء رزقكم يريد المطر اذ به تحيى الارض وما فيها وما
توعدون عايد الى قوله في اول السورة انما توعدون لصادق وهو
من الوعد والوعيد والله سبحانه يدبر الامر من السماء الى الارض
وتنزل الملايكة بالروح وغير ذلك من حديث الجنة فورب
السماء والارض لانه قدم ذكرهما انه اي ان ما توعدون في هذا
القران لحق كما اقسم ان العذاب لات لواقع وقوله مثل ما
انكم تنطقون يحتمل ما معناه كما لا تشكون في انكم تنطقون كذلك
لا شك فيما توعدون والاولى ان المراد عايد الى الجزاء وهو ما تقدم
وعدا ووعيدا بقوله وان الدين لواقع فاشار الى سهولة ذلك
اي مثل ما انكم تنطقون كذلك نقول للشي كن فيكون ولهذا ذكر
بعده مثلا بوعد ووعيد قال الله له كن فكان وهو قوله وهل اتاك
حديث ضيف ابراهيم المكرمين وهم الملايكة لقوله كراما كاتبين

وهذا الاكرام هو من قوله ان اكرمكم عند الله اتقاكم اى اعظمكم استحقاقا
لكرامة الله ولهذا قلنا ان المومنين من البشر خير البرية وانهم اكرم عند
الله من الملائكة لان الله يقول ولقد كرمنا بني ادم فذكر مضاعفة
الاكرام ولم يقل هاهنا المكرمين بتشديد الراء ولهذا اتبع قوله
كرمنا بقوله وفضلناهم ولزم ان يقول على كثير لان الباقين غير مكرمين
وافقه معنى قوله على كثير ولم يقل على الكثير او الاكثر لان الملائكة ليسوا
باكثر من بقية الخلق فوصفهم بانهم كثير لا الكثير ولا الاكثر وقوله
اذ دخلوا عليه تقديره قوم منكرون اى عنده واخر للوزان
فقالوا سلاما وهو من السلامة ونصب بالقول ورفع الثاني على
الحكاية قال سلام قوم منكرون فراغ الى اهله فجاء بعجل سمين
انظر كيف يضيف الكريم لمن لا يعرفهم من الاضياف فقربه اليهم
لانه قدمه اولا فلما لم يمتدوا اين عنهم اليه قربه ولهذا قال بالفاء
قال الا تاكلون اى فلما لم ياكلوا انكرهم فاوجس منهم خيفة تقدم
اوجس في قصة موسى عليه السلام قالوا لا تخف وبشروه بغلام
عليم سمى اسحاق هاهنا عليما وسمى اسمعيل في سورة الصافات حليما
لئلا يشتبه الذبيح ولهذا قال هناك بالواو بعد الفاء عاطفا بالواو في
قوله بشرناه باسحاق وقال هاهنا بالواو ايضا وبشروه وقوله
فاقبلت ليس من الاقبال من موضع الى موضع بل هو من قولك اقبل
يقول كذا ومثله قالوا واقبلوا عليهم فاقبلت امراته في صرة

تقدم ومعناه من الصرة وهو المربوط والمعقود كما يعقد بالحاجبين
فيصر احدهما الى الاخر عند استنكار مسموع او مرئي وصر الفرس
اذنيه اذا جمعهما والصرة ايضا الشدة من كرب وغيره كما تقبل
العجوز الضعيفة فصكت فضربت وجهها وقالت عجوز
عقيم بلد اى كيف يكون هذا قالوا كذلك تقرير ما تقدم
اى هكذا قال ربك انه هو الحكيم العليم قال فما خطبكم ايها
المرسلون قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة
من طين مسومة مرسلة مساقة من عند ربك للمسرفين
عقابا لهم فاخرجنا من كان فيها من المومنين لوط ومن نجا
معه فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين قدم ذكر المومنين
وذكر بعده المسلمين لئلا يتكرر والاسلام لازم عن الايمان
فلو عكس لم يجز وتركنا فيها اية للذين يخافون العذاب الاليم
وفي موسى اذ ارسلناه الى فرعون بسلطان مبين فتولى
بركنه اى بخاصته الذين يركنون اليه ويركن اليهم ومنه قوله
او اوى الى ركن شديد لانه لم تكن له عشيرة ولا من يركن
اليهم وقال ساحر او مجنون فاخذناه وجنوده فنبذناهم في
اليم وهو اى فرعون مليم وهو الذي اتى بما يلام عليه والملوم
هو الذي وقع عليه اللوم وفي عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم
بمعنى العاقمة لانها لم تترك منهم من يولد ولا من يلد ويبته

بقوله ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم وهو العظم البالي
المتهري وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين فعتوا أي ممتنعين
عن قبول أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون فما استطاعوا
من قيام وهو من الإقامة كقوله وإذا أظلم عليهم قاموا وما كانوا منتصرين
لأنفسهم بعد ذلك وقوم جميع ما عدده معطوف على قوله وفي الأرض
آيات ثم ذكر الآيات في قوم بعد قوم قوم نوح من قبل إنهم كانوا قوما فاسقين
ولما ذكر الخلق وقدرته عليهم في الدنيا بما ظهر من الجزاء لهم وعدا ووعيدا
ذكر بعده القدرة على ما هو أعظم منهم وهذا من باب قوله أأنتم أشد
خلقا أم السماء فقال هاهنا والسماء بنيناها بأيد بقوة يقال أيدك الله
أي قواك وإنا لموسعون أي لو شئنا لفعلنا ما هو أوسع منها ولم يقل
لو سعناها بل أشار إلى أنه يوسع ما شاء دائما والأرض فرشناها فنعم
الماهدون ومن كل شيء خلقناه خلقنا زوجين يريد ضدين
ليلا ونهارا حامضا وحلوا صحة وسقما حياتا وموتا مضافا إلى الحيوان
والنبات وغيره لعلكم تذكرون أن لا واحد إلا الله سبحانه ولهذا
بعده ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين والوجه في كونه كرر
إني لكم منه نذير مبين أنه لما كان الكافر ينقسم إلى قسمين أحدهما
من يجحد الإله إما بأن يعبد غيره أو أن لا يعبد شيئا والثاني من
يعبد الله لكنه يعبد معه إلها آخر فأنذر أولا وأمر بالفرار
من كل إله دون الله إلى الله ثم بعد ذلك قال ولا تجعلوا مع الله

إلها آخر إني لكم منه نذير مبين مضافا إلى ما فيه من التأكيد المنبه
على فرط الحذر والإنذار كذلك مقدم وموضعه بعد قوله قالوا وقدمه
فصاحة وليخبر به عن حالة مستمرة لهاولاء وأسالهم وليكون اللفظ
المقول تابعا للقول ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا تقديره
كذلك ساحر أو مجنون أتواصوا به أي ليس كذلك بل هم قوم
طاغون فتول عنهم كقوله فأعرض عنهم فما أنت بملوم إذا توليت
عنهم ولما كان التولي مشتملا من باب الاحتمال على قسمين أحدهما أن
يتولى عن مكافاتهم والثاني عن تذكيرهم قال بعده وذكر ولم يقل
وذكرهم بل بين المراد بقوله فإن الذكرى تنفع المؤمنين منهم أي
من يؤمن وإن كانت حجة على الكافرين وما خلقت الجن والإنس
إلا ليعبدون أي ليكونوا أهلا لعبادتي ولا تفهم أنه خلقهم لسبب
موجب عليه أن يخلقهم وهو العبادة لأنه تعالى إذا خلق مخلوقا لشيء فلا بد
من وقوع ذلك الشيء وإلا يعود الخلق باطلا والخالق عاجزا جل وعلا وإذا
لم تفهم معنى قوله ليعبدون عارضه من عبد اللات والعزى ولكن
معناه أي ما خلقتهم على ما هم عليه من التمكن والقدرة والاختيار
ليعبدوا غيري بل ليكونوا متمكنين من عبادتي بما أنعمت به عليهم فأجزيهم
بالإحسان إحسانا وهذا الذي قيل إنه علة خلق الخلق وسنبينه بعد
نجاز هذه السورة ومرادنا هاهنا هو بيان ما لا ريب فيه من أن
العباد غير مجبرين لأنه سبحانه لما أمر رسوله بالتولي عنهم لكفرهم

وبالذكرى لأنها تنفع المؤمنين منهم قال تعالى معرفا لخلقه باسرهم انه
لم يخلق غير المؤمنين لأجل الكفر به دون المؤمنين وانما خلق الجميع اهلا
لشيء واحد وهو عبادته فان قيل يلزم من قولك انه خلقهم اهلا
لعبادته انه تعالى خلقهم اهلا لعبادة الشيطان ايضا قلت الامر
كذلك لا يزيد ولا ينقص لكنه خلقهم اهلا لعبادة الشيطان من اجل
عبادة الرحمن ولا يجوز العكس وبهذه الصورة يظهر كمال الاحسان
منه سبحانه وذلك انه خلقهم اهلا لعبادة الشيطان او الرحمن
واهلا للكفر بمن شاؤا منهما فاذا عبدوا احدهما وكفروا بالاخر
حصل لهم الغاية القصوى من النعيم والجحيم فيكون الجزاء لهم بصورتين
لا باحديهما فيترقون بترك عبادة الشيطان كما يترقون بنفس عبادة
الرحمن وهو معنى قوله تعالى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فلما اخبر
سبحانه عن الجن والانس اجمعين بقوله الا ليعبدون عاد كفرهم
بالطاغوت من جملة العبادة ولا شك انهم لا يقدرون على الكفر
بالطاغوت الا اذا كانوا قادرين على الايمان به فخلقهم قادرين
على الايمان به ليكفروا لا ليؤمنوا فافقه هذا جيدا فقد ذكرناه
في عدة مواضع لعظم الانتفاع به وفرط الاحتياج الى فهمه واذا
كان الله سبحانه لم يجبرهم على عبادته مع كونه قد اخبر انه لم
يخلقهم الا لاجلها فكيف يجوز في عقل عاقل ان يعتقد انه تعالى
اجبرهم على عبادة غيره وعلى الشرك به وقد نهاهم عن ذلك

في

في جميع القرآن ولهذا لما قال الم اعهد اليكم يا بني ادم ان لا تعبدوا
الشيطان قال جبلا افلم تكونوا تعقلون ثم قال هذه جهنم وتمام
الاية واذا كان الكفر بغيره هو من جملة عبادته بل متقدم على
على الايمان به سبحانه فقد صح قوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون
وصح انه لم يخص بعض العباد دون بعض بايمان ولم يجبرهم على كفر
كما فهم من لم يفهم من الحديث هؤلاء الى الجنة ولا ابالي وهؤلاء
الى النار ولا ابالي فذلك اخبار عمن تقدم العلم بما سيكون منهم
وبان الله غني عنهم ولما بين للجميع ما اراده لهم منهم وانه مكنهم
من عبادته غاية التمكين بصرفي الكفر والايمان زاد الكلام ايضاحا
لبعد افهامهم فقال ما اريد منهم من لتبيين الجنس رزق واشار
الى كل مطلوب يطلبه الطالب فيرزقه باي صورة كان من غير ما
يطعمه ثم قال وما اريد ان يطعمون وهو يعم ما يدخل الفم من طعام
وشراب وهو زيادة في البيان ودلالة لهم على فرط فقرهم باضطرارهم
الى الطعام ولما كان الجميع يرجع الى الرزق قال تعالى ان الله هو
الرزاق اي لا غيره فكيف يعبدها ولا من لا يرزق ثم وصف نفسه
سبحانه بعد اظهار القدرة على النعمة بالقدرة على النقمة فقال ذو
القوة المتين الشديد فان للذين ظلموا ذنوبا نصيبا واصله الدلو
الممتلي ماء وانما قيل للدلو ذنوب لانه في طرف الحبل الذي كانه ذنب له
وقوله مثل ذنوب اصحابهم الذين كفروا من قبل ممن ذكرناهم

واهلكناهم بذنوبهم وتكذيبهم وظلمهم لانفسهم فكان نصيبهم النار في
الآخرة والإهلاك والعذاب في الدنيا فلا يستعجلون اي يستعجلوني
وحذف الياء للتبني ولهذا لم يقل فلا يستعجلوا وبين حذف الياء بكسر
النون فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون واذ قد
نجزت هذه السورة فلنذكر كلاما مفيدا لم ازل طول عمري اتطلبه
حتى وقعت بكتاب يقال له جواب مسئلة الأمير عضد الدولة في حسن
ارادة الله تعالى لخلق الخلق وانشاء الانام لابي عبد الله البصري رضي
الله عنه وقد ذكر فيه ما تقول الفرق الضالة ورد عليهم وذكر
ايضا فيه علة خلق الخلق فاثبت منه هاهنا ما رايت اثباته نافعا
فيما كان يشكل علي واختصرت كثيرا ولم اخرج عن المعنى سوى
انني زدت عليه زيادات وجب عندي اثباتها وهي اجوبة
مسايل مكتوب عليها تلخيص قال رحمه الله تعالى انما
حسنت ارادة خلقهم وانشائهم في الابتداء عندنا لانها
ارادة لخلق بعض لينفعه ولينفع به غيره على الوجه الذي يحسن
ان ينفعه وينفع به من غير ان يكون فيها وجه من وجوه القبح
وارادة لخلق بعضهم لينفع به غيره حسب على الوجه الذي
يحسن ان ينفعه به من غير ان يكون فيها وجه من وجوه
القبح فالذي اراد خلقه لينفعه هو الحي المشتهي وذلك
ان المنافع هي اللذات والسرور وما ادى اليهما كالاعراض

وما يجري مجراها لا يجوز عليه المنافع فصح ان المنافع هي اللذات والسرور
وما ادى اليهما اذا لم يعقب ذلك ضررا يوفي عليه هذا كلامه بعينه
من غير اختصار ثم قال ما معناه فان قيل ولم كان ما اعقب ضررا
لا يكون نفعا وان كان ملذا قلنا لان من اطعم غيره خبيصا مسموما
فتلف به لم يكن نافعا له لما ادى اليه من الضرر الذي يوفي على
التذاذه به ولا شك انه على حسب نيل المشتهى يلتذ المشتهي
ويسر ويزيد التذاذه وسروره بحسب زيادة ذلك وينتقص
بحسب انتقاصه خصوصا اذا حصل للمشتهي على الوجه الذي
اشتهاه وقد يكون غير الملذ نافعا كالدواء فهو بالعكس من الخبيص
ولا ينتقض ما قدمناه اذ المقصود بالنافع اذا لم يكن لذة عاجلة
فلا شك انه لذة اجله فزبدة الايجاد ليس الا لذة وربما الاشك مختلفة
وقد شهد العقل ان بعضها وهو مما في الدنيا لا تحصره الاقوال ولا
تعبر عنه الامثلة ولا يحصل من الاشارة اليه طايل ولا يدرك
الا بالذوق كما يجد العاشق بالنسبة الى الخلي الذي لم يذق العشق
وذو الحاسة بالنسبة الى من خلق فاقدها واذا صح ان الذي ينتفع
ويلتذ هو الحي المشتهي فيجب ان يكون ما ليس بحي ولا مشتهي لا
تجوز عليه المنافع كالموات والجماد والنامي وهذا هو من القسم
الآخر الذي لم يرد خلقه لينفعه بل لينفع به حسب واذا
ثبت هذا وكان النفع على وجهين مستحق وغير مستحق وكان

من المستحق ما لا يجوز الابتداء به كالثواب الجاري مجرى الشكر والتعظيم
في أنه لا يجوز الابتداء به ومنه ما يجوز الابتداء به كالأعواض التي تستحق
بالآلام ومنه ما يبتدئ الله به على غير الوجهين المذكورين فإذا صح هذا
وكان الحي المشتهي العاقل أن ينتفع بالنفع المبتدأ وبالنفع المستحق يصح
على وجه العوض وعلى وجه الثواب فيجب أن يكون الله تعالى قد
أراد بخلقه في الابتداء أن ينفعه على هذه الوجوه الثلاثة وذلك
أنه لو لم يرد نفعه بالثواب الذي لا يحسن أن يبتدئه به لم يكن
لإكمال عقله وجعله على الصفة التي يصح معها وقوع القبيح منه وأن
لا يفعل ما يجب عليه معنى ولا يشبه هذا ما يفعله من ذلك من لا
عقل له كالحيوان لأنه خلق لأجل غيره ولم يخلق للتعريض للثواب
فأما إذا رأيناه سبحانه قد آلم غير كامل العقل كالطفل تحققنا أنه أراد
بذلك ما يستحق به من العوض على الألم إذ لو لم يرد به ذلك لكان
ظالما ولا يصح فهو معرض للأعواض لا للثواب أعني بعد عبوره
فأما إن طال عمره فحكمة تلك الابتلاءات ظاهرة من كونها تربية
ورياضة واستدراجا لأنه مستقبل في عمره أنواع الابتلاء
من أجل تكفير السيئات وتوفير الحسنات فلو لم يستدرجه
في الابتلاءات أولا فأولا حتى حدث له شيء من ذلك فيما بعد
بغتة هلك لا محالة فإنه لم يخلو إلا الابتلاء لحكمة فيما يحل به في
الصغر كحكم الحبة في بطن الأرض يرد عليها ما يحيلها ويفسدها

ليظهر منها لما من أجله وضعت في الأرض وفي ذلك أيضا تكفير لذنوب
أبيه وأمه لما يصل إلى قلوبهم من الألم لا يمكن أن يصل بغيره مثله تارة
بمرض الولد وتارة بموته وفي ذلك ضرب عظيم من الاعتبار لمن كلفه
لأنه لو عري من حكمة لكان عبثا ولا يصح ذلك من الحكيم العليم سبحانه
ولأنه غني عن ذلك وقادر على أن لا يكون ويجب أن نعلم أنه ما دام
الطفل لم يبلغ حد التكليف فحكمه حكم من خلق لغيره في أكثر الأمر
علت لا في كله وكلما زاد عقله رتبته وكذلك حاله بعد البلوغ إلى أن يصل
إلى رتبة الإنسانية فيعود مخلوقا لنفسه ولغيره لأن الله ينفع
الكل بالكل فأما النفع المبتدأ فلا إشكال في أن الله تعالى قد فعله
بنا كما بدأنا بالحياة والشهوة وغير ذلك من غير أن نستحقه من باب
العوض ولا من باب الثواب   فإن قيل ولم لا يجوز أن يريد
بخلقه أن ينتفع على أحد الوجوه التي ذكرتم دون جملتها وإن كان
لا يمتنع أن ينتفع بكلها قلنا إذا صح انتفاعه على الوجوه التي بيناها
لم يجز ذلك لأنه يكون في حكم العبث من الوجه الذي لم يرد ذلك
منه كما أنه لو لم يرد بخلقه أن ينتفع بوجه لكان عابثا في خلقه
على سائر الوجوه التي خلقه عليها ولأن إطلاق القدرة له سبحانه
يقتضي في العقل عموم النفع منه سبحانه لا بعضه   فأما إرادته
بخلقهم في الآخرة فلمثل ما ذكرناه بعينه من أن ينفعهم بالثواب
المستحق على التكليف وبجزاء الابتلاء وهو الأعواض وبالنفع المبتدأ

كل ذلك في دار البقاء لأن كمال الإحسان يعطي ذلك فيما يفنى وفيما يبقى
فأما النفع المبتدأ فلا شك أن ما كان منه على طريق الإحسان إذا لم يكن
فيه وجه من وجوه القبح يحسن في عقل كل عاقل   وأما خلقه
لما عرضهم إليه من طريق النفع بالأعواض أن تعريضنا لغيرنا بعمل
يستحق به العوض على وجه يحسن عليه حسن إذا لم يعرض
فيه وجه يقبح له إلا أن يكون النفع يوفي على ذلك الوجه الذي
يقبح فيه   وأما النفع على طريق الجزاء على التكليف فحسنه ظاهر
لأنه يوفي على ما تألموا بمشقة مباشرته إلى ما لا نهاية له وهو
الخلود في الجنة   فإن قيل لو خلقهم على صورة لا يحتاجون معها
إلى التكليف وآتاهم ما يؤتى المكلف المحسن لكان الإحسان منه
أبلغ قلنا لو فعل ذلك بهم لكان ذلك من القسم الأول لأنه يكون
قد ابتدأهم بالإحسان ولا يكون ذلك دالا لهم على تمام القدرة منه
سبحانه ولا على تمام الإحسان بل على العجز ومن ذلك وقد أبطلنا
ذلك أولا   ومن أتم الإحسان إليهم تعريفهم به سبحانه ولا
يكون الطريق إلى ذلك إلا بمعرفة صفاته وأسمائه الحسنى لمعرفة
قدرته وكمال إحسانه ومثل ذلك ولا شك أن الجزاء لا يكون
إلا على قدر المشقة ولهذا يستحق الباري تعالى منا الحمد والشكر
ولا يقال إنه يستحق الجزاء لأنه لا مشقة عليه في فعل ما فعله
من الإحسان   فإن قيل هذا كله حكم من يسلم منهم وهو صحيح

على ما قدمته من أن الله تعالى خلقه ليحسن إليه فكيف حكم من يخلد منهم
في العذاب المؤبد وهل هو بعد ما علم الله منه أنه لا يقبل وإن كان
قد أقدره على القبول وأزاح علته إلا كمن علم من زيد الغريق أنه
إذا أدلى إليه حبلا ليتخلص به من ألم الاختناق سيأخذه ويخنق به نفسه
مع قدرته على أن يتخلص به فهو وإن كان محسنا إليه فيما قصد فقد
أساء إليه لما علم منه التعجيل على نفسه بالخنق الذي هو ضد المقصود
بإدلاء الحبل ولو قلنا إن زيدا هو الجاني فإن من أدلى إليه الحبل لم
يرد إلا الإحسان إليه فلا شك أن اللائمة تقع عليه   يقال له
إذا سلمنا أن الضرر لم يلحقهم بخلقه تعالى لهم بل بمخالفتهم له فهو
من فعلهم لا من فعله بهم فكيف ينسب إليه ما ليس منه وقد تحققت
أنه إنما أقدرهم على الخير ليفعلوه وعلى الشر ليجتنبوه فيحصل لهم
الجزاء منه سبحانه على الصور تمييز بالشيء وضده وهل حكمهم في ذلك إلا
حكم من أدخل إلى غيضة مثمرة ومكن من تناول ما شاء منها وعرف ما
فيها من الضار والنافع ليأخذ النافع ويجتنب الضار فعكس الأمر فلما أخرج
منها سقيما حصل عنده من الأسف على ما فاته من لذته أضعاف ما ناله
مما جناه على نفسه من سقمه وذهاب صحته فإن قال إن قلتم إن مدخله
إلى الغيضة مجبر على إدخاله مع علمه بما له وإلا فلا إشكال على حاله
يقال له لا شك أن مدخله إليها مختار لأنه القادر المطلق ومن له إطلاق
القدرة لا يكون مجبرا على أن يفعل ولا بد ولا على أن لا يفعل لأنه يكون

أي أحد القسمين عاجزًا وإذا كان عبثًا عن الفعل ومن الجايز أن يفعل الفعل
لحسنه ثم رأيناه قد فعل تحققنا أنه لم يفعل إلا لحكمة لأنه تعالى لا
يوصف بنقيض العدل والحكمة وإن لم نعلم وجه الحكمة لأن المعروف
بالصدق كالنبي الذي صحت نبوته لا يلزم أن نعتبر جميع
أقواله وأفعاله بعد ما صح أنه صادق وإن جاز أن يسأل عن وجه
الحكمة ليتأكد الإيمان بها هذا مختصر كلام البصري رضي الله عنه
وهو صحيح في الأصل لكنه يحتاج إلى شرط وزيادة بيان لينحل
الإشكال بأهل النار وتحقق وجه الحكمة الإلهية في خلق الكفار
ويصح فضله تعالى وعدله في نظر النظار وقد بيننا ذلك في تلخيصنا
أخيرًا فافهمه جيدًا تفز بالحق وتزدد إيمانًا بالله إن شاء الله تعالى
ومما ذكره البصري رحمه الله تعالى ورددنا عليه من جنسه

فصل في أن الله تعالى خلق الخلق لعلة أم لغير علة

فإن قيل لا لعلة فهو العبث وإن قيل لعلة فإن قلتم إنها لم تزل لزم
أن يكون المعلول لم يزل وإن قلتم إنها محدثة لزم أن يكون لها علة
والتسلسل محال يقال له خلقهم لعلة لكنها غير موجبة
لخلقهم فهو غير مقهور بالإيجاب لأنه لو كان مقهورًا لخرج
عن أن يكون مختارًا وعن أن يكون له القدرة المطلقة فإن قال
وكيف تكون العلة غير موجبة وهي علة يقال له إن العلل تنقسم
إلى قسمين علة موجبة وعلة غير موجبة فالتي هي غير موجبة

هي التي يفعلها فاعلها على طريق الإحسان إن شاء ذلك ويكون له أن لا يفعله
كما يقول القايل فعلت هذا لأجل كذا يريد الغرض الذي لأجله فعل
وإن لم يكن ما سماه علة سببية موجبة لفعله فإن قال إن الفاعل
منا إنما يفعل لجلب منفعة أو لدفع مضرة أو يكون عابثًا قيل
له إن القادر الغني منا قد يفعل الفعل لحسنه وإن لم يجر به
منفعة أو يدفع مضرة وإن لم يره أحد أو يتوقع بفعله ما يتوقع به
غيره ومع هذا فلا يكون عابثًا ولا نقول إنه فعله من باب ما يجب
عليه أو يضطر إليه بل لحسنه مع كونه غنيًا عن فعله وبهذا يصح
أنه كريم وأنه يستحق الحمد كما بيناه بما ألحقناه في آخر سورة
الكهف ويجب في عقل كل عاقل أن يعرف الحسن والقبيح إذا
تعلا معه فلا يكون الإحسان قبيحًا من فاعله وقد بينا اللزوم أنه
تعالى أراد أن يحسن إلينا ولا يجوز غير ذلك لقبح القبيح وقبح
العبث وانفراده سبحانه بالغنى الأكبر وإذا صح أن فعله غير
قبيح ولا عبث فقد صح حسنه ولم يجب عليه فعله بل حسن
كما قدمنا فإن قيل حسن الحسن لم يستجد بل لم يزل في العلم
الأزل فلم لم يتقدم الفعل الذي لما فعله إنما فعله لحسنه قلنا
لما لم يكن المبدع مبدعًا إلا بعد أن لم يكن مبدعًا والمبدع ليس
له أول وما ليس له أول متى فعل لزم فيه هذه المعارضة إذ القبل
والبعد لا يتصور إن فيما لا أول له ومتى لزم أن يكون مختارًا غنيًا

بذاته مطلق القدرة بطل جميع ما يعارض به معارض ولزم صحة
جميع ما قدمناه **وإيضاح ذلك** أن نقول إنه إنما استحال
الفعل فيما لم يزل لنفي أولية الأزل وإثبات أولية الفعل والجمع بين ما له أول
وما لا أول له محال ولا يقال ذاته تعالى علة الوجود إذ ذاته تعالى لم تزل
فلو كانت علة لزم قدم المعلول وقد انتفى قدمه بما تقدم ولأن وجود
المعلول مع العلة بالذات منتف إذ لو لم تتقدم لم تكن علة ولهذا
لا يكون سبحانه علة لذاته فافقه هذا الإيضاح واحفظه فإنه نافع
جدًا فإن قيل إذا كان قد فعل الفعل الحسنة فقد وجب الاستمرار
به سرمدًا فيمكن أن يقال كما لم يجب عليه من قبل كذلك لا يجب من بعد
وقد بينا ذلك في آخر التلخيصات من آخر الكلام فيما يتعلق بهذه
السورة وهو عجيب لم أسمع بمن تكلم فيه ويجب أن تعلم أن
أسماء الصفات هي علامات لنا على كمال الذات وليست من لوازم
كمال الذات فإن ذواتنا تكملها الصفات وذاته تعالى تكمل الصفات
فهو مكمل الكمال ومتمم التمام فهو فوق الكمال والتمام ويطلق عليه
اسم الوجود للتعريف بأنه معطي الوجود لأن الوجود من الأسماء
المشتركة واللفظ يشملها كلفظ العين الذي يطلق على الباري
لا بالمعنى الذي يطلق على سائر الموجودات وذلك كالوحدة فليس
ثم خصوص وعموم ولا اشتراك ولا افتراق ولا ضد لأنه تعالى
لم يكن معدومًا فيما كان ولا فيما يكون وكذلك فافهم في حق

كل صفة من صفاته فإنه يقع فيها هذا الاشتراك والله منزه عنه
فله الأسماء الحسنى لا على معنى الوصف والصفة بل كما قال علي بن أبي
طالب عليه السلام في توحيده لا يوصف بوصف ولا يحد بحد
ولا يقدر بمقدار الذي كيف الكيف لا يقال له كيف والذي أين
الأين لا يقال له أين لكنا نطلق عليه الأسماء بمعنى الإعطاء فهو موجد
بمعنى أنه يعطي الوجود وعالم بمعنى أنه واهب العلم للعالمين وواهب
القدرة للقادرين والحياة للأحياء ولا نقول إنه عالم لذاته
أو بعلم له مثال في أنفسنا بل هو إله العالمين بالعلم والعالمين
بالذات وهذا ليس بتشبيه ولا بتعطيل بل هو استدلال
بالقدرة في القادرين والعلم في العالمين على أنه قادر وعالم
مع اعتراف العقل بأن الله سبحانه قد تعالى أن يتصرف في جلاله
فكر عقلي وخيال وهمي ومثال نطقي فيقال هل الصفات لذاته
أو لمعان قائمة بذاته فإنه عز وجل لا تحصره المعارف ولا
تحيط به الألفاظ ولا معنى لكلام علي عليه السلام لا يوصف
بوصف إلا هذا ولهذا أجمع السلف على أن ما دار في الوهم أو
خطر في الخيال والفهم فهو تعالى خالقه ومبدعه ولهذا قال القائل
منزهًا له سبحانه ومبينًا كيف الواجب ن

لك من فؤادي رتبة لا تدرك ... وسواك مني ذرة لا يملك
ولقد كففت خواطري عن أنها ... تومي إليك أخاف أني أشرك

وصرفت وجهي عن جنابك غيرة مني عليك فلست نحوك اسلك
ووقفت عند الامر معترفا بلا قصد اختيار لي فاني اهلك
حسبي بان عرضتني لرضاك لي وهديتني كرما فبان المسلك

واذا كان هذا الكلام مما يعظم به الخوف في انفس الخلق ويحقق لنا تنزيه الباري تعالى عن الظلم والقبح ويظهر لنا من خالقنا غاية الاحسان فقد حصل الانس ولزم الحب وذلك من اشرف المطالب وجميع ما قررناه موضح لقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون اذ في العبادة لنا جزا يعود علينا فصح انه انما اراد بذلك كله ان يحسن الينا واذا لم يمتنع ان ينتفع من هو حي مشتهي بساير الصور الممكنة في العقول فيجب ان يريد بخلق الحي المشتهي ان ينتفع به غيره كما قدمنا في الطفل واذا ثبت هذا في الابتداء فلا يمتنع في الاخرة لان كمال اللذة للمومن لا شك فيها في الاخرة ومن جملة اللذة ان يرى عدوه في النار فيحصل له بنجاة نفسه من مثل ذلك فرح وبهلاك عدوه فرح اخر كقوله تعالى عن المومن فاطلع فراه في سواء الجحيم وتمام القصة كما بيناه في موضعه واذا كان النعيم دايما فيجب ان يكون الفوز برؤية النجاة من ضده دايما ايضا لتتم اللذة والسرور برؤية النعيم والنجاة من الجحيم

واما ما قاله ابن برجان وامثاله من ان الفريق الذي يخرج من النار هو الذي يحس بالمها فتعذيبهم بها رحمة وحكمة واما غيره عمن لا يخرج فهو وان كان فيها فلا يحس بها ويكون الاخبار عن حاله صدقا من انه فيها كما نجد دابغ الجلود لا يحس بنتن ما هو فيه والعنبري يهرول عند مفاجاته له فهذا ليس بشي لان القران لم ينبه عليه بل على ضده ولان اعتقاده مضر الا ان يكون ذلك فريقا غير المكلفين وذلك بخلاف قوله وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ولو جاز ان الله تعالى يخلف الوعيد لجاز ان يخلف الوعد ومن ابلغ الكرم ان يكون من يفعل الخير جزا على التكليف وعد المكلفين بابلغ الوعد وتواعد بابلغ الوعيد لمن عصى الامر ومن حيث انه قال فلا يجوز ان لا يفعل لئلا يكون كاذبا تعالى عن ذلك علوا كبيرا

فان قيل لو احسن اليهم بمعرفة ذاته عز وجل لكان ما قدمته تاما اذ لم يبق سوى ذلك قلنا قد صح ان جملة المراد ليس الا الاحسان الى العباد في المعاش والمعاد ومن كمال الاحسان ان يكون خاصا وعاما باقيا وفانيا ليستوعب الصور التي تخطر في افهام البشر وهذا النوع من الاحسان هو الخاص الذي من اجله كان ما سواه واليه الاشارة بقوله تعالى من كان يرجوا لقا الله فقدم لهم الفاني ودلهم به على الباقي وهذا انما يكون لهم في الاخرة بحسبهم مع الترقي المستمر لانه تعالى لا يحاط به وليس الكلام في هذا المقام من علوم هذه الدار الفانية لانه الغاية التي اليها المنتهى فلو علمت غاية الباقي في الفاني لم يبق للخلق

الجديد فايدة واذا الزم في العقل ان هذا هو الغاية التي يجب ان يعمل عليها
ويتوصل بكل سبيل اليها فلا شك انه تعالى اعلم باقرب السبل وبهذا
السبيل الاقرب انزلت الكتب وارسلت الرسل فان كان لعاقل ان
يطمع من الله في الوصول الى رؤية ذاته في الدار الباقية فليس
الا بامتثال امره في الدار الفانية   واعلم ان كل علم يعبر به لا
يصل الى باب الذوق واعني به الذوق الدنيوي كما لا يقدر العاشق
ان يخبر الخلي بما يجده من الامر الحالي وكل ذوق دنيوي كيف
كان فانه لا يشبه الذوق الاخروي وان عجز عن ان يعبر
عنه كل لسان وهذا الكلام فيما يدركه الانسان من لذة مخلوقة
فكيف بمن له الخلق والامر فسبحان من دعا العقول الى معرفة
وجوده بمبدعاته ودعاها الى ذاته بالعجز عن معرفة ذاته
وهذا موضع الاذعان والسجود ولو لم يكن كذلك لبطلت الحكمة
ولكان التعريف منه مقصورا على باب واحد وهو العلم المخصوص
بالعباد وهذا انزر في باب المراد فالحمد لله الذي جعل اليه بكل
شيء وضده سبيلا لجعل العلم والجهل عليه دليلا وما اوتيتم
من العلم الا قليلا وها انا قد لخصت لك كل ما فيه اجوبة ما
اشكل وكفاية من تعقل وقدمت امامه وصية فتاملها متانيا

هذه وصية نافعة يجب ان يكون العمل بها معمولا
عند حل المشكلات وتامل المقولات اذا اردت فهم مثل

هذه الدقايق ولم يكن عندك من علم الاصول الصحيحة قاعدة
تنبهك على الحق وتنقلك الى الاحق فيجب اولا ان تمحو ما في نفسك
وتتلقى ما تريد عرفانه تلقي تقليد ثم تبحث به مع نفسك بحث من
احسن الظن به واسا الظن بما كان في نفسه مما يناقضه الى ان
يفهمه ويفهمه ويقيم الدليل على صحته لو اراد ذلك فاذا صح عندك
وثبت تعارضه بعد ذلك وقف منصفا بين ما عارضت به مما
كنت به عارفا وبين ما عرفته ثانيا بعد ان حققته كتحقق الاول
فانه ربما غلبت عادة او غلط ظن او جذب طبع او سولت نفس
فاذا اتهمت نفسك لله امرك الله وكذلك فافعل والا فكيف تعارض
بما تعلمه ما لا تعلمه فانت حينيذ تعارض ما تظنه مرادا لخصمك
وليس الا ظنك وليس الا ظنك وان الظن لا يغني من الحق شيا وكذلك
اوصيك ها هنا ان تعرض الى فهم ما قد قلته وتحرره كما قلته
ليثبت في لوح القلب وتمحو ما يضاده فلن تستطيع ان
تجمع بين الضدين وما جعل الله لرجل من قلبين فلن تستطيع
اثبات ما قلناه الا بمحو ضده المثبوت في صدرك اولا ثم تقف
موقف السايل الحاير الباحث عن الحق والا متى كنت في مقام
المحق عند نفسك فلا سبيل الى دخول الشك عليك فكيف
يدخل اليقين بضد ما هو عندك فان قلت فكيف اكون متيقنا
شيا فاتركه تقليدا قلنا اقروا ويحسبون انهم مهتدون ثم

اعلم انى لم الزمك بذلك الا اولا واما اذا حصلت ما ليس عندك
كما حصلت ضده الذى عندك وانصفت فى مساواة تحصيلهما
عن علم سواء واجتهاد مساو فبعد ذلك لك ان تنظر فيهما
مجتهدا فترى الحاصلين والا كيف ترى موجودا عندك معدوما
مما هو موجود عند غيرك فتكون كقوله تعالى اكذبتم بآياتى
ولم تحيطوا بها علما فقف مع هذا الكلام فى وقت احتياجك اليه
ولا تقنع بفهمه فقط والله يهديك ويتفقدك مما يرديك
ان شاء الله تعالى وهذه التلخيصات التى وعدتك بها فافهمها
متأنيا بعد الوصية **بالتلخيص اهل فهمه اصل**
والقول به **فصل** ذكرنا فيه الاحسان والجزاء
والاجبار والاختيار ان الغنى المطلق ليس عليه ان يفعل
فان فعل كان فعله احسانا ان الاحسان من الغنى المطلق لا يكون
الا كاملا ان كمال الاحسان لا يكون الا ان يأتى بسائر الصور
الممكنة ان الصور الممكنة فى الاحسان ثلث اما من جهة
الفاعل له فهو ابتداء او من جهة المفعول معه فهو جزاء او
من جهتيهما معا فهو ابتلاء فلا جايز ان يكون الله تعالى قد
ان يكون خلق العباد مجبرين بل مختارين لتصح القسمة
الثلاثية ليصح الجزاء اذ لا يكون الجزاء على الاجبار الا للمجبر فالفاعل
الفاعل سبحانه غنى ففعله احسان فاحسانه كامل

فالجزاء لازم عن كمال الاحسان وكمال الاحسان لازم عن فعل الغنى
المطلق وفعل الغنى المطلق واقع واطلاق الغنى لمن له الخلق والامر
واجب فانتفى الاجبار وثبت الاختيار واقول ان العلة فى كون
المجبر عقابا لا يفهم العبارة ولا يفقه الاشارة الا ان يشاء الله فى
ان كل انسان انما يشهد ما يجده فى نفسه والمجبر عقابا يجد
ذاته كذلك فهو يخبر عما شهده فى ذاته ولا يرى غيره فهو
لا يرجع الى الفهم ولا قياس ولا علم وكيف يرجع وهو يحس
ويتيقن ويجد ذاته مجبرة فهو على يقين مما يجد وهذا معنى
قوله تعالى نوله ما تولى وكقوله ويحسبون انهم مهتدون
وهو معنى قوله تعالى افرأيت من اتخذ الهه هواه واضله الله
على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن
يهديه من بعد الله افلا تذكرون **فصل فى الجزاء**
الجزاء مشتق من الجزء فهو مقابلة فعل الفاعل بمثله من خير
او شر ولما كانت المقابلة على كل جزء سميت جزاء الجزاء
معقول بفاعل مستحق فاذ لا فاعل لا جزاء المستحق للجزاء
هو المبتدئ بفعل ما فهو فاعل متقدم والمجازى عليه
غير مبتدئ فهو فاعل متأخر ولا يصح متأخر
الا ان يوجد متقدم والمبتدئ بالفعل ان كان غنيا
فهو الرب وان كان فقيرا فهو العبد الفاعل ان كان فعله

حسنا فهو محسن وان كان سيئا فهو مسيء فان كان الفعل السيء جزاء
فهو عدل وان كان الفعل الحسن ابتداء فهو فضل الاحسان
من الرب لا يكون الا الى غيره والاحسان من العبد وان كان الى
غيره لا يكون الا الى نفسه

فصل في الاختيار

الاختيار مشتق من الخير فالمختار هو الذي يرى الشيئين فيلتمس
خيرهما عنده المبتدي بالفعل مختار له غير مجبر عليه اذ لو
كان مجبرا لكان المبتدي من اجبره لا هو لا يصح الاحسان الا
من مختار لانه ان كان مجبرا عليه فالاحسان لمن اجبره لا له
وكذلك الاساءة ولا يصح الاحسان الا الى مختار له لان الذي يصل
اليه الاحسان ان كان كارها له فهو اساءة بالاحسان وفاعله يستحق
اللوم صح ان لا احسان الا بعد وجود مختارين فاعل ومختار قابل
وجب ايجاد القابل مختارا لا مجبرا لزم ان يهدي الى ما هو به اولى
تحقق ان عايد فعله عليه اذ الامر فيه اليه ثم المراد من تكوينه
بتمكينه ثبت ان له جزاء على ما يصدر منه ابتداء كمل احسان
المحسن الذي ليس عليه ان يحسن وان لحسن كان احسانه كاملا
فالحمد لله والصلاة على رسول الله

تلخيص ثان

تنحل به اشكال
من اشكل باهل النار ويثبت الجزاء للفاعل المختار اعلم انه قد يقع
الغلط من القايل في فهم ما قد يشكل من قوله لسببين احدهما ان يكون
قوله ماخوذا من العقل لا من النص فلما بنى عليه لم يثبت فلو اخذه

من النص ثبت ولم يتزلزل الثاني ان يكون قد سلك غير السبيل
الموصلة الى فهم ذلك الاشكال فاذا لم يصل السامع اليه عاد العقل
متهما عنده والعقل غير متهم ولكن السبيل التي سلكها القايل
ليست سبيل مطلوب السامع فهذان سببان من جهة القايل
ثم ينضاف اليهما سبب من جهة السامع وهو انه قد ياخذ
احد مدلولي اللفظ فيعارضه بما هو صحيح في العقل ويكون القايل
قد اراد المدلول الآخر وهذا كقول البصري رحمه الله ان
الله خلق الخلق ليحسن اليهم فهذا قول صحيح لا شك فيه ولكن
وقع فيه هذه الصور الثلاث كما نبين وذلك انه لو قال خلقهم
ليعبدون ثم استلزم من ذلك انه خلقهم ليحسن اليهم لكان بما
قاله قد اتبع نص القرآن وبما استلزمه قد سلك سبيل البيان وكذلك
قوله خلقهم ليحسن اليهم له مدلولان احدهما ما تقع به المعارضة
باهل النار والآخر ما بيناه في قوله ليعبدون وسنوضح البيان
ان شاء الله تعالى ولنقدم امام كلامنا جملة انه لما كانت
العبادة منهم له يلزم عنها الجزاء منه لهم وكان ما في وسعهم
من العبادة يتناهى وما في سعة قدرته من الاحسان لا يتناهى
عاد خلقه لهم لما يتناهى وهو العبادة خلقا لما لا يتناهى وهو
الاحسان فافهم ولما كانت عبادتهم له احسانا منهم الى انفسهم
قال تعالى هل جزاء الاحسان الا الاحسان ولما كان الاحسان

منهم متناهيا والإحسان منه غير متناه كان إحسانه فضلا لأنه
يفضل عما جاؤوا به وكان أيضا وهبا لأنه تضاعف عما كان الإحسان
إليهم بسببه وإليه الإشارة بقوله ولدينا مزيد ولما كان الفضل
كله بيد الله والوهب كله من لدن الله والثواب كله من عند الله
والأمر كله لله وصاحب الكل قد قيد الكل بعبادة العباد كان الكل
مردودا إليهم وموقوفا عليهم ولهذا لما قال وإليه يرجع الأمر
كله قال بعده فاعبده وتمام الآية فصارت العبادة منهم لوقوع
الجزاء منه ولوقوع ما بعد الجزاء من لدنه وهو قوله ويؤت من
لدنه ثم قال أجرا عظيما كما بيناه بعد مجاز سورة الكهف فلما كان
الجزا مشروطا منه وعليه يترتب ما بعده من لدنه ذكر الله
أنه خلقهم للشرط وذكر البصري أنه خلقهم للمشروط فأشكل
كلامه ولم يشكل كلام الله تعالى وإيضاح ذلك أن قول الله يعطي
ما معناه خلقتهم لأجزيهم وقول البصري يعطي ما معناه خلقهم
ليعطيهم فقول البصري يلزم عنه العطا للكل بلا شرط فإذا
أعطا البعض دون البعض أشكل بلا شك وقول الله يلزم عنه العطا
بشرط فإذا أعطى البعض دون البعض لم يشكل بوجه ونحن فلا
نلتزم بكلام البصري فنجعله كلاما لله لئلا تقع المعارضة وتعود
الحجة على الله بل نفهم كلام الله فتزول المعارضة وتعود الحجة
على العباد فهذا هو حل الإشكال والسلام على من اتبع الهدى

فإذا

فإذا فهمت هذا جاز أن يأول كلام البصري ويصح بالتأويل وجاز أيضا
أن تحمل على كلام الله ما يصحح كلام البصري رحمه الله ويبين
مراده وقد ذكرنا هذا كله وجعلنا بسط القول فيه زيادة بعد
هذا المقال الذي به انحل الإشكال فلنبن على هذا الأصل ونقول لما
كان قد خلقهم قادرين على الكفر ليؤمنوا ولم يخلقهم على الإيمان
ليكفروا لزم أن يقال خلقهم ليؤمنوا وكذلك لما خلقهم قادرين
على عبادة الشيطان ليعبدوا الرحمن ولم يخلقهم قادرين على
عبادة الرحمن ليعبدوا الشيطان لزم أن نقول وما خلقت
الجن والإنس إلا ليعبدون ومثله لما مكنهم من الإساءة
ليحسنوا ولم يمكنهم من الإحسان ليسيئوا لزم أن يقال خلقهم
ليحسنوا وكذلك لما خلقهم متمكنين من السوء ليحسن إليهم إذا
تركوه ولم يخلقهم متمكنين من الإحسان ليسيء إليهم إذا فعلوه
لزم أن يقال خلقهم ليحسن إليهم وإلى هذا ذهب البصري رحمه
الله تعالى ولم يلزم من قولنا خلقهم ليؤمنوا وليعبدوا وليحسنوا
وليحسن إليهم وقوع ذلك كله من كلهم لأن اللام هاهنا مبينة للغرض
كما تقول استدعيتك لأطعمك فامتنع المدعو من الأكل أو كان
صائما فقولك صحيح ولم ينتقض ما من أجله وقع الاستدعا منك
به ومثله فيما يتعلق بالعبادة التي ليس المراد بها إلا الجزا
قولك استأجرتك لتخدمني فإذا امتنع من الأجير وقوع الخدمة

قادرين

امتنع منك بذل الأجرة ولم ينتقض قولك لتخدمني فكذلك إذا امتنع
من العباد وقوع العبادة امتنع منه سبحانه وقوع الإحسان
المشروط بالعبادة وأعني به الجزاء ولم ينتقض قوله ليعبدون
لأن اللام ها هنا هي لبيان الغرض الذي لم يخلقهم إلا لأجله وقد
مكنهم منه فالغرض لم يتغير منه وإن لم تقع العبادة منهم
ولما كان الإحسان منه قد يكون ابتداء وقد يكون جزاء علمنا سبحانه
أن الابتداء غير مشروط وأن الجزاء مشروط فإذا قلنا خلقهم
ليحسن إليهم فالكلام مستقيم إذ ما لا شرط فيه فوقوعه
واجب للمؤمن والكافر وقد وقع على أكمل الصور كقوله وسخر
لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه وكقوله وأسبغ
عليكم نعمه ظاهرة وباطنة وقد بينا في آخر هذا التلخيص ما
فيه كفاية بما لا ريب فيه وأما المشروط فلا جائز وقوعه
إلا بشرطه كقوله ومن يتق الله يجعل له مخرجا ولم يتغير قولنا
خلقهم ليحسن إليهم لكنه احتاج إلى تفصيل تقديره ليحسن إليهم
ابتداء وجزاء فالابتداء إليه والجزاء إليهم ولما كان ما هو إليه من
الإحسان لا يتعلق بهم وما هو إليهم من استحقاق الإحسان
منه لا يتعلق به لزم أن يبين لهم لا أن يجبرهم فوجب إرسال
الرسل وتشريع الشرائع لما هو منهم فقط وعاد خلق الدنيا
بأسرها إنما هو ليحسن إليهم جزاء لا غير لأن إحسانه ابتداء

غير محتاج إلى خلق الدنيا بل يكفي فيه أن يوجدهم في الآخرة ولهذا
بين لهم أنه تعالى إنما خلق الموت والحياة ليبلوهم وكقوله ونبلوكم بالشر
والخير وأمثال ذلك فله إحسان أول في الدنيا هو فضل لأنه تعالى
بدأهم به وله إحسان آخر في الآخرة هو وهب وهو ما بعد
جزاء عملهم وإليه الإشارة بقوله ولدينا مزيد والفضل الأول
في الدنيا ساوى فيه بين الكفار والمؤمنين من أجل امتحانهم ليتحققوا
عدله والوهب الآخر في الأخرى خصص به المؤمنين لأنه إحسان
مرتب على إحسانهم ليتحققوا فضله فالفضل في الدنيا قبل فعلهم والوهب
في الآخرة بعد جزاء فعلهم والجزاء في الدنيا والآخرة لا يكون إلا بعد
فعلهم ومن البين أن المجبر على فعل الشر لا يعاقب والمجبر على فعل الخير
لا يثاب وكذلك المجبر على ترك الشر لا يثاب والمجبر على ترك الخير لا
يعاقب ولا يصح أن يقال فلو أجبره على ترك الشر ومكنه من فعل الخير
لكان قد سلك به سبيل السلامة إذ لا معنى للتمكين إلا أن يقدر أن يفعل
وأن لا يفعل فلو أجبره على أن لا يقتل لئلا يدخل النار ومكنه من أن
يصلي فلم يصل دخل النار فقد صح أنه لا يصح الجزاء مع الإجبار
ولزم التمكين والاختيار فالمجبر حكمه حكم العدم من جهة نفسه
ولولا أنه خلق من أجل غيره لما جاز إيجاده فلا جائز أن تكون الجنة
والنار إلا عن الكسب فالألم واللذة لا تعلق لهما بالترتب إلا بعد
استحقاق المستحق لهما بالكسب وإذا أوجد الله من يتألم بكسبه

وان لم يكن قد اوجده لينال الم بل لينال لكنه علم منه انه لا يكتسب الا ما
يعقبه الما لا لذة تحققنا انه لم يوجد لنفسه بل للغير ولم يكن
ظالما له فيما يناله من الالم ولا فيما يفوته من اللذة ولله ان يخلق
ما شاء اذا لم يكن ظالما ولا عابثا بل لحكمة فتلك الحكمة اذا لم تعد على المرحوم
بذنبه فهي عايدة على المرحوم بكسبه ويكون الله قد نفع المومن في
الدنيا بما لا يعقل كالحمار ونفعه في الدنيا والاخرة بمن يعقل من الكفار
وذلك بانواع التسخير والاعتبار ولا شك في ان عدم الكافر خير له من وجوده
ولكن ليس على الله ان يمنع المومن ما يستحقه من الفضل لاجل الكافر
بل له ان يعامل الكافر بما يستحقه من العدل لاجل المومن ولما لزم عن
كمال الاحسان تمكين الانسان ليكون قادرا على امتثال الامر فيتردد في
بالشيء وضده من فعل الخير وترك الشر لزم خلق الاضداد ليتم
النعمة على العباد ويوجروا على الجهاد فكان من جملة ذلك ايجاد
مقدار مخصوص من الكفار مع العلم بانهم سيكونون بكسبهم من
اهل النار ولم يكن الله في ايجاده لهم عابثا ولا ظالما بل كان بهم على
المومنين منعما واذ قد بان انه تعالى خلقهم للمومنين فلا يقال خلقهم للنار
لكون مآلهم اليها كما لا يقال خلق الاجسام للفناء بل خلقهم من اجل
الازواج التي خلقها للبقاء وما خلق من اجل البقاء فقد خلق للبقاء وان
كان ماله الى الفناء ومن هذا القبيل خلق الله للانسان جميع المعادن
والنبات والحيوان وسخر له الاكوان كما بينا عند قوله ما خلقناهما

الا بالحق من ان ذلك كله من باب العدل والاحسان ومن لوازم كمال
الاحسان ان خلق الله الشيطان فجعله جامعا لسائر ضروب الشر
واخبر عن اوصافه كلها بصفة واحدة جامعة لكل ضرب من انواع
الضر وهي مخالفة الامر وبين انه تعالى لم يجبره على كفره بل مكنه من
امتثال امره ومن فهم هذا البيان واوتي الفرقان شهد ان الشيطان
عبارة عن الصفات المذمومة من الانسان وانه من اجل نعمة في
الاكوان ولولا ايجاده لما نزل القران ولا كمل الاحسان فلما كانت زبدة
الايجاد ليس الا الاحسان الى العباد وكان الله غنيا عنهم وعن الاحسان
اليهم ولم يكن ذلك الاحسان واجبا عليه اذا اراده بهم صار واجبا
من الكل للكل من اجل انه مراد الله لكل فكما ان الانسان اذا اسا الى غيره
كان قد خرج عن مراد ربه بغيره فكذلك اذا اسا الى نفسه كان قد
خرج عن مراد ربه به فاستحق جزا كسبه من يعمل سوا يجز به
وبالعكس ولهذا تكرر هذا المعنى في جميع القران كقوله سيجزيهم وصفهم
ولما ثبت ان الجزا من لوازم كمال الاحسان الى نوع الانسان وجب الهدى
على خالقه سبحانه وبيان ذلك هو ان كمال الاحسان من الرب يوجب
على الرب هداية العبد الى سبيل اذا سلكها كان احسان العبد
الى نفسه كاملا وهو معنى قوله ان علينا للهدى ولا يجوز ان يكون
كمال الاحسان من الرب موجبا على الرب اجبار العبد على ان يكون
احسان العبد الى نفسه كاملا بل يوجب تمكينه فقط ليتم القسمة

الثلاثية التي لا يصح كمال الاحسان الا بها واذا انحصر احسان الرب في
اقسام ثلاثة احدها ان يكون العبد متمكنا لا مجبرا فقد وقع ما لاجله
خلق الانسان وتحقق ان ذلك من خالقه اكمل الاحسان وعاد الكافر
والمؤمن كل منهما ممنوحا بكمال الاحسان من ربه وذلك بنفس
كونه خلقه متمكنا من الاساءة والاحسان الى نفسه لانه متمكن
من التردي بفعل الشيء وترك ضده ولهذا خاطب الكل بقوله ولقد مكناكم
في الارض فالتمكين هو حقيقة كمال الانسان الدال على كمال الاحسان
واذا تاملت جميع ما قلناه سقطت المعارضة بالكفار وبان ان
الله تعالى محسن الى اهل النار وان احسانه اليهم لا ينقص عن
احسانه الى اهل الجنة بل تساوى منه الفريقان في كمال الاحسان
وتحقق ان الجنة والنار من لوازم اعمال الفريقين وان الله لم يخلقهم
الا امة واحدة فاختلفوا ولو شاء ربك بعد الاختلاف لجعل الناس
امة واحدة اي اجبارا ولكنه بين لهم ما يتقون ليكونوا امة
واحدة اختيارا فيعود احسانهم الى انفسهم بالتقوى كاملا
كما كان احسان الباري اليهم بتمكينهم من التقوى كاملا ولذلك
خلقهم وصار المؤمن كالكافر كلاهما سالك في سبيل واحد من
الاحسان بين فضل وعدل من جهة ربهما مستطيعان بكسبهما
ما اريد لهما بهما وتلك الاستطاعة لا شك هي كمال الاحسان
العام على نوع الانسان اذ لا يصح ان يكون الجزاء اجبارا ولهذا

خلق الانسان مختارا ولقد كرمه من سخر له كل شيء من غير جنسه
ومن جنسه حتى سخر نفسه لنفسه ولقد فضله اذ مكنه في
الدنيا من الاستدلال عليه وفي الآخرة من النظر اليه ثم احسن
الى من احسن ومن اساء ومن احسن فعاد بين فضلين احدهما ازلي
من ربه ابدا لا اول له والآخر ابدي من ربه جزاء لا آخر
له والحمد لله والصلاة على رسول الله والسلام ن

تلخيص ثالث فيه رد على من كفر وبيان فهم ظهر فاثبت ليعتبر بنظر اولي النظر

فطر العقل على الاعتراف بوجود وعدم فاما العدم فهو اشارة
الى وجود ما يستقر في الذهن من تصور عدم ذات ما تقديرا فلها
وجود في الذهن لا في الحقيقة ووجودها في الذهن وجود دلالة
على عدم وجود ذات وهذا هو العدم وحكمه حكم ما لا يعلم وهو
واحد لا ينقسم واما الوجود فوجوده محقق ذهنا وعينا
وحقيقة وايضا وينقسم الى قسمين هما صانع اول ومصنوع
ثان والمصنوع ينقسم الى باق وفان فالباقي هو الانسان ولاجله
كونت الاكوان وانزل القرآن فهاتان ذاتان محققتان فاعل
لا اول له فهو ازلي ومفعول لا آخر له فهو ابدي فعلمنا بان
الفاعل لا اول له هو اول العلم وهذا كاف في الاشارة اليه
وعلمنا بان المفعول لا آخر له هو آخر العلم وهذا كاف في

الدلالة عليه فلنتكلم الآن من اول علمنا بالفاعل وما صدر منه الى اخر
علمنا بالمفعول وما لزم عنه ونثبت بما نقول صحة ما جاء به الرسول
وصدقه في العقول مما اخبر الله به من خراب الدنيا وابطال
النشأة الاولى وان ذلك عن حكمة بالغة وحكم واجب لا عن عبث
عابث او لعب ذي هوى لاعب والكامل على هذا البيان ابطال ما
جاءت به الفلاسفة مما يخالف القرآن وذلك معارضتهم بما معناه
اذا كان ايجاد العالم فضلا يكون اعدامه بخلا واذا كان الايجاد
حسنا كان الاعدام قبيحا فاستلزموا دوام الاكوان واستمرار
ما يخلق من نوع الانسان على مر الازمان وهذا لا شك حسن
ولازم في بعض الاذهان ولكنه بخلاف القرآن واعتذر المنتسبون
منهم الى الاسلام بان الخطاب جاء على قدر الافهام وهذا
غلط نشأ من كونهم عرفوا الحق بالخلق فخابوا ولو عرفوا الخلق
بالحق لاصابوا ومعرفة الحق تنقسم الى قسمين احدهما ما
يشاهد بالقلوب ذوقا كالعشق الذي لا تحتوي عليه العبارات
والثاني ما تشهد به العقول علما واليه تنتهي الاشارات
فنقول فيما تشهد به العقول ان من لا اول له لغني بذاته
عن سائر مبدعاته وان اطلاق الغنى عليه يوجب اعادة سائر
الاسماء الحسنى اليه فمنها الكمال لذاته ثم القدرة على مبدعاته
ثم العلم بمعلوماته فالقادر له ان يفعل وله ان لا يفعل وليس عليه

ان يفعل ولا عليه ان لا يفعل فاذا فعل كان فعله كاملا اذ نقص الفعل يعطي نقص
الفاعل فلزم كمال الفعل وكماله انما يظهر بالمفعول والمفعول باق وفان
فالباقي هو الانسان فاول كماله تمكينه من الخيرات ليكتسبها ومن
الشرور ليجتنبها فيرقى بالاجتناب كما يرقى بالاكتساب واخر
كماله بقاؤه ابدا واستلذاذه سرمدا اذ زبدة ايجاده لذة وان
اختلفت احكامها وتنوعت اقسامها ولما كان تمكينه من الشرور
محتملا لوقوعه في المحذور فتح له باب التوبة والدعاء وكفر عنه
خطاياه بانواع البلاء ولما كان قد لا يجتنب الكباير وقد لا يتوب
عن الصغاير خلقت له النار وجعل له منها تذكرة في هذه الدار
ثم يخرج منها الى زبدته التي هي بقاؤه في لذته وهذا الفريق هو
المومن الذي ينتفع في الدنيا بالانذار ويخرج في الآخرة من النار
وقد افردنا مسئلة وجوابها فافهم ذلك جيدا باب في الرد
على من قال لا يخلد الله الكافرين في النار بل يجب عليه اخراجهم لان
الله متعال عن العبث وعن الظلم اما العبث فلكونهم لا فايدة
لهم في الخلود واما الظلم فلكونه زايدا على مدة كفرهم في الدنيا
واما وجوب اخراجهم فلان لهم في ذلك نفع واذ لا فايدة
في خلودهم وهو ظلم ولا يقدر على نفعهم الا هو فقد وجب ان
لا يخلدهم ووجب ان لا يخوفهم الا بالخلود الذي هو ابلغ ما
يقع من التخويف في الاذهان ليسلموا من العذاب المستحق لهم

مدة في النيران **الجواب** ان الكافر لم يدخل النار الا بكفره فما دام
الذنب دام العقاب فما به كان الدخول به كان الخلود ولقد اخبر الله
عن هذا السؤال بقوله ولو ردوا لعادوا فالذنب باق فالعقاب باق
واذا لزم خلودهم من جهتهم بطل ان يكون ظلما من جهته تعالى ولا
اعتبار لمدة كفرهم في الدنيا حتى يكون العذاب بمقدارها في الاخرى بل
الاعتبار لما هم عليه في الاخرى بدليل انهم لو تابوا في الدنيا قبل ذراع
لدخلوا الجنة ما يفعل الله بعذابكم واما قول المعارض ان ليس في العذاب
المؤبد فايدة فهذا انما يلزم لمن قال انه لفايدة ترجع عليهم وانما هو صفة
انفسهم اختاروا الاتصاف بها ولم يقلعوا عنها في الدنيا واخبر الله
انهم لو ردوا لم يقلعوا بعد ما ذاقوه من العذاب في الاخرى واما دعوى
المعارض ان ذكر الخلود انما هو تخويف فقد عارض نفسه بنفسه
لانا اذا فهمنا ان التخويف غير واقع ذهبت فايدته اذ لا يحصل الا
بابلغ ما يقع في الاذهان وقد امتنع وقوع الابلغ فامتنع وقوع ما يقع
عنه وعاد القياس يعطي انه تعالى لا يعذب بالنار جملة لعدم الفايدة
بالعذاب الذي له اجل كعدم الفايدة بالعذاب المؤبد وللكفار في
ابطال العذاب نفع ولا يقدر على نفعهم الا الله وكذلك يقال اذا
اخرجهم من النار ولم يدخلهم الجنة لا شك هم في عذاب فيجب
عليه سبحانه ادخالهم وهذا حالهم اعني الكفر فيعود الكفر والايمان
واحدا وبطلت فايدة الرسل وانزال الكتب وهذا مما لا لم يسوغه

عقل ولم يأت به شرع ثم نقول جزما ليس كل ما فيه نفع يجب على القادر
فعاله لانه لو وجب لم يكن بعض ما فيه نفع بان يجب اولى من بعض
وهذا يوجب ان يجب على القادر سبحانه فعل ما لا نهاية له وانما يجب
ما فيه نفع اذا كان في تركه ضرر لمن لم يجز ضرره واذا صح هذا
وكان الله تعالى قد اوجب علينا في القران اعتقاد خلود الكافر في النار لكن
ننتفع بذلك لم يجز ان نوجبه الا وفي تركه ضرر لانه لا يجوز ان
نوجبه على وجه لا يجب عليه واذا صح هذا لم يجز ان يكون الوعيد بالخلود
الا صحيحا اذ اعتقاد خلافه وهو ان لا خلود تكذيب له وضرر علينا
فافهم هذا جيدا جيدا واحفظ معناه فقد بان ان الكفار الذين لا
ينتفعون في الدنيا بالايذاء يخلدون في الاخرة في النار وهم لا اشبه
باحد الحيوان لكنه خلق على صورة الانسان فوجودهم انما هو لغيرهم
فهم للمؤمنين في الدنيا سخرة وفي الاخرة عبرة وهذا القسم يكفي
فيه وجود من تتم به السخرة في الدنيا والعبرة في الاخرى لانه في حكم العدم
من جهة نفسه وان كان في حكم الوجود من جهة غيره اذ زبدة وجوده
وهي اللذة معدومة له بنفسه موجودة به لغيره وهاولاء هم الازواج
الثلاثة الذين هم اهل الوجود ومن اجلهم وجد الموجود ولما كان العلم
القديم محيطا ازلا بما يكون من كل منهم عملا مكنهم من مطالبهم واوقفهم
في مراتبهم لا بهوى منه سبحانه بل بمكاسبهم لان الله تعالى خلق الكل
لعبادته فمن اتى بما خلق له كان له ما سواه ومن لم يأت به كان هو

لما سواه اذ لم يخلق الا للعبادة فلما لم يعبد كان لمن يعبد اذ لا يصح ان
يكون ايجاده عبثا بل اما لنفسه او لغيره او لنفسه وغيره وقد انتفى
انه لنفسه فلزم انه لغيره وانه هو الظالم ولما كان هذا القسم الذي
يكاد ان يلحق بالمعدوم كافيا في باب المراد وقع الاقتصار على هذا
العدد المعلوم من الكفار وعلم انه تعالى لو اوجد ايجادا مستمرا
اناسي كثيرا لم يصل احد منهم الى رتبة المقربين ولا الى رتبة اصحاب
اليمين بل كان الجميع باسرهم يلحقون بالكافرين الذين هم من جهة
انفسهم في حكم العدم اذ العلم الازلي محيط باعمالهم في العدم ولما
كان ايجاد الكافرين ليس لرحمة للكافرين بل لحكمة من اجل المؤمنين
لزم ان يوجد منهم في كل عصر ما تتم به السخرة والعبرة لينتفع المؤمن
بمن هو في عصره من الكفار في الدنيا ويعتبر بمن يعرفه منهم في الاخرى
دون من تقدم منهم قبله او تاخر بعده فلما كملت العدة في مقدار
من المدة عاد ايجاد الكافرين لغير المؤمنين عبثا بل ضررا اذ عدمهم
خير لهم من الوجود في عذاب الخلود ولهذا لا تقوم الساعة الا على
شرار الناس ولقد بين الله ذلك للعلماء بما ضربه من الامثال
بقوم نوح وغيرهم من اهل الضلال كقوله ولا يلدوا الا فاجرا
كفارا فكما لزم من ابطال الايجاد من يأتي من نسلهم كذلك لزم ابطال
من يأتي من مثلهم لانه اذا علم انه سبحانه اذا خلقهم ليعبدون
امتنع ذلك منهم لزم ان يبطل الخلق اذ لا حكمة فيه ولا رحمة

به ولا نفع له ووجب الاختصار على من في خلقه حكمة من الكفار لاجل
من في خلقه رحمة من المؤمنين لا غير فلزم طي السماء وبطلان
ما بدأ به من الانشاء وكانت النشأة الثانية اعادة لا ابتداء
وزيادة اذ قد تم حكم الغني بمقتضى العلم الازلي فافقه هذا
البيان الجلي لتظفر بالايمان القوي والحمد لله العلي وصلى الله
على سيدنا محمد النبي وعلى اله واصحابه وسلم وحسبنا الله ونعم
الوكيل ومن اشكل عليه شيء مما قلناه او احتاج الى زيادة ايضاح
فليطالع ما اثبتناه في اخر سورة النبأ وما افردناه بعد كمال
هذا التفسير ن

سورة الطور ٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم والطور المرفوع بسبب
الميثاق لانه معروف وكتاب مسطور في رق منشور نكر الكتاب
ليعم كل كتاب سطر في رق وقد كانت بنو اسرائيل تسطر التوراة
وكذلك كتب الانبياء المنزلة عليهم في الرق والى يومنا هذا لانه اولى
وابقى من الورق فيحتمل انه اقسم بكل كتاب كقوله امنت بما انزل
الله من كتاب والبيت المعمور البيت الحرام في قول الحسن والسقف
المرفوع على كل سقف وجعلنا السماء سقفا محفوظا والبحر المسجور
قيل المملو بمعنى المملو نارا وقد بيناه في سورة الشمس ان عذاب ربك
لواقع ما له من دافع يوم تمور السماء مورا المور الموج تمور تموج
والبعير تمور عضداه اذا ترددا في عرض جنبيه بمجيء وذهاب والمور

بالضم الغبار بالريح وتقديره ان عذاب ربك لواقع يوم تمور السماء وتسير
الجبال سيرا والمراد الجزاء بعد القيامة فويل يومئذ للمكذبين الذين
هم الآن في خوض يلعبون وكنا نخوض مع الخائضين واصله من
الخوض في الماء الذي يحتمل ان يغرق فيه الخائض فهو خوض في الريبة
والباطل والاثم ومنه الكلام فيما لا يجري كاللعب والهزل يوم
يدعون الدع الدفع الى خلف يدفعون الى نار جهنم دعا اي يدفع
دعا الى ان يصلوا اليها كالذي يدفع الى السجن ووجهه الى من يدفعه
ثم يقال هذه النار التي كنتم بها تكذبون افسحر هذا لما كان قد توعدتم
في القرآن بالعذاب في جهنم وقالوا في الدنيا ان القرآن سحر ومن جملته
وعيدهم حسن ان يقول لهم عند رؤية الفعل المصدق للقول
ما يوبخهم به ويكرر ما قالوه فقال افسحر هذا العذاب ايضا
كما كنتم تقولون عن كلامنا في الدنيا اذا توعدناكم به ام انتم لا
تبصرون اصلوها فاصبروا او لا تصبروا سواء عليكم اصبرتم ام
جزعتم ما لكم من محيص انما تجزون ما كنتم تعملون ان المتقين في
جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم وكرر قوله ربهم
عذاب الجحيم لئلا يعود الواقي ما آتاهم كلوا واشربوا هنيئا بما
كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة يقابل بعضها بعضا
وزوجناهم بحور عين والذين آمنوا وقوله واتبعناهم ذرياتهم
هذه جملة اخبارية هي موضوع ومحمولها جملة اخرى هي ما بعد

ذلك وهي بايمان الحقنا بهم ذرياتهم وهو من اللحوق اي جعلناهم
يلحقون بهم في رتبة الكرامة ولهذا لم يقل يلحقونهم وتمام المحمول
قوله وما التناهم من عملهم من شيء ومعنى التناهم نقصناهم وهي
بفتح اللام من لات اي فات ومنه قوله تعالى ولات حين مناص
اي فات بمعنى وقد لا يتم مناص حين مناص كما بيناه في موضعه والضمير
عائد على الآباء ومعناه وما نقصنا من عمل الآباء شيئا من الاجر
حين الحقنا الذرية بهم وقوله كل امرئ بما كسب رهين
عائد على الذرية ويحتمل عوده على الفريقين من اصحاب النار واصحاب
الجنة والرهن ما يحبس ليفتك فكل في يوم القيامة رهين كسبه
فهذا يفكه عمله الى الجنة وهذا الى النار ولما ذكر الكسب لزم ان
يخرج من هذا الالحاق غير المكتسب كالطفل وقد ذكرنا حكم
الاطفال في موضعه ولما قيد القول ها هنا بالايمان من الملحقين
صار ترك الايمان كسبا للبعض فلم يستحق ان يلحق بابيه المؤمن
كما ان الالحاق كسب للبعض فاستحق الالحاق وفائدة الالحاق هو المساواة
في درجات النعيم بين الاب وابنه ولما كان هذا الوعد بالالحاق
محتملا بان يلحق الكافر من الابناء بالمؤمن من الآباء ازال هذا الاحتمال
بقوله كل امرئ بما كسب رهين فعاد معنى الجملة ان المتقين
في جنات ولا من الحقنا به ذريته لم نلحقه بغير ايمان اذ كل
نفس بما كسبت رهينة بل بايمان الحقنا بهم ذرياتهم ولهذا قال

عن الملحقين والملحق بهم وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون
اي امددناهم اجمعين فلهذا ذكر الكتب في وسط الاخبار عن اهل
الجنة لانه مخصص بالذرية وان فهم منه العموم يتنازعون
فيها كاسا تقدم بيان مثل ذلك ثم وصف الجنة بقوله لا لغو فيها
ولا تاثيم اي لا يبتدوا من قابل لغو ولا من سامع تاثيم لقايل ويطوف
عليهم بالكاس غلمان لهم لان اللذة لا تكمل اذا كان الغلمان لغيرهم
كانهم لؤلؤ مكنون اذا ضرب المثل الصفة في الممثول هي مشبهة
احسن ما فيه فلا يجب ان نفهم استواهما في المثل ونجعله مقصود القايل
فلذلك وان احتمل لفظا لم يحتمل معنى لانه يعود ذما لا مدحا بل
يجب ان نكون من الذين يستمعون القول المحتمل للمعاني فيتبعون احسنه
تاويلا كما اننا لو مثلنا الغلمان باللؤلؤ في المقدار لم يسغ عقلا فاذا
كان التمثيل في البياض والصفا تم المدح وتحقق الحسن وقوله
مكنون يشير الى كبار اللؤلؤ وهو الذي يكن ويستر لشرفه
واقبل بعضهم على بعض يتساءلون بما ذا من الله عليكم قالوا انا كنا
قبل في اهلنا مشفقين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون
وهو من ضعف القلب لما يعتري من الخوف ومنه الشفقة
على الاهل والولد ومنه شفق الشمس عند الغروب لضعفه
فمن الله علينا بهذا ووقانا عذاب السموم ولا يناقض التساءل
ها هنا لما في سورة المومنين لان ذلك في يوم القيامة قبل دخول

دخول الكفار الى النار بدليل قوله قبله فلا انساب بينهم يومئذ ولم
يقل ولا انساب لهم بل لما كان في ذلك اليوم لا تجري والدعن ولم
عادة الانساب لا انساب واما قوله واقبل بعضهم على بعض يتساءلون
قالوا انكم كنتم تاتوننا عن اليمين فذلك بعد دخولهم النار وها هنا بعد
الدخول الى الجنة بدليل انا كنا من قبل ندعوه انه هو البر الرحيم
ثم قال سبحانه لرسوله عليه السلام فذكر اي بنعمة ربك وهو القران
وحذف لقوله بعده فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون كما يقولون
عنك ام يقولون شاعر نتربص به ريب المنون حوادث الموت
نتوقع وقوعها به قل تربصوا فاني معكم من المتربصين ما وعدني
الله فيكم ام وليست بمعنى بل كما قيل بل معناه أيقولون كذا ام تامرهم
احلامهم بهذا عقلا وهم ومنه قول المشركين ان محمدا سب الهتنا
وسفه احلامنا اي عقولنا ام هم قوم طاغون ام يقولون تقوله
ثم رد على جميع الاقاويل المذكورة عنهم بقوله بل لا يومنون فلياتوا
بحديث مثله ان كانوا صادقين ام خلقوا من غير شيء كنى بالشيء
عن الخالق لانهم لا يفهمون الا الشيء فافهمهم هذا دون ما قيل ولهذا بعده
ام هم الخالقون ومن ها هنا نرد على من قال ان ام بمعنى بل ام
خلقوا السموات والارض بل لا يوقنون انها مخلوقة بعد ان لم
تكن ام عندهم خزاين ربك الخزاين دالة على ما تحتوي عليه من
ساير النعم والمراد ها هنا الكتب المنزلة وان عم ولهذا بعده ام هم

المسيطرون المسيطر هو مجري السطر على غيره بما يلزمه قهرا
من حكم السطر فالله سبحانه هو المسيطر هاهنا وقوله لست عليهم
اي بملزم بحكم سطر وهي بالسين قراة ابي عمرو والكسائي لانه ماخوذ
من السطر ام لهم سلم يستمعون فيه اي يقفون فيه حين الاستماع
اذا لم يكونوا ممن يصعد الى السماء كالملايكة مثلهم بالشياطين الذين
يسترقون السمع فليات مستمعهم بسلطان مبين بحجة على دعواه
ام له البنات ولكم البنون ام تسالهم اجرا على ما تذكرهم به فهم
من مغرم مثقلون بيناه في سورة ن ام عندهم الغيب
فهم يكتبون اي ام عندهم علم الغيب من امر الاخرة وما جا به القران
فهم يكتبون من الغيب كما كتب ربك في الازل كقوله كتب الله لاغلبن
انا ورسلي اي ليس عندهم علم الغيب ولا يكتبون ما سيكون بل الله
وحده يعلم ويكتب والاولى والله اعلم انه منسوق في هذا المعنى
بقوله فلياتوا بحديث مثله ولما كان القران قد اخبر بكثير من الغيب
وقد جا به محمد صلى الله عليه وسلم وهم لا يقدرون على الاتيان
بمثله مع كونهم يكتبون وهو امي لا يعرف الكتابة قال ام عندهم
الغيب فهم يكتبون وانت لا تكتب فكان الاولى بدعواهم ان ياتوا
بحديث مثله يتضمن الغيب ولهذا بعده ام يريدون كيدا بك
وبرسوله بتكذيبهم وكفرهم فالذين كفروا هم المكيدون ام لهم اله
غير الله سبحان الله عما يشركون وان يروا كسفا قطعا من سحاب

قد يحجب وهو ما ينكسف به نور الشمس وقد تقدم في قوله او تسقط
السما كما زعمت علينا كسفا والمعنى انهم لا يومنون ولو راينا هم
العذاب من السما ساقطا عليهم حتى يحل بهم بل ان يروا يقولوا
سحاب مركوم فذرهم يخوضوا في غمرتهم حتى يلاقوا يومهم
الذي فيه يصعقون يوم لا يغني عنهم كيدهم لا عنهم ولا عن
غيرهم شيا ولا هم ينصرون وان للذين ظلموا منها ولا زوا واما لهم
الى يوم القيامة عذابا دون ذلك وهو عذاب الدنيا بنصر المومنين
عليهم وهذا كقوله ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب
الاكبر لعلهم يرجعون وقوله ولكن اكثرهم لا يعلمون اي لا يعلمون
ان العذاب الادنى نذير بالعذاب الاكبر ودليل على صحة الوعد به
وقدرة الله عليه وبهذا تسقط المعارضة بقول من قال اذا كان
المعذب لا يعلم فلا فايدة في تعذيبه واما البعض الذي يعلم فهو
يتبع محمدا صلى الله عليه وسلم وذلك العلم ماخوذ من كتب الانبياء
وما اخبرت به من الانذارات الدنيوية ونصر محمد وامته وامثال
ذلك مما يدل على صدق الوعد الاخروي ثم عطف على قوله فذكر واصبر
لحكم ربك اي لاجله فانك باعيننا كما بينا في قوله لنوح باعيننا ووحينا
وسبح بحمد ربك اذا قال الحمد لله فهو تسبيح بالحمد حين تقوم
من النوم ولم يخصصه ليستعمل عند كل قيام ومن الليل اي اناء منه
فسبحه اي على كل صورة من قيام وقعود واتكا وهو امر تنبيه

على الأولى والأنفع إعلاماً بفضيلة الذكر في الليل وأنه يجب أن يكون أكثر من النهار وإدبار بكسر الألف ومعناه ضد الإقبال كقوله والمستغفرين بالأسحار وتقديره في وقت إدبار النجوم وأما قوله وأدبار بفتح الألف فهي جمع دبر والمراد به ما يجب من الاعتبار بما يشاهد من قدرة الله في السماء على حركة الكواكب وتغيبها ومثله وإدبار السجود أي بعد انقضائه والله أعلم

سورة والنجم

بسم الله الرحمن الرحيم

والنجم إذا هوى سقط في جهة المغرب وهو اسم الجنس كقوله أو تهوي به الريح وإنما ذكر القسم بهذا لأنه لما كان آخر السورة المتقدمة وإدبار النجوم قال في أول هذه والنجم إذا هوى تنبيهاً على أن الذي غيبها في الدنيا قادر على أن يذهبها يوم القيامة فيحصل التقوى والتذكار بالرؤية والاعتبار ما ضل جواب القسم صاحبكم النبي صلى الله عليه وسلم أي ما ضل عن الهدى كما تدعون وما غوى خاب وجهل وهو من الغي وما ينطق عن الهوى أي ما ينطق به من القرآن ليس عن هوى نفسه بدليل قوله بعده إن هو إلا وحي يوحى أي كما أوحينا إلى النبيين وليس كل ما يتكلم به النبي صلى الله عليه وسلم وحياً لأن قضية الأسرى ومثلها مما نقل عنه فيما قاله ورجع عنه يمنع من ذلك ومنه قوله عليه السلام إنما أنا بشر ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له فمن قضيت له بشيء من

مال

مال أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار علمه إشارة إلى الله لقوله تعالى الرحمن علم القرآن وقوله شديد القوى استعار القوى وعبر عنها بالشدة لنفهم من جنس ما نعلمه وكذلك قوله ذو مرة وهي شدة الفتل قال الشاعر ترى الرجل النحيف فتزدريه وحشو ثيابه جلد مرير أي قوي وقوله فاستوى يحتمل أن يكون المعنى فاستوى المتعلم لقوة المعلم على تعليم من شاء ما شاء إذ لا معلم إلا الله سبحانه لقوله علم السلام الإنسان ما لم يعلم ويحتمل أن قوله فاستوى إخبار عن الله سبحانه لأنه لم يعبر بهذه العبارة لغير الله عز وجل وكذلك قوله وهو بالأفق الأعلى أي هذا البعيد سبحانه هو القريب فهو العلي بالأفق الأعلى وهو الذي دنا بغير انتقال فتدلى والدنو هو إلى سدرة المنتهى في المرتبة لأنها من جهة المخلوقين منتهى ما يصلون إليه ولولا دنو الحق تعالى إليها لما رأى عندها بشر ولا ملك ما يرى والآفاق النواحي واحدها أفق وهو كقوله وهو الله في السموات تعريفاً للعباد بعلو الشأن فهو المنزه عن الجهة والمكان ومنه قوله تعالى وهو معكم أينما كنتم ونحن أقرب إليه فقوله ثم دنا عائد على الله سبحانه دنا في علوه وعلا في دنوه فهو القاصي الداني كما هو الظاهر والباطن وإذا نظر المتأمل إلى من له الغنى المطلق والعلو المحقق ثم مع هذا دنا في علوه إلى أن خلق شاهد ساير الذوات بعد ذرات الكائنات ساجدة له معترفة بالتقصير عن شكر

الايجاد فقط فيا ليت شعري بأي مقام تقوم وعلى اي قدم حتى تؤدي شكر
الاولى من النعم وذلك ايجادها من العدم فكيف وقد تممها بالبقاء وفتح لها
باب الارتقاء الى ان وعدها باللقاء فسبحان من علا فارتفع عن كل ما تشير
اليه الافهام او تومي الى نحوه الاوهام ثم دنا فابتدع كل مفطور من
الارواح والاجسام فتدلى ولهذا قال بتاء الافتعال وعطف بالفاء
فقال فكان من محمد صلى الله عليه وسلم قاب قوسين او ادنى اي
في باب التمثيل وقيل القاب ما بين السية والقبضة وقيل القاب من حيث
الوتر الى صدر القوس والقصد من هذا الكلام مثل اي على ما تقدرونه
انتم من القرب بين المكرم والمكرم فاوحى الله الى عبده محمد صلى الله
عليه وسلم ما اوحى وقوله ما كذب الفؤاد ما رأى اي من الايات لما
ذكر الوحي بقوله ما اوحى ذكر الفؤاد لتعود الرؤية اليه حين الوحي ويكون
المرئي غير الوحي الموحى اعني غير القرآن لانه هاهنا هو الوحي ولهذا قال
بعده ما زاغ البصر ثم بين ان المرئي غير القرآن وذلك بقوله لقد
رأى من آيات ربه الكبرى ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يعرف الكتابة
وقوله ما كذب الفؤاد اي صاحب الفؤاد ما كذب فقال رأيت ولم
يرَ تقول ما كذب قلبي فيما رآه من القضية الفلانية بمعنى انه صح ما
زعمت فيها وما ظننته بها افتمارونه على ما يرى اي ليس الخبر
كالعيان وقوله ولقد رآه اشارة الى ما رآه اولا بقلبه رآه ثانيا
بعينه وهذا على راي من يزعم ان المعراج كان اولا نوما وثانيا يقظة

وفسر الجميع بقوله عن المرئي لقد رأى من آيات ربه الكبرى وليس
المراد انه عليه السلام رأى الله او رأى القرآن لان القرآن وحي وقد
تقدم قوله فاوحى الى عبده ما اوحى وفرغ الكلام عن الوحي ولا يلزم
انه في ذلك الزمن اوحى اليه جميع القرآن بل ما اوحى ثم بعد ذلك ذكر
ما رآه النبي عليه السلام من الآيات بقلبه ثم رأى بعد ذلك
بعينه نزلة في نزلة اخرى وسمى ذلك نزولا وتدليا ودنوا
بعبارة معلومة في التخاطب ليفهم المراد باللفظ المعتاد كقوله يد
الله وقوله باعيننا وغير ذلك فمن علم ان الملك والملكوت آيات
دالات على الصانع وانه تعالى يتعرف الى عباده بما يشهدهم من آياته
تارة بقلوبهم وتارة باعينهم وان التعرف بحسب الاشخاص وان
المتعرف لا يحاط به ولا يتناهى علم ان التعرفات لا تحصر ولا تتناهى
وتحقق ان لله رجالا يتعرف اليهم بالابصار والبصائر في الآفاق
وفي انفسهم فهم يرون الآيات بالقلب والعيان ويرون بربهم
لها صانعها ولكن بالايمان واذا كان بعض الناس له هذا الحال فما
ظنك بسيد الرجال ولما كانت الآيات في النزلة الاولى مرئية بالفؤاد
وفي النزلة الاخرى مرئية بالبصر وكانت الآيات المشهودة
بالبصائر لا تتناهى لم يعبر عن الآيات المشهودة في الاولى بما له
منتهى بل عبر عن الآيات المرئية في النزلة الاخرى بقوله عند
سدرة المنتهى قيل اليها تنتهي رؤية الملائكة والانبياء عندها

جنة المأوى والمفهوم من هذه العبارة أنه مع الدنو من الخالق علو من
المخلوق لأن الرؤية عند سدرة المنتهى وإلى هاهنا كان المعراج وقيل
السدرة عبارة عن الكون وما يتفرع منه كما يتفرع من الشجرة وقيل
هي عبارة عن جسد الإنسان لأن آدم آخر الكون وهو نسخة العالم
الأكبر وهو المعبر عنه بشجرة مباركة فتارة مثلها بقوله زيتونة
وتارة بقوله سدرة وهذه تأويلات استغنينا بفهم المراد منها
عن البحث عنها ومن أراد أن يتبع ما قيل فعليه أن يصحح الدليل واستدل
القائل الثاني بقوله تعالى اذ يغشى السدرة ما يغشى فقال اذ يغشى
البدن لأنه تم نهاية المخلوقات الجسمانية بعد خلق السموات والأرض
وما فيهما فأشار الى غيبة النبي صلى الله عليه وسلم عن حواسه
عند غشيان السكينة ونزول الوحي والقول الأول أشبه وكل
هذه التأويلات ليس لنا أن نخوض فيها بغير دليل من الكتاب والله
أعلم بالصواب ❀ ويجب أن تعلم أن المرئي بالجارحتين في النزلتين
ليس الآيات القدرة وآثار الرحمة ولكن المدلول عليه بسائر الآيات
إيمانا وعيانا هو الله الواحد المتعرف بالكل الى الكل ولهذا قال عن الرائي
بقلبه في النزلة الأولى ما كذب الفؤاد ما رأى وعن المبصر بعينه في
النزلة الأخرى ما زاغ البصر وهذا دليل على أنه صلى الله عليه وسلم رأى
بعينه وقلبه آيات دالات على المتعرف بها فمنها ما لا يقال وهي المشار
إليها بقوله ما كذب الفؤاد ومنها ما قد يقال وهو المعبر عنه بقوله

• ما زاغ البصر أي لم يمل عن رؤية ما قصد به الى رؤية غيره وإيضاح
ذلك أن الصنعة آية دالة على الصانع فكان صلى الله عليه وسلم كلما رأى صنعة
عيانا رأى برؤيته لها صانعها إيمانا فما زاغ بصره عن الغاية بما رآه من
الآية بل رآها آية فقط ومعنى قوله تعالى وما طغى أي رأى الأشيا
على ما هي عليه من غير زيادة كمن رأى المصنوع صانعا فزاد عليه
غيره كقوله إنا لما طغى الماء أي زاد فالفؤاد ما مان والبصر ما مال
ولما كانت المشاهدة حضورا في عالم الغيب وذلك فوق الأقوال
والمحادثة علامة الانصراف الى عالم الشهادة وتلك بضرب الأمثال
وكانت المحادثة بعد المشاهدة ذكر المشاهدة بالآيات المرئية
إيمانا وذلك قوله ما كذب الفؤاد ما رأى وذكر المحادثة بالآيات
المتلوة قرآنا وذلك قوله فأوحى الى عبده ما أوحى ولما رأى صلى الله عليه
وسلم بالإيمان والعيان أكبر ما في الإمكان من طاقة الإنسان قال
تعالى مخبرا عنه لقد رأى من آيات ربه الكبرى تقديره عظائم
وعجائب وما لا يحصى والمفهوم من هذه الجملة أن المعراج كان مرتين كما
قيل نوما أولا لتتوطن النفس على هذه المشاهدة الهائلة وثانيا
يقظة ولا يدل النص على نوم بل على أن إحدى الرؤيتين بالقلب
فيكون المعراج روحانيا والأخرى بالعين فيكون الثاني جسمانيا
أعني بالجسم والله أعلم فهذا على تأويل من يقول إن محمدا صلى الله
عليه وسلم رأى ربه سبحانه أو آياته وقد بينا في سورة كورت

تفسير هذه الآيات يعينها على تأويل من يقول ان الرؤية لم تكن في التنزيل
الا لجبريل وبه نقول فافهمه هناك ولما ذكر رؤيته صلى الله عليه
وسلم لما رآه ذكر رؤيتهم لما يشركون به مع الله تعالى فقال أفرأيتم
اللات وهو اسم مشتق من النقص والفوت من لات الذي مستقبله
يلوت ويليت وسمي بذلك للمبالغة في صفته كما قلنا في صنع يصنع
فاذا اردنا المبالغة في وصف صانع بكثرة الصنايع قلنا صنّع وهذا
من محتملات اللفظ لغة وقيل اللات صنم كانت ثقيف تعبده والعزى
كانت تعبدها غطفان وهي شجرة عظيمة ومناة كانت صخرة عظيمة
لهذيل وخزاعة يعبدونها وقيل الجميع اصنام من حجارة وسبب
عبادتهم للاحجار ان عظماءهم لما ماتوا عمل لهم اولياؤهم صورا منحوتة
من الحجارة على صورة الذي مات ليتذكر بها الناس ذلك الميت بجلالة
قدره فيهم كما يصور النصارى صورة ابراهيم عليه السلام وغيره
ثم جاء الطوفان وبقيت بعده حجارة كبار من هذه الاصنام المنحوتة
فاستمر الجهال على المضي اليها وعلى التقرب بها فعبدها بعض الناس
فاستمر الضلال بها وبامثالها وقوله الثالثة الاخرى لا
يدل على ان الثلاث اناث بل من عادة العرب ان يسموا كل مصنوع
انثى فاراد ان الهتهم مصنوعة فكيف يشركون المصنوع مع الصانع
وهم لا يرتضون مشاركة الاناث وان كانوا امثالهم في الخلقة اعني
بشرا فلهذا بعده الكم الذكر وله الانثى تلك اذا قسمة

ضيزى ضزته حقه اضيزه وضازته اذا انقصته ان هي اي اللات
والعزى ومناة الا اسماء سميتموها انتم واباؤكم اي اسماء فقط
ما انزل الله بها من سلطان ثم اخبر عنهم سبحانه بقوله ان يتبعون
الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ام للانسان
ما تمنى قال معنى الانسان ان يقول ما شاء بغير دليل فكيف يقول هؤلاء
ان الهتهم شركاء وليس لهم شيء فلله الاخرة والاولى وكم من ملك
في السموات فضلا عن اصنام في الارض لا تغني شفاعتهم شيئا من
العذاب فتدفعه عمن فيه الشفاعة الا من بعد ان ياذن الله
لمن يشاء لهم ان يشفعوا فيه وهو معنى ولا يشفعون الا لمن ارتضى ان
يشفعوا فيه ويرضى اي ويرضاه وحذف للوزن ويحتمل ويرضى
الشفاعة فيه والمعنى اذا كانت الملائكة لا تغني شفاعتهم فكيف تغني
من الاصنام عبادتهم ولما ذكر الملائكة ذكر من كفر الكفار ما يتعلق
بالملائكة لان منهم من عبد الملائكة وجعل الالهة المصنوعة عبارة
عن الملائكة المعبودة له فعبدوا تلك الحجارة لكونها تماثيل الملائكة تقربا
بالملائكة اليه كقوله ما نعبدهم الا ليقربونا فهذا معنى قوله وجعلوا
الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا اي جعلوها اصناما مصنوعة
لهم وشهدوا لها باستحقاق العبادة لهذا قال اشهدوا خلقهم بمعنى
كيف يشهدون بالالهية لما عملته ايديهم كقوله اتعبدون ما
تنحتون ولهذا بعده ستكتب شهادتهم ويسألون وهو معنى قوله

ها هنا إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى
أي المصنوع للبشر أي يسمون الملائكة آلهة كما أنهم يسمون مصنوعاتهم
آلهة ولهذا قال تسمية فافهم العبارة جيدا فقد بان لك كيف كانت
عبادتهم للملائكة وكيف يعبد أكثر الناس الجن بصورة أخرى كما
بيناه في موضعه وما لهم به من علم ليس المراد أنهم يفعلون ذلك
وهم لا يعلمون بل يفعلونه بغير حجة من علم لأن الفعل يتبع العلم
بعده
ولهذا إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا أي لا يغني
عن شيء من الحق ثم قال لنبيه عليه السلام فأعرض عمن تولى
عن ذكرنا القرآن ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من
العلم لما كان العلم متقدما على العمل لزم أن يكون العمل مخبرا عن
مبلغ العالم من العلم والمبلغ هو ما يبلغ إليه السالك فمن كان عمله
للشهوات الفانية وهو يدعي أنه بلغ من العلم إلى مبلغ طلاب الآخرة
فهو متشبه كذاب وشبيهه فيما يظهره عن نفسه صاحب الخيال
الذي يخرج ملوكا وشجعانا وليسوا بشيء إن ربك هو أعلم بمن
ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ولله ما في السموات
وما في الأرض فأمر العباد ونهاهم ليجزي الذين أساؤا بما عملوا
ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش
كلها ثم قال بالاستثناء المنقطع إلا بمعنى لكن اللمم وهو الإلمام
بالذنب ثم يتوب وسنبين كيف ذلك وما اللمم وإنما ذكر كبائر

الإثم والفواحش ليعلم أن الذي يلم إنما يلم بالصغيرة وهو معنى إن
تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه وأصل اللمم مأخوذ من اللم وهو الجمع
تقول لممت الذهب إذا جمعته وقربت بعضه إلى بعض ومنه قوله
عليه السلام وإن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا أو يلم أي يقرب
ويجب أن تفهم أن اللمة أصلها في كلام القوم المتعارف بينهم من
قولهم ألم بمكان كذا إذا نزل به على غير إقامة ولا يقال ذلك لمن مر
عليه ولهذا قال الشاعر ضيف ألم برأسي غير مرتحل
يعني الشيب لأنه من ألم يرتحل ولا يقيم فهي صفة الضيف فليس
المعنى المراد بالاستثناء أنهم لا يجتنبون بل أنهم يجتنبون كبائر
الإثم والفواحش كلها لكن إذا نزل أحدهم بصغيرة فإنه لا يقيم عليها
بل يقلع عاجلا فافهم هذا جيدا ودل على الإقلاع والتوبة بقوله
إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض فيه
إشارة إلى آدم وما جرى منه وإن كان المراد أنه سبحانه أعلم بنا
من حين آدم عليه السلام وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا
تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى أي أن الذي ألم وإن كان بصغيرة فإنه
غير زكي ولا تقي حال الإلمام بها لكن الله واسع المغفرة بشرط
التوبة لقوله وإني لغفار لمن تاب ولما أعاد الجميع إلى التقوى التي
هي اجتناب المخالفة أمرا ونهيا كما بينا قال بعده أفرأيت الذي تولى
عن التقوى وأعطى قليلا وأكدى من الكدية وهي حجر تظهر في

البير عند حفره فتوئس من الماء والمعنى انه منع العطا منعا تاما أعنده علم الغيب انه يعيش الى ان ينفق ماله فهو يرى البخل حزما ويرى ان الله غير مخلف ولا مجاز ام لم ينبأ بما في صحف موسى وابراهيم الذي وفى العطا ووفى في ذبح ولده اذا امتحنه الله به والمعنى الم ير في صحف الاولين ان لا تزر وازرة وزر اخرى وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى له وهو من باب فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ثم يجزاه الجزاء الاوفى وان الى ربك المنتهى وانه هو اضحك وابكى اي خلق القوتين اللتين بهما يكون الضحك والبكا كما تقول الله انطق ولا يلزم ان تكون مجبرا على ما تنطق به ولو كان كذلك لما نسب النطق اليك بقوله تنطقون وقد نسبه اليه بقوله انطق كل شيء وانه هو امات واحيا من قوله في البقرة وكنتم امواتا فاحياكم والمراد هذه الحياة الدنيا ولهذا بعده وانه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة اذا تمنى اي حين تخرج منيا تخلقها اما ذكرا او انثى وان عليه النشاة الاخرى وانه هو اغنى واقنى اغنى اذا اغناه عن مسئلة سواه وان لم يكن له قنية واقنى اذا كانت له مقتنيات ولا يكون ذلك الا بعد الغنى وانه هو رب الشعرى وهو النجم الذي خلف الجوزاء وهو احدى كوكبي ذراع الاسد وفم المرزم وقيل انهم كانوا يعبدونه ولطلوعه احكام مخصوصة عندهم بطلوعه في تاريخ معلوم من كل سنة

وذلك مما يبكيكم اصحاب التقاويم الى يومنا هذا ومن الناس من يزعم ان الكواكب هو المؤثر فعرفنا الله انه هو رب هذا المؤثر وعمن يزعم ان له اثرا وانه رب بعضه وانه اهلك عادا الاولى قبل ثمود وثمودا فما ابقى بمعنى فما ابقى منهم احدا في الاهلاك وقوم نوح من قبل انهم كانوا هم اظلم واطغى ممن بعدهم ولهذا كان اهلاكهم عظيما ليس له مثل وكان اهلاك آل فرعون من جنسه والمؤتفكة المنقلبة وهي قرية لوط عليه السلام اهوى من الهوي وهو السقوط والاستفال فغشاها ما غشى كقوله فغشيهم من اليم ما غشيهم وكذلك مدينة لوط عليه السلام لانها مغرقة في ماء كماء البحر فباي آلاء نعماء ربك تتمارى من المراء وهو الخلف والشك والخطاب للانسان الذي قد يستحق ما استحقه احد الامم المذكورة بكفره وقد امهله الله عز وجل ثم ذكر اكبر النعم بقوله هذا نذير من النذر الاولى فمن كذبه اذا لم يلحقه ما يستحقه من العذاب المعجل فانه لا يفوته العذاب المؤجل ازفت الآزفة بمعنى كأنكم وقد دنت الدانية وهي الساعة ليس لها من دون الله كاشفة اى ليس لعذابها الواقع على الانفس نفس كاشفة وانث بقوله كاشفة دلالة على النفس ليعم الذكر والانثى افمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وانتم سامدون اى وها انتم سامدون وهو من سمد يسمد فهو سامد اى عالي الراس ولهذا بعده فاسجدوا لله واعبدوا ⁂

سورة القمر

اية ٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم لما قال ازفت الازفة بان
المنظوم تلوها من جنس الكلام اقتربت الساعة وانشق القمر
اى كانكم بذلك وقد وقع واما ما نقل من انشقاق القمر فان صح النقل
فذلك على طريق المعجزة لقوم مخصوصين وليس مراد الاية ذلك لان
القمر عاد كما كان والمراد انشقاق مقرون بقيام الساعة والقران لم
يشهد للاختلاف المنقول وذلك قوله وما منعنا ان نرسل بالايات قوله
الا ان كذب بها الاولون وتمام الكلام في ذلك وكذلك فان استطعت
ان تبتغي نفقا في الارض او سلما في السماء فتاتيهم باية وكذلك قوله لولا
ياتينا باية كما ارسل الاولون وغير ذلك مما يدل على انه عليه السلام
لم يات باية كما ارسل الاولون والحكمة في ذلك انه عليه السلام لو اتى
باية فلم يومنوا لاستحقوا الاستيصال وهذا رسول رحمة لا
نقمة سوى انه نذير ولهذا امن الله عليهم بقوله وما منعنا ان نرسل
بالايات فان قيل هذا جرى وشاهده اقوام ثقات قلنا ان الله على
كل شيء قدير ونبي الله لا ينكر له انشقاق القمر والشمس والسموات
لكن ذلك ان صح فهو حجة على من راه ولا حجة به على الكفار ولا حاجة
به للمومنين والاية ههنا لا تشير اليه ولهذا لم يقل وقد اريناهم
بل وان يروا اية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر اى من قديم
وكذبوا واتبعوا اهواءهم وكل امر مستقر ولقد جاءهم من الانباء

أي عن انباء من اريناه اياتنا فكذب بها فاستاصلناه ما فيه مزدجر
نهيا عن اتباع المكذبين قبله حكمة بالغة نافية تغني النذر اى عن فما
قوم لا يومنون فتول عنهم بمعنى دعني واياهم بعد ما قد اديت
الرسالة اليهم يوم يدع الداعي الى شيء نكر ينكره الراى له لانه لا
يعرفه ولم ير مثله خشعا وهي صفة للابصار لان عزة العزيز
وذلة الذليل تظهر في بصره لهذا قال ابصارهم يخرجون من
الاجداث المعنى يخرجون وحالتهم هذه منخفضة ابصارهم وقدم
ذكر الابصار على الخروج لئلا يبقى الخشوع كانه صفة للجراد ولان
العرب تقدم الصفة على الموصوف للاهتمام والمبالغة تقول
كريم زيد وكذلك تقدمهما على الاخبار كما ههنا وبين انهم في
خروجهم من القبور كانهم جراد منتشر مهطعين مسرعين الى
الداعي يقول الكافرون هذا يوم عسر عليهم كذبت قبلهم
قوم نوح بالقيامة والجزاء فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر
من قومه وذلك قولهم لئن لم تنته يا نوح الاية فدعا ربه اني
مغلوب فانتصر لدينك ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر فتحنا
بغير تشديد لانها لم تفتح سوى مرة واحدة ثم استمرت الى
ان امرت ومن قرا بالتشديد اراد المبالغة في الفتح كقوله مفتحة
لهم الابواب وقوله منهمر هو كمنهمل ومندفق وكانه ما ينصب
وينظر له عند انصبابه صوت همير كما يهمر الفرس وفجرنا

الأرض عيونا فالتقى الماء الصاعد من الأرض للماء النازل من السماء فالتقا الماء للماء إذ لم يتعارض ولا شيء مما فوقها فالتقى الماء من جوانبها ومن فوقه ومن أسفل على أمر قد قدر بقدر معلوم وحملناه على ذات ألواح ودسر وهي مسامير من حديد لكنها ليست على صور المسامير وهي ما يوضع بين الدفتين لضبطها ويسمونها النجارون بفتح السين ويقال دسره إذا دفعه والحديث في العنبر إنما هو شيء دسره البحر تجري بأعيننا أي بمرأى منا جزاء لمن كان كفر أي لكفره وهو نوح عليه السلام ولقد تركناها أي تلك الفعلة ويحتمل السفينة بمعنى لأمثالها من السفن آية أي ليتذكر ركاب السفن بها فهل من مدكر ما جرى من ذلك لمن آمن من النجاة ولمن كفر من الإغراق فكيف كان عذابي ونذر وهي جمع نذير أي فكيف رأيتم عذابي للمكذبين ونعمتي بالنجاة للمنذرين وتارة تأتي النذر بمعنى الإنذار ولقد يسرنا القرآن للذكر لأجل التذكر به فهل من مدكر به ما جرى لنوح وقومه وأصل اللفظة مذتكر كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر تنزع الناس من حفر حفروا لأنفسهم تكنهم من الهواء لهذا قال مشبها كأنهم أعجاز نخل منقعر أي قلع من قعر وهذه هي الأيام المعروفة بأيام الأعجاز مشتقة من العجز والوجه في إعادة ولقد يسرنا القرآن أنه في كل قصة وقصة يريد أن يذكر بالقرآن لمن يأتي من أمثال أهل تلك الصفة في بقية الزمان كأنه قال

فهل من متذكر من الآتين ما جرى لأمثاله من الماضين ولما كان هذا النبي مبعوثا إلى سائر الناس وكان في الآتين من هو على سنة الماضين لزم أن يكون التذكار بالماضين من أهل الأعصار فلزم التكرار من أجل الترهيب والإنذار ولهذا لم يتل الأقصص المكذبين كذبت ثمود بالنذر فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر وهو الجنون يقال ناقة مسعورة وقد بيناه أألقي عليه الذكر عليه من بيننا أي فكيف يكون ذلك ونحن أولى منه بل هو كذاب أشر فقال الله تعالى سيعلمون غدا من الكذاب الأشر البطر الذي لا يبالي ما قال ويقال بالضم ومثله يقظ وعجل ونجد وحذر والمعنى واحد إنا مرسلوا الناقة فتنة محنة لهم فارتقبهم فارتقب ما يجري لهم وهو من المراقبة واصطبر على تكذيبهم لك ونبئهم أن الماء قسمة بينهم وبين الناقة كل شرب محتضر على غير صاحبه والشرب بالكسر النصيب والحظ من الماء ويضم الشين فعل الشارب وحاضرته بالضاد جاثيته عند السلطان فالمحتضر المجتنب فنادوا صاحبهم بالحض على عقرها فتعاطى القدرة على عقرها فعقر الناقة فكيف كان عذابي ونذر وهذا كما تقول لصاحبك سلني كيف كان علي مع عدوي وصديقي ثم تقول أهلكت العدو وأحسنت إلى الصديق إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر

المحتظر هو الذي يعمل الحظيرة بمعنى الاحتظار وهو الاحتجار والمنع لانه
يمنع فيها الابل والحجر والهشيم المتكسر من شجر جمع في الحظيرة فان
المحتظر ياخذ ما وجد ويلقي بعضه على بعض كيف اتفق ليسيج به
سياجا فاذا يبس وضربته بالعصا تهشم متهتنا نثرا صغارا فشبههم
بذلك ولقد يسرنا القران للذكر فهل من مدكر بالقران قصة
ثمود كذبت قوم لوط بالنذر انا ارسلنا عليهم حاصبا الا ال لوط
نجيناهم بسحر نعمة من عندنا عليهم كذلك نجزي من شكر من
امثالهم الى يوم القيامة ولقد انذرهم لوط بطشتنا فتماروا
من المرا وهو الخلف بالنذر جمع انذار والاولى انها جمع نذير
وجمع لان من كذب رسوله فقد كذب الرسل ولقد راودوه
عن ضيفه كقوله تعالى هي راودتني عن نفسي فطمسنا اعينهم
فذوقوا عذابي ونذر هذا نوع اول من العذاب وهو الطمس
وقوله ونذر يحتمل ما معناه فذوقوا عذابي وعذاب نذري اي
الذي تستحقونه بسبب تكذيب نذري لانه قال اولا كذبت
قوم لوط بالنذر ويكون المراد جمع نذير وهو الاولى ويحتمل انها
جمع انذار كما قدمنا ويكون المعنى كقوله ذوقوا عذاب النار الذي
كنتم به تكذبون اي تكذبون بصحته ووقوعه ولقد صبحهم بكرة
عذاب مستقر لم يمر عليهم بل استقر بهم حتى استاصلهم
فذوقوا عذابي ونذر في الدنيا وهو العذاب الثاني بعد الطمس

ولقد يسرنا القران للذكر فهل من مدكر بالقران ما جرى لقوم لوط
مما يفعل امثالهم فتنفعه الذكرى لئلا يحل به ما حل بهم في الدنيا
او يؤول امره الى ما آل امرهم اليه في الاخرى ولقد جاء ال فرعون
النذر كذبوا باياتنا كلها فاخذناهم اخذ عزيز مقتدر اكفاركم
يريد من كان منكم كفره مشبها كفر المذكورين لاتباعه احد الامم
المهلكة بعمله فهذا معنى قوله اكفاركم خير من اولئكم ام لكم
براءة في الزبر اي من العذاب والزبر في لغة العرب الكتب واحدها
زبور والمراد بها هاهنا الكتب المنزلة على الانبياء صلوات الله
عليهم اجمعين وقوله فيما سياتي وكل شيء فعلوه في الزبر يريد
الكتب التي كتبتها عليهم الحفظة بدليل ما بعده فكرر صورة اللفظ والمد لول
عليه به غير الاخر ام يقولون نحن جميع يدلون بكثرتهم اي
نحن حزب وجمع منتصر لنفسه سيهزم الجمع ويولون
الدبر على الدبر وهذا اخبار بما كان قبل ان يكون وبما سيكون
الى يوم القيامة ثم حذف ما تقديره لا يحسبن هؤلاء ان عذابهم
في الدنيا هو جزاؤهم فقط بل الساعة موعدهم والساعة
ادهى وامر مما سيجري عليهم في الدنيا من العذاب ومما يتوهمونه
في الاخرة من العذاب الذي تواعدناهم به ان المجرمين في ضلال
في الدنيا وسعر جمع سعير في الاخرى واصله الجنون
يقال ناقة مسعورة اي هائجة على وجهها فالسعر ماخوذ من ذلك

يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر وهو اسم من
اسماء جهنم والمس من قوله مسني الشيطان بنصب ثم قال تعالى
انا كل شيء خلقناه بقدر معلوم لحكمة بالغة ولم نخلق شيئا عبثا
وتقديره انا خلقنا كل شيء ولهذا فتح كل وقدمه في الذكر للاهتمام
به في اهلاكه ان شئنا الا واحدة كلمح بالبصر ولقد اهلكنا اشياعكم
الاشياع الجماعات ونسبهم اليهم لمشابهتهم لهم في الكفر والاعمال
المنسوبة الى كل طايفة من المهلكين المذكورين ممن تقدم فهل من
مدكر ما جرى للاشياع وكل شيء فعلوه الاشياع المهلكة
في الزبر اي لم نهلكهم بظلم منا بل بافعالهم وكل صغير وكبير من
الاقوال والافعال لكل ممن خلقنا مستطر في كتاب تسطره
الحفظة في الدنيا لنجزيهم به في الاخرة ان المتقين في جنات
ونهر في مقعد صدق من وعدنا ويحتمل انه من جهة الصادقين
لان المقعد فيه الصادقون كما تقول دار علم اذا كان يجلس فيها
العلما ومقام حرب اذا كان يقوم فيه المحاربون فهو لا من جهة
انفسهم بالتقوى في مقعد صدق ومن جهة بارئهم سبحانه
عند مليك مقتدر على ما يشا من الاحسان الذي لا تعلمه نفس
انسان ⁂

سورة الرحمن سبحانه ٧٧

بسم الله الرحمن الرحيم الرحمن علم القران
بدا بالرحمة لانها وسعت كل شيء وتقدمت عليه وتلا ذلك بالعلم

لانه من اعظم الهبات التي لا تستحقها العباد بل برحمته اتاهم
ثم ذكر القران ونسبه الى نفسه سبحانه اذ هو المعلم اعلاما ان لا
علم الا والقران يحتوي عليه اذ ما علمه العليم لا يجهل معه ولا علم
الا يتبعه وقدم ذكره مبالغة في تعظيمه ثم قال بعده خلق الانسان
علمه البيان وهو الفهم والافهام اللذان تلزم بهما الحجة وتتضح
المحجة ثم عرفنا انه تعالى خلق الانسان لا يعلم ثم علمه كقوله تعالى
والله اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا والبيان هو ما يبين
به المرء ما في نفسه من مآربه الباطنة والظاهرة من امور الدنيا
والاخرة وهو فضيلة الانسان الذي من اجله كونت الاكوان وانزل
القران فكلما كان الانسان اشد ابانة كان اخص بصفة الانسانية
ولما كانت العربية عبارة عن البيان يقال اعرب الرجل عن حاجته
اذا ابان عنها وكان سيد العرب صلى الله عليه وسلم اخص بها
من ساير الناس لزم ان يكون مبعوثا الى ساير الناس فانظر الى اشرف
علم من اعظم معلم لافضل متعلم ولما ذكر النعمة الكبرى وهي
القران واتبعها بذكر النعمة الضرورية للانسان وهي تعليم البيان
اخذ يعدد ما انعم به بعد ذلك على نوع الانسان لتكون هذه
النعم كالبرهان على ما افتتح به هذه السورة وذلك قوله الرحمن
فقال سبحانه وتعالى الشمس والقمر بحسبان اي يجريان بحساب
وحساب وحسبان مثل شهاب وشهبان والنجم والشجر

سجدان يريد سجود الطاعة والانفعال لما أريد بهم والنجم ما نجم من
الأرض من النبات دون الشجر وفيه تورية بعد ذكر الشمس والقمر والكل
ساجد كما ذكر في مواضع أخر والسماء رفعها ووضع الميزان معلوم
من قوله ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تفهم من قوله
ووضع واهبط بل وضعها موضوعة لا وضيعة ولما ذكر الله سبحانه
أنه وضع الميزان ورفع السماء وهو من الرفعة لا الإزالة كما قد قد
يفهم من العبارة بلفظ الرفع حذف ما معناه يحذركم ألا تطغوا
في الميزان الميزان يريد هاهنا العقل ولهذا خصصه بالطغيان ويشتمل
أيضا على الميزان الظاهر ولما كان ذكر الميزان بعد الطغيان مكررا
بعد الأول علمنا أنه أراد ما يتعلق بنا مما يوزن به وليس إلا
العقل في الأمور المعنوية والمعيار في الأشياء الجسمانية ولهذا
ذكره ثانيا ولم يقل ألا تطغوا فيه ليعلم أن الأول ميزان الرحمن
والثاني ميزان الإنسان تحذيرا للعباد وإعلاما أنه كما تزنون يوزن
لكم ولما كان الميزان المذكور وسطا أدل على العقل وإن اشتمل على
الميزان الظاهر قال بعده ما هو أدل على الميزان الظاهر وإن اشتمل
على العقل وذكر الوزن ليكون الكلام جامعا لما يتعلق بالميزانين الظاهر
والباطن فقال وأقيموا الوزن بالقسط العدل ولا تخسروا
الميزان الظاهر الذي هو أولى بأن يخسر به لا أن تقدروه ولا تخسروا
بالميزان وإذا كان قد ذكر الميزان الذي يوزن به أعمال العباد

في المعاد

في المعاد ثم ذكر الميزان الباطن مع الطغيان وذكر الوزن بين الميزان
الباطن والميزان الظاهر ونهى عن الإخسار بعد تنبيه عن الطغيان
فقد تم الكلام وفهمنا من قوله ووضع الميزان أنه ميزان الأعمال
في المآل لقوله تعالى ونضع الموازين القسط ليوم القيامة وقوله
ألا تطغوا أي لا تزيدوا في القبض وقوله ولا تخسروا أي لا تنقصوا
في العطاء وهو كقوله إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم
أو وزنوهم يخسرون واستغنى بذكر الوزن مع الكيل اختبارا عن أن
يذكره مع الكيل أولا في تلك الآية وقوله والأرض منصوب على
العطف بقوله خلق الإنسان والسماء والأرض ويحتمل أن يكون مفعول
وضعها للأنام فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام والحب ذو العصف
لما ذكر الشجر ذكر ما ليس بشجر ولما ذكر الأكمام التي تستر الثمر كما يستر
الكم اليد فكفل بذكر الأكمام على ما فيها ذكر الحب وهو كالقمح والشعير وغيرهما
والعصف من عصفت الريح تعصف عصفا فهي عاصف وعاصفة إذا أسرعت
في سيرها واشتدت وقوله فجعلهم كعصف مأكول أي هو من مأكول
الدواب إشارة إلى صغر أجزائه والعصافة ما سقط من السنبل من
تبن كقولك كناسة لما يكنس من أي جنس كان فكذلك عصافة وإنما سمي
العصف لكونه أهلا لأن تذهب به الريح العاصف وهي التي تكسر ما
تكسره فيبقى عصافة فقال تعالى لما من شأنه ذلك مما له حب والحب ذو
العصف أي ذو البقل والنبات الصغير والنجم وكذلك كل ما تعصف به الريح

إذا حصد فأخذ حبه وبقي تبنه والريحان هو ذو الرائحة الطيبة
سمي بذلك لما يحصل للمستنشقه من الراحة برائحته ومن قرأ بجر النون
أراد والحب ذو العصف وذو الريحان ومن قرأ برفع النون أراد كلما له
رائحة طيبة ثم قال مخاطبا للجن والإنس وهذا من جملة الفصاحة وهو
أن يذكر المخاطب بعد جملة من الخطاب فقال لأنه حاضر لم يزل فبأي
آلاء واحدها إلى ومعناها نعماء ربكما تكذبان والوجه في إعادة
هذه الآية لما اختلفت النعم المذكورة كرر التوقيف مع كل واحدة منها كما يحتج
الخصم فتعدد عليه إحسانك إليه في جملة لا سبيل له إلى جحدها ولا
يمكنه إلا الاعتراف بها ثم تقول بأي نعمة من هذه تكذب وكذلك تذكر
له نوعا آخر من النعم وتكرر عليه ذلك القول بعينه فلو قلت مهما قلته
جاز لك أن تكرر ما كررته بجواز جحده لما تذكره ثانيا أو ثالثا وهلم جرا ثم
بعد ذلك في هذا التكرار ما قاله الحسن بن الفضل أنه لطرد الغفلة وتأكيد
الحجة وفي ترتيب ذكر النعم حكم خلق الإنسان من صلصال كالفخار
وخلق الجان من مارج من نار للنار نور محض ودخان هو ظلمة محضة
واللهب هو المتوسط من كليهما وهو المارج أي المختلط ولما كانت
النار محرقة تفني الموجود والتراب منبتا يوجد المعدوم وكان الإيجاد
مما يعدم نعمة ومما يوجد نعمة بوجه ووجه يدركه الفطن بالتفكر
قال بعده فبأي آلاء ربكما تكذبان والحالة في إيجادكما هذه ثم قال
رب المشرقين ورب المغربين يريد جهتي الطبع والقسر من حركات

الكواكب طبعا من المغرب إلى المشرق وقسرا أي كل يوم من المشرق إلى
المغرب وفي ذلك من الآلاء ما لا يعلمه إلا الله سبحانه من عدد السنين
والحساب وغير ذلك من أنواع العجائب ولهذا قال بعضهم إن الحركتين كبحري
العجائب يخرج منهما ما يتكون في الأكوان من المعادن والنبات والحيوان فبأي
آلاء ربكما تكذبان ولما كان هذا البحر والخلط غير ظاهر للعيان قال بعده
مرج البحرين يلتقيان أي خلطهما إذ يلتقيان بينهما قبل الالتقاء
برزخ حاجز لا يبغيان من أجل الحاجز فلا يبغي العذب الفرات على الملح
الأجاج ولا بالعكس إذ لو بغى العذب مع وفوره وكثرة ما يموت فيه
لنتن فأهلك أهل الدنيا ولو بغى الملح لهلك الناس والدواب فبأي
آلاء ربكما تكذبان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان والإخراج بعد
خلطهما وذلك لا يكون إلا في الملح ولهذا قدم قوله مرج البحرين وقال
منهما لأنهما يعودان في المزج كالذكر والأنثى وقال بما لم يسم فاعله
يخرج لأنه هو لا يخرج بل يخرج وسمي اللؤلؤ من اللألاء والمرجان
من المرج وهو الخلط لأنه عروق مختلطة والمارج ذؤابة لهب النار
المختلطة بالدخان ولأنها تذيب الأجسام وتخلطها فبأي آلاء
ربكما تكذبان وله الجوار الفلك تجري في البحر بأمره المنشآت
في البحر أي لعظمها لا يمكن أن تنشأ في البر وتنقل إلى البحر بل يكون
إنشاؤها في نفس البحر ولهذا قال كالأعلام الجبال فبأي آلاء
ربكما تكذبان ولما نسبها في الذكر إليه تعظيما لها بقوله وله الجوار

وكان هذا المصنوع العظيم انما هو من صنعة البشر ذكر قدرته سبحانه على
اذهاب صانع هذا المصنوع العظيم فقال **كل من عليها فان** اى قدم
قوله والارض وضعها للانام قال عليها ليعم الانام فى ساير الازمان
ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام فباى آلاء ربكما تكذبان
والذى عليها هو الاجسام واما الارواح ففى برزخ فهى منقولة لا معدومة
ولهذا كان البعث بالاجسام لان النشاة الثانية بنفخة ابلغ فى القدرة
من النشاة الاولى لما لعله كان زمانه ماية سنة وعبر بالوجه عن الله سبحانه
لانه لما كان ظهور الانسان بوجهه اشار بالبقا الى ما به يكون الظهور
وهو من باب الاستعارة كما تعبر عن جملة المعنى بقولك هذا وجه
حسن وكما امر على ابن ابى طالب رضى الله عنه بنار فاججت وقال
للاعرابى الذى سأله عن وجه الله اين وجهها فقال الاعرابى كلها وجه
يسئله من فى السموات والارض كل يوم لانه تعالى اليه تنتهى مسايل
السايلين فهم يسالونه حوايجهم وقال كل يوم بفتح اللام ولم يقل كل
ساعة لانه ما من احد الا وهو يسال باكال قوته كل يوم وان لم يسال
حاجة اذ لا بد لكل من قوت فى كل يوم وهو معنى قوله تعالى وقدر
فيها اقواتها فى اربعة ايام سوآء ثم قال للسايلين اى للسايلين الاقوات منه
سبحانه بالحال او بالمقال ثم قال سبحانه من باب التعظيم لنفسه **هو فى شان**
والشان معنى له عظم وهذا وصف له سبحانه متعلق بذاته لا بزمان لانه
ما هو بالزمان يلزم عنه الزيادة والنقصان الا ان قيل معناه كل يوم هو فى

شان واحد لا يتغير والاول اولى واحسن وينطبق عليه **فباى آلاء
ربكما تكذبان** فانظر الى غلط الناس اذ يقول قايلهم يا من هو كل ساعة
فى شان لانه تعالى لا يحول ولا يزول ولا تعتريه الزيادة والنقصان
فهو الاحد من كل وجه بكل اعتبار فيما يكون وكان **سنفرغ لكم
ايها الثقلان** وهذه الصورة تاتى فى الكلام تعظيما فى الوعيد لا لاشتغال
الموالى عن العبيد وكونه سبحانه اخرهم الى المستقبل وتواعدهم ليتوبوا
فذلك من جملة الالاء **فباى آلاء ربكما تكذبان** والثقلان ماخوذ
من الثقل الذى يراد به العظم كقوله ثقلت فى السموات والارض **يا معشر
الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار** وهى اطراف **السموات
والارض فانفذوا** هاربين من الموت والعذاب **لا تنفذون الا بسلطان**
اى ولا سلطان لكم تتسلطون به على النفوذ فلو فعلتم **يرسل عليكما شواظ**
لهب **من نار ونحاس** جملة والا فلا يكون شواظا **فلا تنتصران** ومعنى
الاية انما اذا عجزتم عن النفوذ من اقطار السموات والارض فى الدنيا
فانتم عن الهرب من الجزاء فى الاخرى اعجز فالسموات والارض تشهد
الانسان انه فى ذل الحصر ومقام الجهل والقهر ولما كان هذا التهديد والترديد
والزجر والوعيد من ابلغ الالاء قال بعده **فباى آلاء ربكما تكذبان**
ونسق من هذا الباب عليه قوله **فاذا انشقت السما فكانت وردة**
اى فى وردة واحدة واصلها من ورد يرد وردا وورودا وفى التانيث
وردة واحدة كقولك هبطة ووجبة وقال لى رجل من اهل البران

قوله تعالى كالدهان يريد به وردة الكبر وهو القبار يعني زهرته
فهي تنشق كالشقيقة من شقائق النعمان وقيل الدهان جمع دهن وهذا
الوعيد هو بعد القيامة وليس هناك ايام كايام الدنيا انما هو يوم
واحد لا اخر له وقد سميت كل حالة تكون فيه يوما ويحتمل ان قوله
كالدهان كقوله يوم تكون السماء كالمهل فهو النحاس المذاب وهو شبه
الدهان الذي يوضع على الاخشاب والحيطان اعني المذاب المايع فذلك
يوم ليس فيه سؤال بل جزا ولهذا قال فباي آلاء ربكما تكذبان
قال تعالى فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان فباي آلاء
ربكما تكذبان يعرف المجرمون بسيماهم علامتهم يوم تبيض وجوه
وتسود وجوه فيؤخذ بالنواصي والاقدام ناصية الشعر في مقدم
الراس تجرهم الزبانية بنواصيهم واقدامهم فباي آلاء ربكما تكذبان
ويقال لهم في ذلك اليوم توبيخا عند الجزاء على ما كان منهم في الدنيا من التكذيب
للآلاء هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون والاولى انه اخبار من الله
للناس الآن ولهذا قال يكذب يطوفون بينها وبين حميم آن
اصله آني اي بالغ في النضج وقوله يطوفون اي بين طبقات النار كقول
القائل بيننا نتقلقل بين جوع وعطش يشكوا وجود الالمين ولا يدل على
خروج من احدهما الى الآخر فباي آلاء ربكما تكذبان وهو الذي يخيفكم من
هذه وامثالها اذا خفتم مقامه ولمن خاف مقام ربه جنتان والمقام يريد
به مقامه بين يدي الله للحساب فالذي خاف ترك المعصية بعد ان هم بها واحدى

الجنتين لامتثال الامر والاخرى للانتهاء عن النهي وكلاهما للمتقي واحداهما
ارفع من الاخرى كقوله في جنة عالية اي على جنة دانية تحتها فباي
آلاء ربكما تكذبان ذواتا افنان جمع فن وهو ضرب ونوع وتقول
هذا صاحب فنون حسنة تمدحه في علوم او اعمال فباي آلاء
ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان فباي آلاء ربكما تكذبان فيهما من
كل فاكهة زوجان لما كان الزوجان متشاكلين هذا مثل هذا وبينهما فرق
فلذلك اراد في الفاكهة كما تجد في الرمان حلوا وحامضا ومثل ذلك
فافهم من قوله وهو الذي خلق الازواج كلها يريد ما جمع بين المماثلة
في شيء والمضادة في آخر فباي آلاء ربكما تكذبان متكئين على فرش بطائنها
من استبرق فكيف ظواهرها وقيل هو الديباج وكل هذه الامثال تعرف
بما يعلمونه ويؤثرون الالتذاذ بمثله في الدنيا وجنا الجنتين دان
لا يحتاج الى التعب ولهذا قال بعض المتصوفة هو ثمرة ما كان قد استحق
في بواطنهم من العلم بالله الذي تعبر عنه الالسن فشاهدوه بالقلوب
والاعين من مكان قريب فهو لا شك جني دان فهذا التاويل وهو من
جملة جنا احد الجنتين فباي آلاء ربكما تكذبان فيهن اراد في هذه
الفرش متكيات مع المتكئين قاصرات الطرف قصرن الطرف على زوجه
من منع بين وقيل اراد ما يشبه الغنج قال الشاعر في مثله
لحظات بها انكسار فتور لصحاح القلوب منها انكسار لم يطمثهن
الطمث الحيض ولما كانت البكر عند الافتضاض يجري لها كذلك من مجرى

الحيض أضيف ذلك إلى الرجل لأنه هو الذي طمث وقد وعد الله أنهن أزواج
المؤمنين بعينهن كما قال فجعلناهن أبكارا ولقد حكى بعض أصحاب الكشف أنه
بعد مشاهدته اتفقت له يوما ما رأى حوله نحو سبعين صورة من
النساء كل واحدة منهن لا سبيل إلى وصفها في الحسن ولا يتصور أن يرى
مثلها في نساء الدنيا وكان لا يستحيي مد العينين فرأى كل واحدة من
النسوة في صورة زوجته لا يشك فيها مع اختلاف الصور التي تخطف
القلب بالبصر قال الشاعر إني ومن أحبتها خصمان عند ذكري
الفكر ترنو فتخطف مهجتي وأري فيخطفها البصر فتمنيتي بنواظر وأعود
أحيا بالتنظر وذكرت هذا الفصل لما صح عندي صدق المخبر به فجعلته
ههنا برهان صدق الوعد في قوله لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان وسيتبين
الجان فبأي آلاء ربكما تكذبان كأنهن الياقوت والمرجان فبأي آلاء ربكما
تكذبان هل جزاء الإحسان إلا الإحسان أخبر سبحانه بأن هذا كله جزاء وإن
كان بما لا يجزى فبأي آلاء ربكما تكذبان ومن دونهما أي تحت جنتان
واحدة تحت الأخرى وقوله مدهامتان أي من شدة خضرتهما فهما
من شدة الري والشجر المتكاثف الملتف كالشيء المسود إذا رئي كما يرى
الأخضر على بعد أسود فوصف الجنتين أولا بأفنان أي لا تتناهى وهما للسابقين
جنة روحانية فوق جنة جسمانية ثم ذكر بعد ذلك ما لأصحاب اليمين
ولم يذكر الأفنان بل وصف ما يتعلق بالمعروف من الجنان الدنيوية تمثيلا
فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان نضاختان فوارتان ووصف تلك

بالجريان وهذه بالفوران ليعلم بالأمثال ما تشاهد لذة مثله في الدنيا
وللمتأولين ما هو معلوم بالتفكر والتأمل بعد ذلك كما أن الفوران من المكان
الداني يكون عن الجريان من المكان العالي فيكون ما لأصحاب اليمين جزءا مما للسابقين
فبأي آلاء ربكما تكذبان فيهما فاكهة ونخل ورمان ثم برزه فيه
بعضه على بعض وغطى بالقشر فبأي آلاء ربكما تكذبان وقوله فيهن
خيرات حسان فبأي آلاء ربكما تكذبان الخيرات ههنا جمع خيرة
وبينهن بقوله بعد حور بيض وهن غير الأول المذكورات للسابقين
بل هي لا لأصحاب اليمين فأولئك قاصرات الطرف ولهذا قال بعض المتصوفة
أن الإشارة إلى أنفس السابقين قصرن الطرف على النظر إلى وجه الله وحده
وأما أنفس أصحاب اليمين فإنهن مقصورات في الخيام وجعل هذا المتصوف
بما فهمه من الآية على مراده من طريقه أن الخيام هي الأجسام في الآخرة
وأن السابقين تلذذهم بالنظر إلى ربهم وأصحاب اليمين بالنظر إلى ربهم بواسطة
أنفسهم وكل تأويل لا يرده عقل ولا شرع فجائز والمقصورات في الخيام مثلهن
بذلك صيانة لهن لعظم قدرهن وفرط حسنهن كما تصان المليحة وتصان في وتقصر
قصرها واعلم أنه لما تقدم ذكر الفرش في الجنتين أولا وقال فيهن ولم يقل فيهما
كانت الإشارة إلى الفرش لا إلى الجنتين وكذلك لما قال ههنا فيهن اكتفى بهذه
الكلمة عن ذكر الفرش التي ذكرها أولا ودل على ذلك ههنا بذكر من ذكرهن
في الفرش هنالك فهنالك فيهن قاصرات وهنا خيرات ولهذا قرأ بعضهم خيرات
بتشديد الياء ولهذا لم يقل وحور بل فسر قوله خيرات حسان بقوله حور

مقصورات في الخيام فالمراد بقوله خيرات هو النساء لا الأزواج وإن
قيل الأزواج أعم والنساء من جملتهن قلنا النساء أخص بهذا الكلام
ولهذا قال فيهن ولم يقل فيهما ليعلم بهذا الإيجاز أن الإشارة إلى الفرش
وهذا أعظم البلاغة الجامعة بين البيان والإيجاز ويحتمل أن يزاد
على ما قلناه أن كل واحدة منهن خير من الأخرى كما يقال في وصف
نسوة حسان كل واحدة أحسن من الأخرى إشارة إلى أن الناظر
دائما يشغله ما يراه ثانيا بالعيان عما رآه قبله مما استقر في الجنان
فلو عاد إلى رؤيته الأولى بعد رؤية الأحسن لرآها في عينه أولى
وأحسن فهو لا أيتهن أحسن فكلهن خيرات حسان فبأي آلاء
ربكما تكذبان لم يطمثهن إنس قبلهم قبل أصحاب اليمين كما سيأتيك
ذكر الحور لأصحاب اليمين بعد هذه السورة فافهمه ولا تنس وأما
كونه ذكر الأوائل بلفظ المتقين وهو يريد السابقين فذلك مبني على
قوله تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم فسماهم بصفتهم ليخص السابقين ويعم
أصحاب اليمين ولهذا قدمهم في الذكر وجعل لهم أولا كما جعل لأولئك تكرر
قوله لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان فبأي آلاء ربكما تكذبان وكذلك لكل قوم
جنان روحانية وجسمانية فأخبر أيضا عن أصحاب اليمين بقوله متكئين على
رفرف أي مع متكئات من الحور والرفرف يريد به السرير العالي كقوله متكئين
على سرر ومنه الرف الذي هو دف يوضع عليه ما يعز من الآلة صيانة لها في مكان
عال من البيت وقيل هي فضول المحابس أو المنابت وقيل الوسائد ذوات الرفارف

كما يوضع على الكراسي وسائدها أطراف مشرفة ترفرف لتحول بين الساعد
والكرسي فسمي الزمارف زينة على طرف الكرسي فكني بالرفرف عن الوسائد
ذات الرفرف وقيل هو كسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى من ذلك والواحدة
رفرفة والرفيف الإحاطة يقال فلان يرفنا بالضم أي يحوطنا ومنه رفرف
الطائر بجناحيه على فرخه ورفرف الطير إذا ارتفع ومنه قيل رف
الدجاج إذا علا على مكان في المبيت ثم وصف الرفرف بقوله خضر
وعبقري وهو عند العرب كل ما ينسب إلى حذق وجودة صناعة
وقوة وما يتعجب منه يقال له عبقري وفي الحديث كان يسجد على العبقري
وهي البسط التي فيها الأصباغ الملونة والنقوش ومن عادة أسرة
الملوك أن تعبقر وتزوق بأنواع الأدهان ذوات الألوان وغلب
الخضرة فقدمها في الذكر ليكون التزويق على ما أرضه خضرا ثم وصف
الرفرف بقوله حسان فبأي آلاء ربكما تكذبان تبارك اسم ربك ذي
الجلال وهو مقام الخوف لأهل الوعيد والإكرام وهو مقام الرجاء
لأهل الوعد والشهود لأهل الصفاء لا يكون إلا من باب الجلال أو من باب
الجمال أو من مجموعهما وهو من باب الكمال ولما ذكر هذه المخلوقات
الحسنة قال بعدها تبارك كقوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين فسبحان
من جعل العالمين بما فيهما آيات دالات عليه وألسنا داعية إليه

سورة الواقعة

آية ٩٦

بسم الله الرحمن الرحيم إذا وقعت الواقعة تقديره التي

ليس لوقعتها كاذبة وهذا الكلام وما بعده مبتدأ ثم أخبر عنه بقوله فأصحاب
الميمنة والمعنى إذا قامت القيامة فالناس على ثلاثة أقسام فقدم فيما يتعلق
بالقيامة كلاما ثم ذكر فيما يتعلق بالأقسام كلاما وقوله هاهنا كاذبة هي
مصدر بمعنى ليس لوقعتها كذب ومثله لا تسمع فيها لاغية أي لغو ومثله قوله
والمؤتفكات بالخاطئة أي بالخطيئة ومثله يعلم خائنة الأعين أي خيانتها ومثله
في عيشة راضية أي رضى ويقال رجل رضى أي مرضي والعرب تضع المصادر
مواضع النعوت والواقعة هاهنا يريد بها ظهور الأمر وحدوثه ثم وصف وقوع
تلك المصيبة الواقعة وصفها بها وأنها تخفض وترفع ولم يقل تخفض الريح على
خفضة واحدة بل قال ما يدل على صفة لازمة لها في خافضة رافعة أي
تخفض وترفع إلى أن تقضي بين العباد كما تفعل الزلزلة وليس المراد ما قيل أنها
ترفع أقواما وتضع آخرين بل هذا وعيد لأهل الوعيد وتخويف بعذاب
شديد ولهذا بينه بقوله بعده إذا رجت الأرض رجا والارتجاج التزلزل
وهو الحركة المضطربة كما يقال ارتج السهم عند خروجه من القوس إذا اضطرب
وبست الجبال من البسيس وهو من جنس البث غير أنه أصغر ما يكون
من الأجزاء ولهذا قال بعده بسا والبس هو القطع كما تخاطب بهذه الكلمة
لمن أردت قطع قوله أو عمله ثم وصف الجبال بعد البس بما يعرفنا به صغر الأجزاء
بقوله فكانت هباء منبثا ثم أخبر عن حال الناس كلهم عن الأولين والآخرين
من الكفار والمؤمنين بقوله وكنتم أزواجا ثلاثة والمراد بالأزواج أي
كل إنسان وقرينه من ملك أو شيطان فهو زوجه المصور بصورته

عمله ومنه قوله تعالى وإذا النفوس زوجت وقوله ثلثة أي ثلاثة أقسام
ثم فصل الثلثة وأخبر عنهم بقوله فأصحاب الميمنة وهم من أوتي كتابه
بيمينه ثم ذكر ضدهم ثم قال والسابقون ثم سأل مستعظما لحال المؤمنين
والكافرين كما تقول ما معناه سلني ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة
نسبهم إلى الشؤم كما نسب أصحاب اليمين إلى اليمن ما أصحاب المشأمة والسابقون
وتقديره ما السابقون ثم أخبر وبدأ بالأخص فقال السابقون أولئك هم
المقربون أشار إلى التقريب من جهة الله بعد قربهم بالأعمال ثم لما كان
ما هو من جهة الله لا يوصف بما هو من جهة الأعمال فقال في جنات وصف
النعيم وهو من التنعم وقوله ثلة أي قطعة من الأولين وقليل من
الآخرين وهاؤلاء هم السابقون الموصوفون في سورة المؤمنين وعرفنا
أن الآخرين منهم أقل من الأولين الذين يدخلون جميعا من السابقين إلى
الجنة يوم الدخول فهم الأفضل ومنهم الأنبياء والمرسلون وقد كانوا في
أول الزمان أكثر مما كانوا في أوله آخره وأما أصحاب اليمين فهم قطعة
من الأولين وقطعة من الآخرين وهم دون السابقين في الرتبة فالسابقون
إلى الجنتين العاليتين وأصحاب اليمين في اللتين من دونهما كما جاء في سورة
الرحمن ثم وصف السابقين فقال على سرر موضونة منسوجة وهو
ما يكون سطحه مضفورا كما يعمل من الخيزران مما يأتي من مكة واليمن لـ
ينام الإنسان على الأزمنة ولو كان عريانا على غير فرش ووضين الناقة
هو بطان من سيور منسوجة مشبكة متكئين عليها متقابلين ليس

المراد الانا على العضد بل التمدد بجملة البدن وذلك اهنى وكل واحد مقابل الحور يته
ولم يقل متقابلين بل بنا الاختيار اى هو تقابل مختار لهم ثم وصف من حالهم انهم
يطوف عليهم ولدان ولا يلزم ان يكون في حال الاتكاء والطوف التنقل بالدور
والولدان الصبيان ولهذا يقال الامرد لم يطلع في خده شعر والصبي قد يكون في
خده شعر ويسمى صبيا وقوله مخلدون اى مخلدون على حالهم لا يبرحون
ولدانا فلا تطلع لحاهم ابدا ولا يتغيرون عن هيئاتهم فانهم ها فقد اختلفوا في معناها
باكواب واحدها كوب وهو ما لا عروة له ولا خرطوم والابريق له عروة
وخرطوم واباريق وكاس من معين لا تنس ان هنا المعين ماء ومعين خمر
فان الانهار لم يكن عن معين فهو ينقص ويذهب على الطول فهذا معين خمر
لا يصدعون اى لا ياخذهم صداع الراس عنها عن شرب الكاس ولا ينزفون
نزفت البركة اذا نزحت ما فيها واخليتها لما ذكر الصداع العارض عن الخمر في
الدماغ ذكر تغير العقل بعده والسكران منزوف العقل ومعنى النزف مما
تقدم لانه ينزف شي بعد شي اى لا تقل عقولهم من الشراب كما يعرض في
الدنيا عن الخمر واصل النزف القلة وعطف على قوله باكواب وفاكهة مما
يتخيرون ولم يقل يختارون لان الانسان قد يختار شيا بضره وليس
التخير كذلك والاختيار اخص من الارادة ومعناه ارادة خير الشيئين فسمي لذلك
اختيارا ولحم طير مما يشتهون وحور تقديره ويطوف عليهم ولدان وحور
ووصف الفريقين بقوله عين كامثال اللؤلؤ المكنون ولهذا رفع الحور
فافهمها جزاء بما كانوا يعملون لا يسمعون فيها لغوا ولا تاثيما الاثم ما حاك

في الصدر وكرهت ان يطلع عليه الا قيلا سلاما سلاما اى لا يسمعون في الجنة
لا من بعضهم ولا من الملائكة او غيرهم ما لا فايدة فيه وهو اللغو ولا ما يوثم
ككلام السكارى اذ هو جامع بين الوصفين لكن يسمعون قيلا هو سلام اى سلامة
سلاما اى يسلما عليهم فالاول صفة القيل الذي يسلم من اللغو والاذى فهو من السلم والثاني
من التحية والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ويحتمل ان الجميع من التسليم
ووصفه بانه دايم متكرر عليهم واصحاب اليمين تقديره سل ما اصحاب اليمين
اى ما خبرهم وكيف حالهم ومكانهم ثم اجاب السوال فقال في سدر مخضود
وهو ما ازيل شوكه عنه لئلا يعلق في ثوب المستظل به والخضاد شجر رخو بغير
شوك وطلح منضود شجر الطلح معروف وهو طوال مقوم واما ما روي عن علي
عليه السلام انه قراها وطلع فقال هي كقوله لها طلع نضيد فقيل له وهو يقول كالمتعجب
وما شان الطلح الا تغيره فقال القران لا يهاج اليوم ولا يحول فان صح ذلك عنه
فالاعتماد على قوله لا يحول واعلم انه تعالى لما ذكر السدر المخضود علمنا ان المراد
بالسدر ظله لا حمله فذكر معه ما يماثله في فضيلته وهو الطلح الذي لا ثمر له يوكل
واذا كان منضودا في داير البستان كان حاجزا للشمس من جميع الجهات فيتضاعف
الظل بما هو من الشجر طويل وهو الطلح وبما هو منها اقصر منه وهو السدر ولهذا
قال وندخلهم ظلا ظليلا وقال هاهنا بعد الكلام وظل ممدود وفيه تورية من حيث
الاستعارة تقول مد الله ظلك ولا ازاله عنا قال الشاعر لئن شمس الضحى كان
شمس الدين قاضي القضاة حاشا وكلا بل كما علت محلا انت ظلا وهذا منهما علامة مد
ظلاله وماء مسكوب فالمراد بما قدمه ليس الا الظل والماء ولما كان الطلح من جملة الفاكهة

جمع الجميع بقوله **وفاكهة كثيرة لا مقطوعة** من شجرها فتستحيل وتنفد **ولا**
ممنوعة بوجه من وجوه المنع عن طالبها ولما قال في موضع اخر ودانية
عليهم ظلالها وصفها هاهنا بظلين احدهما فوق الاخر فهم في ظل دان وظل
عال واما قوله هاهنا وماء مسكوب اي اذا انه مسكوب مع الشراب في
الكاسات والاكواب فلا يحتاجون الى من يسكب لهم عند شربهم بل
يجدونه مسكوبا بتقدير انهم في فرش مرفوعة فيجب ان يكونوا وهم غير
بعيد ويحتمل ان معناه وماء مسكوب اي من مكان عال وعليه للوزان
والاول اولى لقوله بعده **وفرش مرفوعة** هذه الفرش هي المرفوعة على
الرفارف لاصحاب اليمين المذكورين في سورة الرحمن في الجنتين الثانيتين
ولما ذكر انهم في الخيام عرفنا ان فرشهم على رفارف مرفوعة ومن فائدة
رفع فرشها ولا ان لا يلحقهم من رشاش الماء الذي من العينين النضاختين
فيتفرجون من علو بغير اذى ولما ذكر الفرش هاهنا ذكر من فيها وهو ما قدم
ذكره بعد الطواف بالكاس عند السابقين بقوله وحور عين فذكرهن هنالك
وحذف ذكرهن هاهنا لاستغنائه بذكر صفاتهن اذ لا تكون الصفة
موصوف خصوصا وقد ذكر الفرش فقال **انا انشاناهن انشا** جديدا
فجعلناهن ابكارا وقد كن ثيبات وعجايز وغير عرب لالسنة بل
عجما لا يستلذ العربي بخطابهن فجعلناهن ايضا **عربا** عربيات **اترابا**
عاشقات واحد وقد فهمت انه لا ينبغي ان تفهم من المثل ما لا يحسن ان يعرف
من الممثول مثله كما ان قوله تعالى كامثال اللولو لا يحسن ان تفهم من ذلك

الصغر بل الصفا وكذلك التمثيل بالمرجان حسن التشبيه اي الحمرة المخالطة
للبياض في سطح الجسم والخدين وكذلك العرب خز اخشن ما فيهن وهو فصاحة
اللسان فان المليحة الخرسا او ذات اللثغة والعجمة ناقصة الحسن بلا
شك خصوصا والمخاطبون اعراب على ان ابا الطيب يقول
حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب **لاصحاب**
اليمين اي ذلك لهاولاء ثم قال ما تقدم هم **ثلة من الاولين وثلة من**
الاخرين قال الحسن سابقوا من مضى اكثر من سابقينا وهذا صحيح لان
الانبيا وكثير من الصالحين المتقدمين في الامم لم يات في هذه الامة العربية
الاخيرة مثلهم الا القليل والى هذا القليل بقوله عليه السلام علما امتي كانبياء أشار
بني اسراييل واما من هو من اصحاب اليمين ففي هذه الامة العربية مع قلة مدتها
كثير كما قال عليه السلام اني لارجوا ان تكون امتي شطر اهل الجنة وذلك قوله
تعالى ثلة من الاولين وثلة من الاخرين فغير السابقين يكون من امة محمد صلى
الله عليه وسلم مثل ما يكون في الجنة من ساير العالم من ادم الى محمد عليهما السلام
واصحاب الشمال ما اصحاب الشمال انما سماهم اصحاب اليمين وهاولاء بالشمال
اشارة الى الشيء وصفته ولان هاولاء ياخذون كتابهم باليمين وهاولاء بالشمال
لان وجوههم على ادبارهم فتعود يمينهم شمالا لهم كما بيناه في موضعه
ووصف مكانهم بقوله **في سموم وحميم وظل من يحموم** السموم
الريح الحارة التي تدخل في مسام البدن وهي على وزن فعول بمعنى فاعل مثل
ضروب كانه يسم بالسم فهو سموم واليحموم الشديد السواد

لاحتراق النار له وظله دخان وهو يفعول من الحمم وهو الشحم المسود باحتراق
من النار لا بارد لكونه سماه ظلا نفى عنه البرد لأن ذلك صفة الظل
ولا كريم لأن منظره ومخبره قبيحان فلا يكرم الله به احدا فهو غير كريم
لأن الإكرام يكون بالشيء الكريم اعني المكرم المصان انهم كانوا قبل ذلك مترفين
وكانوا يصرون على الحنث العظيم والإصرار الإقامة على الذنب وترك
التوبة وهو ماخوذ من الصرة والحنث نقض العهد المؤكد بالحلف فهاولاء
يقيمون على نقض العهود التي يلزمهم الوفا بها وعلى ما هم بقوله واعتقاده حانثون
ومنه قوله تعالى عنهم واقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت
ولهذا قال هاهنا بعده وكانوا يقولون ائذا متنا وكنا ترابا وعظاما ائنا
لمبعوثون او اباؤنا الاولون قل ان الاولين والاخرين لمجموعون
الى ميقات يوم معلوم والواو في قوله او اباؤنا مفتوحة لانها واو عطف
دخل عليها الف استفهام فافهمها وقد بينا الفرق بين صيغات يوم ويوم
الوقت واما قوله معلوم اي معلوم عندنا ان نبعثهم فيه فهو من باب
لا يجليها لوقتها الا هو فحين اخر ذكر اليوم اراد اول ايام الاخرة وحين
قدمه اراد اخر ايام الدنيا واضاف الوقت تارة الى ما قبل وتارة الى ما بعد
ثم انكم ايها الضالون المكذبون لاكلون من شجر من زقوم فمالئون
منها البطون من الشجر ياكلون الزقوم منها فيملؤن منه البطون فشاربون
عليه على الزقوم من الحميم فشاربون شرب الهيم الابل العطاش وقيل هي
التي لا تروى لداء يصيبها وهو الهيام هذا نزلهم تقدم في الكهف يوم الدين ثم قال

نحن خلقناكم فلولا فهلا تصدقون ان من خلق اولا يقدر ان يخلق ثانيا فيكون
الخلق الاول دليلا على القدرة على الثاني ثم ضرب لهم مثلا للبعث فقال افرايتم
ما تمنون اي ما يخرج منكم من المني عند الجماع ءانتم تخلقونه جسما
مركبا وتنشئونه خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلث ام نحن الخالقون فهذه
حجة يعترف بها كل ذي عقل فيعلم الاب كما انه لم يخلق ابنه فكذلك ابوه لم يخلقه
وهذا هو معنى قوله تعالى واذ اخذ ربك من بني ادم من ظهورهم ذرياتهم
الاية الى قوله بلى فما احد الا يقول بلى اذ عقل ولهذا بعده ان يقولوا يوم القيامة
انا كنا عن هذا غافلين اذ ما احد يعقل يغفل عن هذا ثم قال تعالى نحن قدرنا بينكم
الموت بسبب من اسبابه لانه لما كان بعضهم يموت حتف انفه وبعضهم
يموت بالقتل او الوقع او الغرق والجميع موت عرفنا سبحانه انه هو قدر اسباب
الموت المختلفة وقسمها بينهم فاستغنى بذكر المسبب لانه واحد عن ذكر السبب
لانه كثير والمراد بقوله بينكم لتسقطوا الموت من يموت بينكم من صغير وكبير
وانتم احيا بعده فتتحققون ان لكم ربا مقتدرا وهذا كقوله ولقد صرفناه
بينهم ليذكروا فالمراد هاهنا رؤية الاحياء لموت من يموت بينهم لا علم
الاحيا بانهم يموتون فلهذا لم يقل عليكم والله اعلم وما نحن بمسبوقين
على ان نبدل امثالكم لما قال امثالكم لزم انه سبحانه قادر على تبديلهم مرات
كثيرة لا تحصى واذا لم يكن مسبوقا على الابدال فكيف يكون مسبوقا على الابداء
والابدال اسهل ومع هذا فعجز ما سواه عن الابدال ظاهر فلزم ان يكون عن
الابداء اعجز وقوله وننشئكم فيما لا تعلمون لا يدل هذا على مذهب التناسخ

اعني ليس مراد الآية ان الله قادر على ان يخلق العبد الواحد في جنس قرن او نظير فان
هذا جميعه نعلمه بل المراد انه تعالى قادر على اعدام الانسان وانشائه نشأة
ثانية فيما لا سبيل للانسان الى علمه الآن وهو عالم البقاء لان الاشارة الى نشأة
البدن الانساني في العالم الآخر الباقي الذي لا نعلمه الآن وليس له تكييف في الاذهان
ثم مراد الآية الاعلام بانه سبحانه قادر على تبديل امثالنا مهما شاء من خلق
يظهرهم الى هذا العالم عوضا عنا في الدنيا وانه ينشئنا جميعا في الاخرى ولهذا
بعده ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون ان الذي بدأ بالخلق قادر
على تبديله مهما شاء وعلى اعادته في عالم لا يعلمه الا مبدئه كما ان هذا العالم
لم يكن معلوما الا لله سبحانه ثم ضرب لهم مثلا يؤكد التعريف بما قد بينه
لهم من قدرته على الابتداء والتبديل والاعادة فقال افرأيتم ما تحرثون
أأنتم تزرعونه ام نحن الزارعون الزرع ما ظهر على وجه الارض
نباتا ناجما ثم يصل الى الحد الذي قد يكون نخلا وغير ذلك ولهذا نفى القدرة
عن المخلوقين على مثل ذلك بقوله ما كان لكم ان تنبتوا شجرها واثبت ذلك
لنفسه بقوله فانبتنا فيها حبا ومثله فالق الحب والنوى وكل هذه ادلة
ظاهرة للعقل محسوسة بالعيان لا يمكن ان يجحدها الانسان بل يتحقق
في الاذهان ان لها صانعا قادرا على تكوين ما شاء من الاكوان وعجز من سواه
عن تكوين جزء من اجزاء النبات او رد عضو عديم من اعضاء الحيوان
ومن لم يقدر على اعادة الجزء كيف يقدر على ابتداء الكل فلما انفرد بالقدرة
سبحانه على ما شاء قال لو نشاء لجعلناه اي الزرع حطاما تقدم

فظلتم بمعنى فظللتم يقال ظل يفعل كيت وكيت اذا حاول ذلك الامر وباشره
تفكهون التفكه اصله تناول ضروب الفاكهة للترويح والتلذذ ولما كان الانسان
قد يتحزن بما يريحه ويشغله عن همه جعل التفكه بالحديث استعارة وفي ذلك
قولهم انا لمغرمون من الغرامة وهي الخسارة اي المخسرون في حرثنا
بل نحن محرومون الرزق بذنوبنا ثم ضرب مثلا آخر للبعث فقال
افرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم انزلتموه من المزن السحاب ام نحن
المنزلون ولم يقل اصعدتموه من البحر لانه لما صعد كان ملحا ولما نزل
من المزن كان عذبا وهذا بعث آخر يشبه النطفة وما قبله يشبه
الجنين وما بعدهما يشبه العقل وتجربته الروح النفساني والمراد
بالجميع امثال للبعث دالة على الانتقال الى ما هو اعجب وافضل لو نشاء
جعلناه على حاله التي كان عليها اجاجا ملحا ولهذا لم يقل لجعلناه فلولا
تشكرون افرأيتم النار التي تورون تشعلون وهي من اورى يوري
واصله من القدح اي تقدحون أأنتم انشأتم شجرتها ام نحن المنشئون
شجرة النار ها هنا هي كل ما يشتعل من الشجر وقد بينا ذلك في سورة يس
نحن جعلناها تذكرة لنار جهنم ليتعظ بها الراؤون ومتاعا للمقوين
الضعفاء يتمتعون بها والمقوون هم الذين خلوا من الزاد ويقال اقوت
الديار اذا خلت وعقيب كل مثل يذكر الاليق من الكلام فقال ها هنا
فسبح باسم ربك العظيم الذي جعل هذه النار تذكرة جحيما وعدا ونعيما
نقدا ولما كانت النار من العجيب المألوف اذ توجب استنارة مقدار كثير

من الهواء في الفضاء دفعة واحدة بشعلة بيّنة بل تقدحه وتذيب الجامد .
وتجمد الذائب المائع وتذهب كأن لم تكن مع عظم امرها في نفعها وضرها
وجب على الانسان ان يسبح باسم باريها ولما ذكر النار قال بعدها في الذكر
كالمتواعد بها لمن كذب فلا اقسم قراها عيسى ابن عمر لام تاكيد
وهي اولى ان تقرا بالالف فتكون في موضع نفي وقد بينا ذلك في موضعه .
وقوله بمواقع النجوم تقول هذا الكلام له موقع في النفس اي له اثر
فالمواقع الاثار التي تؤثرها النجوم باذن الله تعالى في هذا العالم كما تؤثر
الشمس الحرارة وانه لقسم لو تعلمون عظيم قوله لو تعلمون زيادة
في تعظيمه وتعظيم للعلم به حسب الامكان انه لقرآن كريم مكرم
في كتاب مكنون عن رؤية الابصار وادراك البصائر وهو علمه الازلي
الذي لم يزل لا يمسه المس من قبيل الاصابة وهو غير اللمس ولهذا
قال تعالى من قبل ان تمسوهن ويقال للمجنون به مس لانه قد اصيب
باطنه وقوله الا المطهرون يريد الملائكة ولهذا لم يقل المتطهرون
او الطاهرون ويحمل على ذلك المطهرون من المعاصي والفسوق بعد
الملائكة قال ابو العباس ابن عطاء لا يفهم حقائق القرآن الا من طهر سره
عند الانوار من الاقذار وقال مالك احسن ما سمعت فيها انها بمنزلة
قوله تعالى في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بايدي سفرة كرام بررة
وهذا جيد فافهمه لان الكفار قالوا تنزلت به الشياطين ولهذا بعده
تنزيل من رب العالمين فليس الاشارة ها هنا الى اللمس وان كان اجلال

المصحف واجبا فمن اضطر الى حمله ولمسه على غير وضوء فمدلول الاية
لا يناقض ذلك ولا يلزم بضده واذا لم يلزم الشيء ولا ضده من الكتاب فالرتبة
به السنة فهو لازم سنة افبهذا الحديث انتم مدهنون انفسكم
اي تغشونها وكان الواجب ان تنصحوها وليس ذلك من داهنت التي معناها
داريت من المداراة واصلها من الدهن الملين للجلد واما ادهنت فمعناها
غششت ومعنى الكلام افبتكذيب هذا الحديث تغشون انفسكم
ولهذا بعده وتجعلون رزقكم انكم تكذبون لما كان الرزق هو الشيء
الذي لا تتم الحياة الا به وهو الحظ المخصوص بالانسان فمن شدة تكذيبها ولا
قال وتجعلون رزقكم بمعنى حظكم ونصيب انفسكم تكذيب كلام الله تعالى
كما تقول هذا راس ماله الكذب على صورة الاغنيا بالمثل والاستعارة فلولا
فهلا اذا بلغت النفس عند خروجها بالموت الى الحلقوم وانتم حينئذ
تنظرون بمعنى تنظرونه وحذف للوزان ونحن اقرب اليه الى الذي
بلغت نفسه الى حلقومه منكم ولكن لا تبصرون ذلك فلولا ان كنتم
غير مدينين منقادين الى الحكم دان فلان لفلان اذا اطاعه فالمدين هو
المملول المحكوم عليه ولا يحكم الله الا بالحق فالدين هو الجزاء كقوله أئنا لمدينون
اي لمجازون ويوم الدين يوم الجزاء ولا ينقض ما قلناه لانه حكم بالجزاء
عن عدل ونظم الكلام فهلا ترجعونها اذا بلغت الحلقوم وهي لولا الاولى
وكرر لولا لما اعترض بين ذلك فنسق عليها ترجعونها ترجعون النفس من
الحلقوم بعد ان بلغت اليه فتردونها الى البدن وفي ذلك ابلغ احتجاج واعظم

تبكيت إن كنتم صادقين في دعواكم أنكم غير مدينين فأما إن كان من
المقربين قربته أعماله كقوله لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه
الحديث فلما تقرب هذا العبد بما يعلمه مما أمره ربه قربه ربه بما لا يعلمه
إلا هو سبحانه فعاد من المقربين وهم السابقون فاعرف الطريق واسلك
إن شئت فروح من الراحة ويقال أراح يريح إذا دخل موضع الراحة
كقوله تعالى حين تريحون وقد تقدم في النحل وريحان ذو الرائحة الطيبة
وجنة نعيم جنة تنعم وهي العليا وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام
لك أيها الرجل الذي هو من أصحاب اليمين ولهذا لم يقل فسلام له بل كما تقول
حييت من رجل وأما إن كان من المكذبين الضالين هذه الأقسام الثلاثة
بيان قوله وكنتم أزواجا ثلاثة كل امرئ وقرينه زوج له فنزل وهو
ما أعد له من طعام وشراب من حميم وتصلية جحيم إحراق نار من
جهنم إن هذا الوعد والوعيد من القرآن الذي يكذبون به لهو حق اليقين
أضاف الحق إلى اليقين إعلاما أن هذا هو الحق في نفسه وأنه مع ذلك هو
الحق الذي يصح في يقين المرء ذي التحقيق والإيقان كما تقول حق الحق ويقين اليقين
مبالغة وإذا كان حقا في يقين العباد كان حجة عليهم بخلاف ما إذا كان حقا
في نفسه دون أن يتيقنوا ذلك فسبح باسم ربك العظيم تقديره
بذكر اسم ربك ويريد الأسما وذلك بمعنى الجنس فذكر أسما الله تسبيح بأسمايه
وذكر حمده تسبيح بحمده واتصل آخر هذه السورة بأول سورة الحديد لأن
في ابتدايها التسبيح والأسما وعن ابن عباس أن اسم الله الأعظم في ست آيات من سورة الحديد

ا ب ٢٦ **سورة الحديد** بسم الله الرحمن الرحيم سبح
لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم تسبيح ساير الحيوانات والجمادات
بما فيهما من الأدلة على وحدانية الصانع سبحانه ونفي صفات خلقه عنه وظهور
قدرته فيهم وظهور ضروب أسمايه بطرايقهم ولما كان ظهور القدرة الإلهية
بهم في المصنوعات ظهورا متنوعا كرر لفظ التسبيح حتى كان كل حالة من
الحالات باعتبار من الاعتبارات لسان يسبح بصورة من التسبيح فإن
الثمرة مثلا ذات الطعم والرائحة والنفع تسبح لونها بصورة ورائحتها
بصورة وطعمها بصورة وما خصت به من المنافع وغير ذلك من تنوعات
مبدعات الصانع كل صورة من الصور لسان قال لحن يعي ضربا من ضروب
التسبيح لبارئه سبحانه وهذا اللسان أفصح من هذه الألسن الناطقة
بالحروف ولكن تسمع بالقلوب ولهذا قال تعالى ولكن لا تفقهون تسبيحهم
فذكر لفظ الفقه الذي يكون بالقلب لا السماع الذي يكون بالأذن فافقه قوله
لا تفقهون الذي نبه به على تسبيح إنما يدرك بطريق التفقه الذي يلزم عنه
التفكر والاعتبار وفي كل موضع ذكر التسبيح فيه أشار إلى صورة تختص
بذلك المكان ونبه عليها بما يأتي بعد ذكر التسبيح من الكلام ويختلف ذلك بحسب
اختلاف إدراكات الأفهام كذكر الليل والنهار والإحيا والإماتة فإنه يشير
إلى الشيء وضده كالأسود والأبيض بالليل والنهار وكالساكن والمتحرك وبالإحيا
والإماتة فلا تقف مع اللفظ المخصوص فتفهم معناه فقط بل انظر في كتاب
الوجود واقرأ الأمثال المضروبة لك فيه بالفعل واستدل عليها بهذه الأمثال

المضروبة لك في هذا الكتاب بالقول لئلا تنفد كلمات الله في فهمك فإنك إذا نظرت
إلى هذه فقط فرغت الكلمات وإن نظرت إلى أمثالها وجدت ما لو كان البحر مدادا
لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد ثم أتبع الوصف الذي هو العزة والحكمة
بقوله له ملك السموات والأرض فلولا العزة لم يكن ولولا الحكمة لم يثبت
ومن الحكمة أيضا زوال السموات والأرض فدلت على ذلك بقوله بعده
يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير وشيء من أعم العموم ويدخل فيه
ما لا يعلم وأما المستحيلات فامتناع كيانها راجع إلى الحكمة ولا يدل ذلك
على عدم القدرة فلا يقال هل يقدر على إبداع عالم أحسن من هذا العالم بل
يقال هو على كل شيء قدير وكل شيء عنده بمقدار وقوله له ملك السموات
والأرض ثم أتبعه بإطلاق القدرة يعطي أنه سبحانه يملك من شاء ما شاء من
ملكه وملكه وهو معنى قوله تعالى قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء
الله أي ما شاء أن أملكه فالذي يؤتي ملكه من يشاء أي الإنسان قدرة على ما
كلفه ولو لم يؤته لما كلفه لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها وقوله يحيي أي
يوجد الحياة لمن شاء بعد أن لم تكن ولم يكن المتصف بها وقوله ويميت
أي بعد الحياة وهو مثل لإيجاد المعدوم وإعدام الموجود وقوله
هو الأول والآخر يعطي انفصاله عن مبدعاته لأنه قبلها فلها أول ولا
أول له بل هو الأول فهو الأزلي والأبدي معا وليس كذلك شيء من
مبدعاته وإن كان الإنسان أبديا فليس بأزلي إذ له أول وإن لم
يكن له في عالم البقاء آخر والظاهر والباطن يعطي الإحاطة الكلية

لأن إحاطة الجسم المحيط بالمحاط إنما هي إحاطة جهتية وأما الظاهر الباطن فهو
محيط من كل جهة وبكل وجهة لأن كل اعتبار لا بد له من الرجوع إلى ظاهر أو باطن
وحيث كان فالله محيط به وفي هذا الكلام ما تعجز عن حمله الصدور فضلا
عن السطور ومما يمكن أن يقال فيه من باب التعريف والتمثيل مما يقوم
عليه الدليل أنه تعالى لما أظهر المظهرات الحسية والعقلية أظهرته
المظهرات للعقل فوجب وجوده لا مكيفا بل مكيفا فهو في العقل أظهر
مما أظهر كما قيل وأظهر مما تبصر العين ظاهرا لدى العقل من للعين
والعقل يظهره فهو الظاهر في الباطن والظاهر بكل اعتبار باطن وظاهر
فهذا مستفاد من قوله تعالى والظاهر ولما كان المفطور غير الفاطر كان كل
مفطور محجابا على نفسه متحجبا في ظل كونه وكان الفاطر بمعزل عنه في
غنى مطلق كما أن المفطور بمعزل عن الفاطر في فقر محقق فجل سبحانه عن
المثال فعاد باطنا بكل اعتبار وعلى كل حال فهذا مستفاد من قوله تعالى
والباطن فهو الأول الظاهر قبل كل مشهود والآخر الباطن بعد كل ملحوظ فالأول
الظاهر لا يجحد والآخر الباطن لا يشهد كما قيل ظهرت في كل ما أظهرته
فغدا يراك بالعين طرفي أنت ناظره وغبت عن كل ما أحدثت محتجبا فلا
يحط قلب أنت خاطره فصل ولما كان أظهر ما أظهر كان أقرب
إلينا مما ظهر لنا ما عنه كالسمع والبصر والنطق فهو الظاهر الذي ولما كان
أقرب إلينا ما عدم من المسافة التي بها يظهر الفرقان بين راء ومرئي فعاد قربه
ما عين بعده عنا فتعالى عن إدراكنا فهو الباطن العالي بلا شك كما هو الظاهر الداني

بلا شك وفي معنى ذلك ٥ هو ظاهر بظهور ما هو ظاهر عنده لنا من ظهور آياته
ولفرط قربه لم يبق فيه مسافة يبرز قابها دانيا ومرائي لنا ٥ هو باطن عنا كما هو
ظاهر منا لنا فلقد علا ولقد دنا ٥ فكانما انا لا اشاهد غيره وكانما انا لا ارى الا اياه
وبعد مجاز هذه السورة تجد في هذا الباب من الكلام ما تقر به الافهام من
التعريف الجلي مع التنزيه العلي وقوله **وهو بكل شيء عليم** يلزم عنه
العلم بالجزئيات والكليات بكل اعتبار وعلى كل صورة ظاهرة لنا او باطنة
عنا ولما كان العلم مستقرا على الخلق قال بعد العلم بكل شيء **هو الذي خلق السموات**
والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش ولما قدم قوله وهو بكل شيء عليم
قبل قوله هو الذي خلق السموات والارض دل لفظ العلم اولا مع اطلاقه
على تخصيص بما يشاهد مما بين السماء والارض فذكر بعده ضربا من العلم اعلا
من ذلك فقال **يعلم ما يلج في الارض** اي من كل شيء كالحبة التي في ظلمات الارض
وغير ذلك من كل ما يلج فيها فيختفي محتجبا بها **وما يخرج منها** كخواص كل نبت
وصورة كل خارج منها **وما ينزل من السماء** كالمطر والملائكة والامر وغير
ذلك **وما يعرج فيها** كالملائكة والاعمال الصالحة والدعوات المستجابة وهذا
اخبار عن علم في الازل لم يزل ثم ذكر ما دل على العلم المطلق بساير امور العباد في المعاش
والمعاد فقال **وهو معكم اينما كنتم** ولا تفهم من هذه الابنية المكان الظاهر
فقط بل انظر الى تقلباتك في خطراتك وافكارك في اذكارك فاحذر ان يراك في
عند ما نهاك او ان لا يراك عند ما دعاك فالكونية اليك والانية لك والمعية
له على كل حال بلا كيف يدخل في المقال **والله بما تعملون** من كل عمل بكل جارحة

روحانية وجسمانية **بصير** ثم اخذ يبرهن على هذه الدعوى فقال **له ملك**
السموات والارض فكيف لا يعلم ما هو له لا من جهة غيره بل هو الخالق الا يعلم
من خلق فالوجه في اعادة هذه الكلمات اعني قوله له ملك السموات ان الاول
اخبار والثاني برهان واعلام بدوام الملك له الى يوم القيامة **والى الله ترجع**
الامور فيحكم فيها بالحكومة ثم قرب البرهان الى ساير الاذهان ليعلم ما يكون مما كان فقال
يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور
ذات الشيء حقيقته واشتقاقها من قولك ذا تعني الحاضر واضيفت اليها
تا التانيث ومعناها هاهنا صاحبة الصدور وهي النفس فهو سبحانه عليم
بها علما مطلقا محيطا محققا الا يعلم من خلق ومن ذلك يعلم ما توسوس به نفسه
فذلك اخبار عن علم مخصص وهذا هاهنا عن علم عام مطلق ونسب الذات الى الصدور
لما يكون في الصدور من الارادات والضماير والحظوظ والخواطر وتقلبات العزايم
الى بواطن السراير وما يصدر من الصدور او يستقر في الاذهان من اعتقادات
الكفر والايمان ولهذا بعده **امنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين**
فيه نبه على انه سينتقل عنكم ويستخلف فيه غيركم بعدكم كما استخلفتم فيه بعد
الذين من قبلكم وندبا الى الحالة اللطيفة معناها ان يكون المنفق بمنزلة من ينفق من مال
غيره بعد ان اذن له فهو يحترز من الاسراف ولا يخطر بباله الاقتار **فالذين امنوا**
منكم بالجزاء **وانفقوا** اتباعا للامر **لهم اجر كبير** ثم قال منكرا بصورة لفظ المسايل
وما لكم لا تومنون بالله والرسول يدعوكم لتومنوا بربكم وقد اخذ
ميثاقكم ان تومنوا بالرسل فيما انزله من الكتب **ان كنتم مومنين** بما تقدم منها

فهذا الخطاب عام لمن تقدم قبل نزول القرآن وخاص بالمؤمنين من أهل ذلك الزمان
لأن الميثاق كان إسلامهم ومبايعة الرسول على اتباع ما يأمرهم به من الجهاد وغيره
وكلهم كانوا يزعمون ذلك فليس لأحد منهم أن يتخلف عن الجهاد والإنفاق ولهذا
قال والرسول يدعوكم فهو خطاب خاص بالمدعوين المخاطبين وعام لكل مدعو
بلسان محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة ولما كان الإنفاق علامة الإيمان
والدعوة إلى الإيمان بالله متقدمة على الإنفاق في سبيله سبحانه قال ما معناه معلوم
بدلالة المفهوم عن هذا الخطاب وتقديره إذا كان الله سبحانه قد أنفق عليكم من
الباقي فهلا تنفقون من الفاني فهذا معنى الرابطة بين ما تقدم وبين قوله هو الذي
ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم هو سبحانه باتباعكم لها من الظلمات إلى
النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم وما لكم ألا بمعنى أنكم لا وهي كالأولى سؤال
منكر غير أن الأولى عن الإيمان وهذه عن الإنفاق والكلام ها هنا مبني على ما
أجمله أولا بقوله آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا ثم قال وما لكم لا تؤمنون
وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله وإنما قاله هذه وهو قوله ولله ميراث السموات
والأرض ثم قال لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل بالذي أنفق بعده
وقاتل وحرفه لقوله بعده أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد
وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير من ذا الذي يقرض الله قرضا
حسنا ولم يقل مالا لتكون الإشارة إلى كل ما يمكن أن يقرض من أنواع البر وضروب
الإحسان والعفو والعلم والكلمة الطيبة وغير ذلك من كل شيء حسن ولهذا
قال قرضا حسنا فيضاعفه له وهذا يدلك على أضعاف متصلة إلى حيث يشاء

الله تعالى وكذلك هو نعيم الآخرة وإحسان الحق سبحانه وله أجر كريم بعد
ذلك المضاعف بمعنى أنه مكرم له يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم
بين أيديهم ابصا نور ينورون به على من شا يقال لهم بشراكم اليوم جنات
وبأيمانهم
أي بجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم الفوز
من جنس الزلفى والظفر والربح في المعنى وقد بيناه في موضع آخر يوم يقول
المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا أي أمهلونا لأن المنافقين لا يمكنهم
السلوك مع المؤمنين في ذلك اليوم والمؤمنون قد أسرع بهم إلى الجنات في نور
معاملاتهم وبقي المنافقون في ظلمات أعمالهم فيقولون للمؤمنين ترفقوا
وتمهلوا لنأخذ لنا قبسا ولم يقل منكم بل نقتبس من نوركم واستعار القبس
القبس للنور كما يقتبس من النار شيء وقد بينا ذلك قيل هذا القول بلسان
حال وجودهم يسمعونه بمشهودهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ليس أنهم
رجعوا فلم يجدوا نورا بل المراد بالنور القرآن ولما كان قد فات اتباعه والعمل
به كأنهم قيل لهم ارجعوا إلى الدنيا فآمنوا واعملوا وذلك بصورة الاستهزاء
كالحوالة على الممتنع وقوعه فضرب بينهم بسور له باب أي يوضع سور
والضرب الإسراع في السير وضرب البعير في جهازه أي نفر ومنه ضرب
البيت أو الخيمة فلا تكون الباء هاهنا زائدة بل بمعنى فحجب بينهم بسور
وفضيلة الباب أن يكون يغلق من جهة أهل الجنة فلهم فتحه وأما أهل النار
فهم في جهة ظاهر الباب أعني البرانية منه والسور حجاب غليظ لا يمكن أن يلحق أهل
الجنة منه سوء كما لا يلحق أهل النار منه خير ولكن لأهل النار تسور على أهل الجنة

خصوصا وهم في الأغلال ولأهل الجنة على أهل النار اطلاع إذا شاؤوا لأن لهم فيها
ما يشاؤون وقد أخبر الله تعالى عنهم بقوله قال هل أنتم مطلعون فإذا فتح الباب
ورأى أهل النار أهل الجنة زادهم ذلك ترحا وإذا رأى أهل الجنة أهل النار
زادهم ذلك فرحا لأن السور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب
ويحتمل أن يقال من هذا الباب يدخل إلى الجنة من عذب في النار ثم استحق
أن يعفى عنه ويدخل الى الجنة لأن أبواب النار لا تفتح بعد أن تغلق أبدا وفي
غلق الباب بعد فتحه قطع رجاء وتجديد بلاء لأهل النار ينادونهم ألم
نكن معكم في الإسلام بدليل قوله فيما يأتي ألم يأن للذين آمنوا ولهذا بعده
هاهنا قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم أوقعتموها في الفتنة باتباع الحظوظ والشهوات
والمسامحة عند الشبهات وتربصتم بالمؤمنين كقوله ويتربص بكم الدوائر
وارتبتم في كلام الله وغرتكم الأماني أقوال المضلين حتى جاء أمر الله بفراق
الدنيا وغركم بالله الغرور وهو الشيطان وكل غرور شيطان ولو كان
من كان ومن ذلك خواطر الإنسان التي تعرض بما تلقيه من الأماني بالوسوسة
من أن الله تعالى عفو غفور أولم تعلم أنه عزيز ذو انتقام فاليوم لا يؤخذ منكم
فدية ولا من الذين كفروا لأن المخاطبين هاهنا منافقون مأواكم النار هي مولاكم
المولى هاهنا يريد به أولى موضع بكم كقول لبيد فغدت كلا الفرجين تحسب
أنها مولى المخافة خلفها وأمامها ٥ يريد أنه أولى موضع أن تكون فيه الحرب
وتسمى المولى مولى لما يوليه فالنار هي التي توليهم وتعطيهم مما عندها فهي
مولاهم ويحتمل أنه بمعنى تليكم وتباشركم من قولك داري تلي دار فلان

ويحتمل أن يقال إنه لما أدتهم عبادتهم لغير الله إلى النار كانوا عبيد النار
كما يقال فلان عبد بطنه ومن كان عبد النار كانت النار مولاه ويكون
الكلام صحيحا على ظاهره بهذا التأويل وبئس المصير مصير من يصير
إلى النار والواو في قوله وبئس كالواو في قوله عن المؤمنين وحسن أولئك
رفيقا ولما بين من أحوال الفريقين ما فيه لأولي العقول وجوب اتباع ما
جاء به الرسول قال بعده ألم يأن أي يحن بمعنى ألم يأت حين ذلك وقوله
للذين آمنوا يعم من أهل الكتابين ومن غيرهم من أظهر الإسلام وكان منافقا
ويخص الفساق من المؤمنين أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق
ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد في الدنيا
وهو المدة فلم يجدوا فيها الجزاء على الطاعات فقست قلوبهم ثم
قال وكثير منهم فاسقون أي لا لطول الأمد بل شأنهم هذا ولذلك
لم يقل فكثير ونبه على أن من طال عمره قسا قلبه ثم نبه على البعث
الذي به يكون الجزاء للفريقين فقال بما يفهمهم منه صورة الحال بضرب
المثال اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها أي فكذلك يحييكم ويجازيكم ولهذا
أتبعه بذكر الأعمال في الآية التالية لهذه وفي هذا أيضا تنبيه على أن القلوب
القاسية الميتة يحييها الله بالقرآن ثم قال قد بينا لكم الآيات العلامات
الدالات على أنا نحيي الموتى لعلكم تعقلون بما بيناه مما شاهدتموه تحقيق
البعث الذي وعدتموه فتصدقوا على غيركم بالمال وعلى أنفسكم بأحسن الأعمال
إن المصدقين والمصدقات أدغمت التاء في الصاد فشددت فهؤلاء

تصدقوا وأقرضوا الله وهذا غير الصدقة وإن جاز أن يقال القرض عن
الجميع أعني تكون الصدقة قرضا والقرض صدقة لأن الإنظار صدقة
على المقترض لكن هذا الذي قلناه أولى ما فهم من الآية ومنه قول النبي
صلى الله عليه وسلم الصدقة بعشر والقرض بثمانية عشر قرضا
حسنا ومن فقه قوله صلى الله عليه وسلم إن الصدقة تقع بيد الحق
قبل أن تقع بيد السائل علم أن المعطي ما أعطى إلا الله وكذلك المقرض وكذلك
كل معامل عامل غيره إنما عامل الله بيد غير الله من خلق الله وإذا نظر
الآخذ إلى أن المعطي لا يقدر أن يعطي إذا منع الله ولا يمنع إذا أعطى الله رأى
أنه لا يعطي إلا الله وإن كان بواسطة خلقه فهذا الاعتبار يظهر لك أن الله
هو الآخذ والمعطي ولكن بوجه ووجه فالله هو المعطي باعتبار الآخذ وهو
الآخذ باعتبار المعطي فالمؤمن لا يأخذ إلا لله ولا يعطي إلا لله فمعاملته
مع الله أخذا كان أو عطاء ومن كان لا يعامل إلا الله ولا يعامله إلا الله لم
يغب عنه الله وهذه الصورة من جملة الصور المشار إليها بقول الصوفية
إن المتصوف يرى الله في الأشياء من غير حلول بل كأنه يراه عين الأشياء
من غير اتحاد ومن مثل هذا أيضا يقال إن المتصوف رأى الأشياء كلها
ألسن الحق فهو مدعو بالكل وليس الداعي سوى واحد سبحانه وإن تغايرت
الألسن ولم تحصر فإن قيل كيف يصح أن تكون المعاصي والشهوات ألسنا دعا
الله بها عباده ليصح قولك إنه تعالى دعا بكل إليه كما دل بكل عليه فالجواب
أنه تعالى دعانا بالمعاصي إلى تركها فإذا تركناها فقد أجبناه فالمعاصي ألسن الرحمن

داعية منه لنا إليه من باب تركها وهي بعينها ألسن الشيطان داعية منه
لنا إليه من باب فعلها وقد مكن الله الإنسان من إجابة الداعي لفعل الطاعة
وترك المعصية وبالضد ليكون لجرمه بالشيء وضده ولا يكون ذلك إلا بالقدرة
على فعله وتركه طاعة كان أو معصية تعاد فعل الطاعة كترك المعصية
وفعل المعصية كترك الطاعة ليصح الابتلا الذي به صح التكليف الذي به صح
الجزا الذي به صح كمال الإحسان ممن بدا فبرا فثبت في العقول أن الله
خالق كل شيء داع بكل شيء ومما نظم في معنى ما قلناه ∴ بالكل دعا
لكل قلب واع ∴ فاقتضوا أقطع قواطع الأطماع ∴ الشهوة داع لكل من
باغيها ∴ إن أنت أجبت ما أجبت الداعي ∴ وأبين من هذا في النظم قول
القائل ∴ هو داع للكل بالكل في كل زمان لم يدعهم إلا هو ∴
لكن المرحين ما خالف الأمر رآه لما عصاه سواه ∴ غاب عنه الإله
في الحجين حجبته الأهوا فهي آله ∴ لو رآها تدعو إلى تركها بالأمر منه
لم يدع إلا الله ∴ وقوله يضاعف لهم هذه المضاعفة غير محدودة ولكنها
معلومة لكونها من جنس العدد المعلوم وأما قوله بعد ذلك ولهم أجر
كريم فهذا بعد ذلك وهو فوق ما تحصره العلوم أو تدركه الفهوم ثم عطف
على المصدقين والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهدا
جمع شاهد كقوله ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم عند
ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب
الجحيم ولما ذكر فريقي المومنين والكفار من أهل هذه الدار وحقق لهما الأخبار

بأن المصير إما إلى الجنة أو إلى النار محض النصيحة للفريقين تعرفهم أنه ليس
المراد بالحياة الأولى الفانية إلا الحياة الثانية الباقية فقال اعلموا أنما
الحياة الدنيا لعب كلعب الصبيان ولهو كلهو الشبان وزينة كزينة
النسوان وتفاخر بينكم كتفاخر الإخوان وتكاثر كتكاثر الشيطان في
الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار بالله نباته ولكن المراد هاهنا
الزراع لأن الدنيا أفتن للكفار فإنهم هم الذين غرتهم وأعجبتهم الحياة الدنيا فرضوا
واطمأنوا بها ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما أي ذلك النبات بعد
منفعتنا وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما
الحياة الدنيا إلا متاع الغرور وهو بضم الغين ما يغتر من لذة الدنيا وبفتحها
الشيطان ومن يقوم مقامه ولما كان ما في الآخرة من المغفرة والرضوان
منوطا بأعمال العباد ومقرونا بما بذلوه من الاجتهاد حرضهم على ذلك بقوله
سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض وذكر
العرض تمثيله بأعظم مرئي بالأعين ليلزم أن يكون الطول أكثر وأيضا لأن
الطول غير معلوم لنا بالبصر كما نعلم سعة عرضها وقد جهل كثير من الناس
الجنة وظنوا أن ذلك خطاب على قدر العقول القاصرة فقالوا لا نرضى بالجنة
فخالفوا الأمر لقوله تعالى سابقوا وتمام الآية والجنة في اللغة جنة
بمعنى أنها مجنة عن كل مكروه ويلزم عن ذلك نيل كل محبوب فافهم هذا
الذي لا أبلغ منه وقوله تعالى وفيها ما تشتهي الأنفس يعطي أفراح كل مقترح
من ظن بجهله أنه لا يرضى الجنة وقوله ولدينا مزيد يعطي ما لا يخطر بالبال

فضلا عن أن يحصره المقال فهل يسابق إلا إلى الجنة ولهذا قال أعدت للذين
آمنوا بالله ورسله وقوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو
الفضل العظيم لا نعلم من هذا الفضل خروجا عن العدل أو ميلا إلى
هوى لكونه قرنه بالمشيئة بل المشيئة على وفق العلم كما تبين فافهم
قوله تعالى قبل ذلك أعدت للذين آمنوا ولا تقل يجب على الله أن لا يؤتي فضله
من يشاء بغير عمل فالجواب أن العقل قضى لله تعالى بكل صفة تؤدي
إلى مدح ونزهه عن كل صفة تؤدي إلى قدح فالاختصاص والمنع في الأزل
مبني على العلم السابق بما سيكون من العمل فلو أعطى أو منع بغير استحقاق
لم يكن اسم الجود عليه فيما أعطاه أولى من اسم البخل عليه فيما منع إذا كان العطا
لا عن عمل خير والمنع لا عن عمل شر ولا جائز أن ينسب إلى الغني المطلق فعل
يدل على هوى لأن ذا الهوى فقير إلى هواه فالمشيئة المنسوبة إليه سبحانه
لا تكون إلا على وفق العلم ومقتضى الحكمة وذلك غير قادح في كمال القدرة بل لازم
عن إطلاق الغنى فافهم وجميع ما ورد في القرآن مما يعارض ما قلناه هو
من باب المتشابه فعد به إلى المحكم تفهمه وذلك ينقسم إلى قسمين فالقسم
الأول قوله تعالى يختص برحمته من يشاء وأمثاله بلفظ الاختصاص والرحمة
وهذا يكون للمسيئين كقوله يعذب من يشاء ويرحم من يشاء والقسم الثاني
قوله تعالى وإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء فهذا يكون للمحسنين فكل ما هو
بلفظ الرحمة فهو للمسيئين وكل ما هو بلفظ الفضل هو للمحسنين وكلاهما
عائدان إلى المشيئة وإنما أعادهما إلى المشيئة ليطمع المسيئين في عفوه

والمحسنين في فضله بعد استحقاق المسيئين عقابه وبعد ما يوتي المحسنين
ثوابه ليلحق المسيئين المحسن الظن به فيستحقوا به العفو وكذلك
المحسنين فليستحقوا الفضل فهذا الظن عمل بعد العمل وليس بعده شيء
وايضاح ما قدمناه ان الاجتبا في الازل هو على وفق العلم بما سيكون من العمل وهو
في فريق واحد عصى فمن علم منه سبحانه انه اذا اجتباه وهداه استمر اجتباه
كآدم ومن علم منه انه اذا اجتباه عاد الى المعصية ابقاه واضله كابليس لان افعال
الباري لا تكون عبثا وقد بين الله ذلك في الدنيا بقوله ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم
وفي الاخرة بقوله ولو ردوا لعادوا وبهذا تتم السابقة وبهذا الشرح كشف
الغطا من حكم المشية وعاد الجميع على وفق العلم والحكمة التي بمقتضاها تصرف
القدرة وان كانت مطلقة على كل شيء يخطر بالبال فافهم جملة هذه الاقوال
وان نبا فهمك عن تحقيق ذلك فعد الى المحكم واعد اليه المتشابه فمحكم الاية
الاولى هو قوله تعالى ورحمتي وسعت كل شيء ثم قال فساكتبها للذين يتقون
وتمام الاية فعاد ما يكتبه من الرحمة راجعا الى مقتضى العلم والحكمة مما هو
معلق باعمال العباد وقد بينا ان من جملة العمل بعد العمل حسن الظن
فافهم ما بيناه على ما قدمناه واما محكم الاية الثانية فهو قوله تعالى
ليوفيهم اجورهم ثم قال ويزيدهم من فضله وكقوله ولدينا مزيد فهذا
انبا عن سعة القدرة التي لا تنحصر فلما علق الفضل في بعض المواضع بالمشية
كانت المشية على وفق العلم بما لا يعلمه العباد من انفسهم فافهم هذا لتعلم ان
قوله تعالى وان الفضل بيد الله يوتيه من يشا هو اعلام بسعة القدرة ولا يلزم

من هذا ان الله تعالى يوتي فضله احدا من عباده على غير مقتضى العلم والحكمة
وان كان قادرا على ذلك وقد بينا ما يجب بيانه في العلم عند قوله تعالى ولو
علم الله فيهم خيرا لاسمعهم فافهمه ها هنا وفي موضعه ولما كان العلم
سابقا قال بعد ذكر المشية التي لا يمكن ان تخرج عن وفق العلم وان كان
لها ذلك ما اصاب من مصيبة يريد مما اصاب من خير او شر
في الارض اي باسرها ويعم ساير الظاهر وقوله ولا في انفسكم يعم ساير
الباطن الا في كتاب وهو كريم علم الله السابق بما يكون قبل ان يكون ولهذا
قال من قبل ان نبراها يعني الارض او في الانفس ان ذلك على الله يسير
من اليسير وكون الله تعالى عالما بتلك المصيبة وانها في كتاب لا يتغير لا يمنع
ان يكون العبد مكتسبا وان تكون تلك المصيبة على العبد بما قدمت
يداه فان الله تعالى لم يزل عالما بالكاين قاضيا بالحق فيه وقد تحصل لك
ذلك في كلام ينكشف به سر القدر فافهم كل الفهم ٥ اعلم ان
القضا هو حكم الله تعالى في الاشياء وحكم الله سبحانه في الاشياء هو على حد
علمه بها وفيها وعلم الله في الاشياء هو على ما اعطته المعلومات مما هي عليه
في نفسها والقدر تقدير ما هي عليه الاشياء في عينها من غير مزيد وتوفيه
فما حكم القضا على الاشياء الا بها وهذا عين سر القدر فلله الحجة البالغة
على الخلق فالحاكم على التحقيق تابع لعين المسألة التي يحكم فيها بما تقتضيه ذاتها
والمحكوم عليه بما هو فيه حاكم على الحاكم ان يحكم عليه بذلك فكل حاكم محكوم عليه
بما حكم به وفيه كان الحاكم من كان فهذا اصل ينبغي ان يحفظ لفظه ويفهم معناه

فاذا صح عقلا من غير معارضة فابن من بابه ما شئت عليه ومما اشكل عليك
فارجع به اليه **فصل مبنى على هذا الأصل** ومعناه كالمثال
لما يستنبط منه ويتفرع عنه وهو مستنبط ولازم من قوله تعالى وان
من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم هذا يعطى ان كل
عطية رزقا او عملا او علما باطنا وظاهرا بكل اعتبار لا ينزلها الله الا بقدر
معلوم والقدر كما بينا وما يشاء الا ما علم وما علم الا ما اعطاه المعلوم فتقدير
العطية في الأصل للمعلوم والقضا والقدر والمشية والإرادة ومثل ذلك تابع للعلم
الأزلي والعلم يتبع المعلوم فالكل اعطاه المعلوم لا العلم فافهم واعلم فالعالم بهذا يعطيه
علمه اتم الراحتين واتم التعب في دنياه ويعطيه اكمل السعادة في اخراه واذ
قد تحقق ان هذا العلم يعطى النقيضين وعايد ذلك على العامل والأمر فيه
اليه فليعط امرء نفسه ما شاء فان الله تعالى لا يعطيه سوى ما اعطاه
ان يعطي نفسه ما شاء مما مكنه الله فيه وخاطبه به بقوله ولقد مكناكم
في الأرض فقد بان بهذا البيان ان الانسان اعطا نفسه في العلم الازلي ما
اعطاها في الدنيا بالعمل بما مكنه الله فيه وكذلك سيعطي نفسه في الاخرة
على ممر الأبد من الجزاء بحكم ذلك العطاء ولهذا يقال له اقرا كتابك الى اخر
الايتين بقوله حتى نبعث رسولا فلما كانت العقول تقصر عن ادراك
هذا ارسل الله الرسل بالأمر والنهى لتتضح المحجة وتقوم الحجة فهذا
سر الشريعة وسر القضاء والقدر وحكم الإرادة والمشية وحكم
العلم الأزلي **فصل** قد تحققت انه لم يؤثر فيك سواك فلم

يكن

يكن ما رزقك غيرك وان كان من عند الله سبحانه وقد بان ان لك على نفسك
القضا والقدر ومنك فيك برز سر المشية ونفذت الإرادة وانت اجريت
القلم بما كتب وستجري ما يجري من الثواب والعقاب الذي يعمل لك او عليك
وجب فقد صح عندك انه لا تعلق لك بغيرك ولا بالله فيما اجرى عليك من العدل
وان كنت متقلبا منه في انواع الفضل وقد ظهر لك انك لم تؤت ولا تؤتى خيرا
او شرا الا منك وقد قام عذر الله وعذر عباده عندك ومعاذير الموجودات
من حية وعقرب وعثرة حجر وغير ذلك فهذا هو معنى قوله تعالى وما اصابكم
من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفوا عن كثير فمن تأنى مما كان ومما سيكون
ما تكرهه فقل لنفسك يداك اوكتا وفوك نفخ وان كان ما اصاب في كتاب ولما
قوله تعالى لكيلا تاسوا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما اتاكم فهو
منسوق بقوله اعلموا انما الحياة وتمامه اى اعلموا ان الأمر كذلك لكيلا تحزنوا
على ما فاتكم منها ولا تفرحوا بما اتاكم منها وقد بين ذلك بقوله تعالى والله لا
يحب كل مختال فخور فالمراد لا تفرحوا فرح المختال الفخور وهذا كقوله لا تفرح
ان الله لا يحب الفرحين فهو مخصص بالدنيا ولا يجوز اطلاقه لقوله تعالى
فبذلك فليفرحوا ومن تحقق ان كل منحة محنة وان ساير العطاء في الدنيا
هو من باب الابتلاء لاجل الجزاء في الاخرى فكيف تحزن على ما فاته ثم كيف يفرح
بما هو ات وانما يفرح او يحزن بالعمل الذي عمله بالشيء لا بنفس الشيء فقد علمت
معنى هذه الاية حق علمها وانما اخرها ليتنسق عليها الذين يبخلون ويامرون
الناس بالبخل ومن يتول الانفاق فان الله هو الغني الحميد ولما كانت هذه

لأبيات كاملة في معناها لم يأت بواو العطف بعدها بل قال كالمادح لما انزله
على من ارسله لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وقوله وانزلنا معهم الكتاب
منسوق بقوله وانزلنا الحديد اي انزلنا هذا لمن يعقل وهذا لمن يجهل فقدم
واخر تفصيلا وايضاحا والكتاب هاهنا يريد به اسم الجنس لانه قدم
قوله لقد ارسلنا رسلنا وقوله والميزان يريد الصفة التي هي المراد
بالميزان وهي العدل وهذا هو مراد الشرايع كلها من العباد كلهم وعلى
محبته فطرت العقول فمنه ما ظهر فكفى فيه العقل ومنه ما خفي فجا به
الوحي ولهذا قال بعده ليقوم الناس بالقسط اذ به صلاحهم في الدارين واخر
قوله وانزلنا الحديد لينسق عليه ما بعده وليكون الانتصار بالحديد بعد
مجيء الرسل بالكتاب والميزان فافهم وقوله وانزلنا كقوله وانزل لكم من الانعام بمعنى
الايجاد بالامر والامر منزل وقد ذكرنا الانزال في سورة الانعام وذكرنا الامر
في سورة الدخان والمراد بالحديد ما يعمل من الات الجهاد التي تعمل منه فكانه قال
انزلنا الكتاب لجهاد العدو الباطن والحديد لجهاد العدو الظاهر ولهذا بعده
فيه باس شديد ومنافع للناس وذلك الالات والالات الداخلة
في ساير الصنايع وبين المقصود بالانزال فقال وليعلم الله من ينصره
وهو منسوق بقوله ليقوم الناس بالقسط واخره ليذكر النصر بعد
ذكر الحديد الذي انما يكون به واما الواو في وليعلم ليكون النصر بالكتاب
والحديد وقوله ورسله اي وينصر رسله وقوله بالغيب اي انما نا
بالغيب لان ثما وعد الله على ذلك غيب ان الله قوي عزيز ولقد

ارسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد
وكثير منهم فاسقون ثم قفينا تقدم ومنه قافية الشعر لان مقاطع
الابيات كل واحد يتبع الاخر على اثره في صورة واحدة على اثارهم برسلنا
وقفينا بعيسى ابن مريم واتيناه الانجيل وجعلنا في قلوب الذين
اتبعوه رافة ورحمة ثم قال ورهبانية ابتدعوها اي
وابتدعوا هم بعده رهبانية وهي مشتقة من الرهبة وهي الخوف
لكنه تعالى قال ما كتبناها عليهم اي في الانجيل لان ما كتبه في الانجيل
عليهم هو فرض من لوازم التكليف الا ابتدعوها ابتغاء رضوان الله
من باب النوافل ولفظ البدعة يطلق على ما يحدثه المرء من طاعة ومن
معصية وهذه طاعة فما رعوها حق رعايتها بل دنسوها بالتالوث
وغيره وقوله فما رعوها اي كلهم بل بعضهم وهم من اسلم مع عيسى ومحمد
عليهما السلام واليهم الاشارة بقوله واذا سمعوا ما انزل الى الرسول
ترى اعينهم تفيض من الدمع والباقون ما رعوها فاتينا الذين امنوا
منهم اجرهم وهم الحواريون وتباع محمد عليه السلام وكثير منهم
فاسقون ولما كان قد تقدم قوله تعالى يايها الذين اوتوا الكتاب امنوا
بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل ان نطمس وجوها الاية وكان النداء
للنصارى وان عم اليهود ايضا ثم فصل هاهنا بقوله فاتينا الذين امنوا منهم
اجرهم نادى هاولاء اعني من امن بالرسل الاوايل من الحاضرين والاميين ممن
لم يطبع على قلبه ولم يحق عليه القول فقال يايها الذين امنوا بالانبياء المتقدمين

اتقوا الله وآمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم يؤتكم كفلين حظين من
رحمته حظا لإيمانكم بمن تقدم وحظا لإيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم
ويجعل لكم نورا تمشون به في سبيل الآخرة والنور هو القرآن فإذا آمنتم
بالرسول جعل الله الرسالة لكم نورا كما جعلها على من لم يؤمن عمى ويغفر لكم والله
غفور رحيم وقوله لئلا معناه أن من أهل الكتاب من طبع الله على قلبه
بكفره فلا يمكن أن يؤمن ومنهم من يمكن أن يؤمن وهم المنادون في هذه الآية
فناداهم الله ووعدهم بالأجر في الآخرة لا في الدنيا وهو قوله يؤتكم كفلين من رحمته
وكذلك النور والمغفرة كل هذا أجر وأجر في الآخرة لا في الدنيا إذ لو أعطاهم
أجرهم في الدنيا لعلم أهل الكتاب ممن عوقب بالطبع على القلوب بذلك فكان ذلك
مما يعيدهم إلى الإيمان ولله تعالى لم يرد لهم الإيمان عقابا لهم فجعل الله تعالى ثواب
المؤمن غيبا لا يرى إلا في الآخرة لكيلا يراه المطبوع على قلبه فيؤمن وهذا هو من
جملة الطبع والختم أن يمنع عنه أسباب الهدى وهو العلم فقال ما معناه
آمنوا بمحمد نعطكم أجرين في الآخرة وإنما أعطيناكم ذلك في الآخرة لكيلا
يعلم أهل الكتاب المعاقبون بالضلال ألا أن لا يقدرون على شيء من فضل
الله أي في الآخرة بل يحسبون أن لهم الآخرة وهذا غاية العقاب وهو أنهم
لا يقدرون ويحسبون أنهم يقدرون بمعنى أنهم يعتقدون أن لهم أجرا وأنهم على
هدى ومع هذا سد عليهم باب العلم لئلا يعلموا أنهم لا يقدرون على شيء وهذا من
باب قوله تعالى وظن أهلها أنهم قادرون عليها أي مالكون لها وهو كقوله تعالى
أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ومثله ويحسبون أنهم مهتدون

وتقديره لئلا يعلموا أنهم لا يقدرون ولئلا يعلموا أن الفضل بيد الله فدل
على هذا المقدر المحذوف بالواو فقال وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء
وهذا الفضل هو بعد الجزاء ولا يكون إلا للمؤمن ولهذا سماه فضلا لأنه فضل عن الجزاء
ولا آخر له ولا تعلمه نفس وإليه الإشارة بقوله ولدينا مزيد الذي بعد
قوله لهم ما يشاؤون فيها ولهذا ختم السورة مخبرا عنه ها هنا بقوله
والله ذو الفضل العظيم فافهم هذا وتأن لكي تحقق ما ذكرته لك واحذر
أن تضل عن العبارة فلا تفهم المعنى في هذه وأمثالها فإذا طالعت ما قيل فقيد
نفسك إلا بما أوصيك به من تحقيق اللفظ من جهة العربية واحذر
أن تميل إلى كلام العرب بل بما يأتي في القرآن مثله أعني المنقول عنهم بل مل
إلى ما جاء في القرآن مما وافقه لا مباينهم ثم بعد ذلك انظر إلى مضمون اللفظ ما
ذا يلزم عنه وكم صورة يحتمل من المعاني فإذا أحضرت ذلك فخذ الأحسن
الأولى بذلك الموضع المخصوص الموافق لسياق الكلام وسباقه مع كونه
قد جاء في مواضع من القرآن ما يصحح ما فهمته من المعنى فنحن لما فهمنا
ها هنا من اللغة ما هو أولى ومن المعنى ما هو أجدر وأحرى بتلك اللغة
المفهومة ووافق ذلك ما جاء في كتاب الله في عدة مواضع لفظا ومعنى
وما هو في الوجود من حال النصارى واليهود وما عاقبهم الله به
بعد الطبع من نفي العلم الذي من شأنه أن يوجب الهدى أثبتناه ثم رأى
من المعنى ما هو أولى بهذا اللفظ مما قلناه وكان دليله على ما رآه
أدل فله العود لأن المراد هو أن لا يتبع إلا ما لا ريب فيه وإذ

قد تجرت هذه السورة فلنذكر كلاما مجموعا من اقاويل الاوائل بعد حذف ما
لم يوافق القرآن وزيادة ما وجب زيادته على قيلهم رغبة في البيان وذلك فيما
يتعلق بقوله تعالى هو الاول والآخر والظاهر والباطن اذ في هذا المكان تنعد
الطروس بل تضمحل النفوس فليأخذ الناظر من كل فصل ما يليق بسبيله بعد
وضوح دليله ولا يحصر فيما قلته فقط بل يجعله مثالا وليعلم ان اجرام
العالم تنفعل لهمم النفوس الصادقة اذا اقيمت في مقام الجمعية فكيف
اذا كان ما توجهت اليه الهمم واجبا وكان الله لها مساعدا وكانت
بذلك مأمورة وله عاشقة وعن غيره منصرفة وبالثبات عليه مؤيدة
فليجرد الهمة وليوحد العزمة وبالله التوفيق ⁂

فصل فيه منافع في معرفة المصنوع والصانع

ونحن مرادنا هو افهام ما يمكن استقراره في الافهام مما يتعلق بهذا الفصل
والسلام   فنقول لا شك ان الانسان يشهد انه مقهور والمقهور له
قاهر وهذا كاف في ان النفس مخلوقة وباعتبار المخلوق ظهرت اسماء
الصفات للخالق فاولها الاول وآخرها الآخر فكل اوليته معلومة ومظنونة
بكل اعتبار لا بد ان يتقدمها الاول وكذلك كل آخريته لا بد ان يتأخر عنها
الآخر فالاول هو الظاهر والآخر هو الباطن فالظاهر باين مباين فان تنعت
التشبه بعدم المشتبه لانه لما يتبع اشكال ووصف عن له اشكال   والباطن
جلي على كل تجلي بما يعرف انه اول ظاهر   على ما يحقق انه باطن آخر   اورت
العقول بانه لم يزل ولا يزال وتحققت انه ليس لها معه من مجال   وان نظرت الى الاول

الظاهر لم تجهله وكيف تجهله وهي تعقله   وان نظرت الى الآخر الباطن لم
تعقله وكيف تعقله وهي محدودة به   انقطع تنبير الفكر ووقف سلوك
الذهن وبطلت اشارة الوهم وعجز لطف الوصف وخرس لسان الخبر وعشيت
عين العقل فلا طور للقدم ولا سبيل للدليل في بيدا الابد ⁂
مرام شط مرمى العقل فيه   فدون مراه بيد لا تبيد ٥ واذ قد
تقرر صحة هذا المقال فلنعد الى ضرب الامثال

فصل لما رأينا ارواحنا جلت عن مجانسة اجسامنا واحتجبت عن حواسنا
للطافتها صح عندنا انها عوفيت عن قبول الكون والفساد اللذين هما
من علايق اجسامنا لان قوام الجسم بالنفس ولا ينعكس فعلمنا ان النفس
باقية وايد ذلك العقل بوجوب الاقرار بعظم قدرة الصانع وتفننها
فلها خلق الفاني والباقي اذ هذه صفة القادر المطلق فلما صح ذلك في الافهام
وايده العقل اكده الوحي بقوله عطاء غير مجذوذ

فصل لما كانت النفس عالما لطيفا بسيطا روحانيا والبدن كثيفا مركبا من العناصر
لم تحل بانحلال الجسم غير انهما جوهران اثنان فكما لا تشبه ارواحنا
المدركة العاقلة اجسامنا المدركة الواقعة تحت الكون والفساد
فكذلك باريهما جل جلاله لا يشبههما فهو لا روحاني ولا جسماني
ولا تحت الزمان ولا فوق الزمان وهذا العرفان في الايقان ملحق بالعيان

فصل كما ثبتت معرفتنا بانفسنا وثبتت بهذه المعرفة
معرفة الصانع في هذا الباب فكذلك تثبت بكل معرفة نعرفها من

أنفسنا معرفة لبارئنا من علم وقدرة ومشيئة وإرادة وغير ذلك
إلى أن تنقطع العبارات وهذا هو أول الشهود الذوقي الذي هو آخر
الشهود النطقي **فصل** ثبت أنه لا جائز أن يكون الشيء
صانعا لإياه حين لم يكن إذ من المحال أن يتولى صنع نفسه فيكون صانعا
مصنوعا فلزم ثبوت قدم الصانع أزلا ثم لزم أنه واحد لأن تخرج
الاثنين من الواحد إذ الواحد علة العدد فلا يكون الثاني إلا بعد فالعدد
من الواحد وليس الواحد من العدد إذ لا يتقدم الواحد عدد بل تقدم
الواحد على العدد فاستقام أن يكون منه العدد فهو سابقه وعلته
فالعدد مسبوق ومعلول ولما كان الواحد العددي يقال على أشياء
كان مبدع الأشياء واحدا لا كالأشياء لأن الإنسان واحد فيه كل شيء
بالقوة والله أجل من هذه الواحدية والوحدانية لأنه هو مبدعهما
وليس كمثله شيء فانفصل كل شيء وإذا اعترف الإنسان المصنوع أنه
لا يحيط علما بإياه فلا شك تعالى الله وهذه آية من آيات الله في الأنفس
فصل نضرب بالمصنوع مثلا فنقول إن الضرب
من جهة المضروب هو مع المضروب لأن المضروب به صار مضروبا
فأما من جهة الضارب فهو مع الضارب لكنه ليس بمباين في
هويته الضارب ولا أن يكون شيئا إلا هو وهو حين لم يظهر ولم يبد بل ذلك قوة
من قواه مع الجوهر الذي هو فيه وبه متحد معا من غير أن يحتاج إلى مكان
فيه كالمتمكن الجسماني المحتاج إلى المكان فكذلك يحتمل أن يقال في الصنعة من

جهة الصانع سبحانه في كل مصنوع هو هكذا من جهة الدلالة بالمجاز
لكنه بالحقيقة يستحيل أن يكون هكذا لأن هذا فعل المصنوع في المصنوع
كثيف وفعل الصانع سبحانه في المصنوع ألطف من هذا حتى أنه لا يجوز
أن يقال فعل الباري في المصنوعات كلها متحد معه بل ألطف من الاتحاد
لأن كل فاعل دون الله سبحانه هو فاعل لفعله وهو مفعول لفاعله سبحانه
فهو فاعل مفعول وفعله متحد به وهو أبدي والفاعل الأول سبحانه
أزلي والأزلي أجل من الأبدي المفعول والأزلي أيضا كثيف في اللفظ
يشبه أنه مضاف إلى الأزل ولا يجوز ذلك بالحقيقة إلا قولا كثيفا
مجازيا من أجل التفهيم على شريطة صحة المعنى مما تقر به الفطر لا مما
تحتمله الألفاظ وبالله التوفيق **فصل** الجسماني يحتاج
إلى المكان والروحاني لا يحتاج إلى المكان ولا يجري عليه الزمان فهو ألطف
من الجسماني والأشياء فيه بالقوة ألطف من أن يحتاج إلى المكان أو يخالف
هويته في زمان ولهذا لا ينقص من الإنسان شيء إذا برزت أفعاله في
أعيان فالإنسان واحد بصفاته غني بذاته إذ منها برز ما أبرزته
الإرادة في مصنوعاته فهذا حاله وهو مصنوع فانظر إليه تجده
خارجا عن حدود الأفهام وتصورات الأوهام ثم انظر إليه فيما برز
عنه تجده مع شدة خفائه قد ظهر بمصنوعاته في غاية الظهور فهو الذي
لا يشهد ولا يجحد ثم أقلب النظر إلى بارئه تجده أخفى منه من إخفائه عنه وأظهر
منه من إظهاره له فاسجد واقترب **فصل** تعالى الله

ان يكون في العالم محاطا او ان يكون العالم فيه فيكون مكانا بل ازليته متصلة
بابديته وهو المحيط علما بالمبدعات قبل ايجادها ليس كاحاطة الانوار بالاجسام
ولا كما يتلخص معناه بالكلام او يدخل في الافهام او تومي اليه الاوهام
اذ ذلك كله من بعض فعله والله تعالى ليس كمثله فلما علا حتى كاد ان يعدم ودنا
حتى كاد ان يعلم عاد ابعد من ان يقال انفرد بذاته واقرب من ان يقال
احتجب بمبدعاته **فصل** اعلم ان الاسماء علامات منبهة
على حقايق معانيها فاسماء الله نحو معانيه لا معانيه نحو اسمايه ولا سبيل
للانسان ان يجد الباري تعالى بغير هذه الاسماء فاذا قال منها شيا فانما
قال قولا محدودا مدركا للقايل ولا يكون باريه الذي هو معاني هذه الاسماء
محدودا مدركا فلا تقع الاسماء على حقيقة المراد لكنها منبهة عليه مشيرة
اليه اشارة ايمان محقق بغيب مطلق فلا يقال هل علمه هو ام غيره اذ
الامر الطف من ادراك ما بالنفس فضلا عن مدركات ما بالحس مثال
ذلك انا نتحقق ان مرتبة العلم والمعرفة منا الطف من مرتبة السمع والبصر
فينا وان كان الكل واحدا من جهة جوهرية النفس لكن الفرقان في معاني
اسمائنا ظاهر وان كان دقيقا لان العلم مع ذات العالم ذاتي فهو الطف
مرتبة اذ ءالة القبول له هي هوية النفس الجامعة لهذه القوى المتجزية واما
الحواس كالسمع والبصر فحواس متباينة من جهة اجسامنا كل حاسة
غير صاحبتها من الطرف الواحد اعني المحسوس واما من الطرف الاخر
اعني جوهر النفس فالكل متحد عندها بجوهرها واعني بالكل ما هو

مدرك بالحواس وما هو مدرك بما هي من باب العلم والمعرفة لان النفس
لها قوى فهذا كله من قواها وقواها متحدة بها لكن هذا الاتحاد فيه نوع
تركيب اذا خرج الى الالات تفرق وتجزا فهو كالجسم المتكثر بالاعضا والماء
المتكثر بالاطراف في شتى الصنوان المتصف بصور ساير النبات والحيوان
فيه موصوفاته بالقوة قبل ان تخرج من بساطته فهو واحد متكثر
فليس فيه تفصيل وتفضيل في وحدته ولا شك ان كل شي من موصوفاته
هو في قوته كما ان الدايرة سدسا وربعا واسما مختلفة وصورا
متباينة وان كانت واحدة فالمدرك بالاجرام المركبة يحتاج الى مكان
والمدرك بالقوة في البسايط لا يحتاج الى مكان فافهم ان هذه وحدة
المفطور وها انت تحقق لطفها واتحادها بوصفها واين هذه من وحدة
الفاطر الذي لا يحصره الحاصر ولا يمثله الخاطر وهو الاول والاخر الباطن
الظاهر المجهول باعتبار الظاهر المعروف بالحيرة عند اولي البصاير فقد
بان لك انه لا يقال ان الصور موجودة في واهب الصور كما يقال ان النار
موجودة في الخشب والفروج في البيضة **فصل** النفس
الناطقة ثمرة الكون وغاية الوجود اذ كل صورة ومعنى من كل مبدع
اليها ينتهي ويجوز ان يقال هي مبدؤه ففيها الكل بالقوة التي هي كالبذر
وهذه القوة هي من جملة خصايصها ولا يقال هي غيرها فيجوز بهذا
الاعتبار ان يقال ان النفس هي الكل وليس الكل غيرها وهذا رقيق مرمه
ولكنا نترجمه فنقول ان الاشيا كلها موصوفة بالنطق منعوتة

به فصار النطق سببا لوصف كل موصوف ونعت كل منعوت ولا يدرك
الموصوف ولا الا بالوصف والمنعوت الا بالنعت ولا سبيل الى النعت
والوصف الا بالمنطق ولا شك ان المنطق ليس في غاية التمام لانه لا يقدر
ان يصف الدقايق الا بالامثال والتقريب الى الاوهام دون الحقايق لدقة
الغور فيها وذلك لان المنطق زماني جسماني مركب تركيب كثيف
والشيء الذي يصفه المنطق قد يكون روحانيا لطيفا فلا يبلغ الجسماني بالصور
اداء حقوق الروحاني بالحقيقة فافهمه فاذا هنالك فضلة من المعاني
يدركها بعض الانفس بالاشارات لا بالعبارات اذا كان ذلك المدرك
موجودا حاصلا للنفس فالالفاظ اذا تنبهها الى الاطلاع على ما هو فيها
والا فلا فالكلام بالحروف محمول فيه المعنى المقيد بها فاما عند النفس
فالحروف والنغم والصوت والتركيب واحد متحد بها واذا صار
الشيء متحدا اخرج عن حد التركيب الجسماني الى حد البساطة فدخل
في حد التمام ففي النفس مع هذا فضلة عما يدرك بالمنطق فهو يشير اليها معترفا
بقصوره عن التعبير عنها فقد عادت النفس بما فيها من سائر مدلولات المنطق
وما فضل عنه واحدة فهي حاملة للكل حملا بسيطا لا تركيب فيه ولا
تحتاج محمولاتها الى اماكن شتى منها فتكون مباينة لها او متباينة فيها فصار لها
التمام من جهة المركبات وهي فوق التمام من جهة ما فضل لها بالذات وعادت
مبدا الكل وفيها الكل واليها ينتهي الكل وهي واحدة جلت عما يشار اليه بلفظ
الجزء والكل وفي هذه الورطة زلج الموحدون بزعمهم اذ قالوا ان الله هو

الكل لانهم قالوا اذا كان الكل متحدا بالنفس وهي هو من غير غيرية فالنفس
بما فيها اشد اتحادا بالباري وهو هي من غير غيرية فسروا في هذا
المسرى ووجوه من باب القياس والمثال وذلك غلط لان السوى كله
مبدع وليس بازليته فهو يشبه بعضه لبعض ولا يمكن ان ينعطف الا عليه
واما صانعه فلا نسبة له اليه فمن مثله به او شبهه فهو من المشبهة
ثم حملهم على ذلك حب المعرفة وغلبة الشوق الى الصانع فتناهوا في رياضة
الانفس وتصفيتها فصار لهم كشف وذوق فهو لازم عن رياضاتهم
فهم يصيبون اذا قابلوا المحدثات فاما اذا قابلوا مبدعها فلا ينطبع في
مراة ذوقهم الا ما هو مبني على اصل عقايدهم التي هي اس مباديهم
فلما خالفتهم الشرايع تاولوها تاويلات واتبعوا منها تشابه به ما
وعادوا بها اليهم ولم يستندوا اليها الا فيما وجدوه حجة لهم
ونسبوها الى انها جاءت على مقدار عقول الجمهور فجعلوا باطن الشرايع
مخالفا لظاهرها وتمدحوا بانهم هم اصحاب الباطن لان لهم العلوم
والاذواق وقد قامت لهم براهين بصدق دعواهم منها اخبارهم
بالمغيبات واطلاعهم على كثير من الحكم والمشكلات والاقتدار على
اظهار الكرامات والتمكن من التصرف في كثير من انفس الناس والمخلوقات
ضروب بانواع من التصرفات فما شك احد منهم ولا من راى او سمع بما ظهر
عنهم انهم بلغوا المرام الا من هدى الله ممن اتبع رضوانه سبل
السلام ثم هبت عليهم نسمة لذيذة من هواء حب الرياسة وزين ذلك

في قلوبهم من باب الفتوى لطلب النفع المتعدي حتى ظنوا انهم كلفوا ذلك كما
كلفت الانبيا فمنهم من اظهر الرياسة فانقاد اليه خلايق ومنهم من لم
يرض اظهار ذلك ولا التعريف بنفسه رغبة في الرتبة العليا كما ان الامر
فهو بنفسه اشد فتنة واعظم غرة واقوى رياسة فلما جزموا
بما علموا عموا وصموا كثير منهم فهم ملحقون بتباع بعض الشرايع
المنسوخة او الملحدين الصابين عن اتباع شريعته ولو دخلوا من
الباب وهو ما انزله الله من الكتاب لتحققوا ان الله تعالى جعل الاقوال
والافعال وكل ما يخطر في البال من باب الامثال ولهذا قدم قوله
وتلك الامثال نضربها للناس يريد ساير الامثال لساير الناس ثم قال
بعد ذلك هو الله الذي لا اله الا هو وتمام الايات اعلاما بعد ما ظهر من
الايات المقدمات ان ساير ما يستقر في الذوات من اسما الصفات
ليس الا امثلة تعطي التعظيم وهو العلي العظيم فالنفس الناطقة مثل مضروب
بالعقل وساير ما قدمناه فيهما وما يخبر به عنهما وينسب اليهما واضعاف
اضعافه وصف مخلوق والله خالقه ومثال مضروب ويضرب الله
الامثال للناس ومثل والله يوتي ملكه من يشا وحكمه يوتي الحكمة من
يشا وعلم وفوق كل ذي علم عليم ومعلوم ويخلق ما لا تعلمون فقد بان في
هذا الفصل من تعظيم النفس ما يكفي ومن توحيد الحق ما يشفي واية ما
ادعيناه في علو رتبة الانبيا ان الحكما لهم اخبار وحقايق تستحسن والانبيا
لهم مع ذلك اثار وخوارق تستعظم واما الاوليا فهم تباع الانبيا لا غير

فلهم كرامات ولا تبطل كرامات الاوليا معجزات الانبيا بل تحقق صدقها وتثبت
حقها وتعطي طمانينة بعد الايمان بها فكلاهما حق وبينهما فرق فهو
ان الكرامات من كرم الله والمعجزات من قدرة الله فالنبي امر بالفعل
اظهارا للقدرة والولي ابيح له الفعل اظهارا للكرم وتفسير الولي
بالتحقيق ليس الا انه عبارة عمن اتخذ الله وليا فجعله متوليا ساير
اموره وليس ذلك الا باتباع اوامره الصادرة بلسان نبيه فافهم واما
الاحاد المجذوبون فهم على هذا الحكم وان كانوا لا يعلمون وليس المراد
الاحاد بل فضل الله عام على ساير العباد من غير هوى وليست الكرامات
علامة الولاية لان مثلها يظهر من الرهبان فهي من خصايص افعال
الانسان او ما فطر عليه للابتلا والامتحان واما الولاية فليس الا اتباع
امر القران فالولاية كاملة والنبوة كاملة مكملة فالولي كالملك والنبي كالانسان
الذي ساوى الملك من طرف وزاد عليه من طرف اخر اذا لم تحكم عليه المادة بل
صارت معينة له على الغرض الذي لاجله حصل التركيب وعطلت الوحدة والبساطة
فليس الكمال في فقد القوتي الشهوة والغضب بل في استخدامهما بحيث لا تنازع
بل تساعد ولا تعيق بل تعين وبهذا صار الانسان كاملا مكملا

فصل

قد صح بما قدمناه ومثله ان المفطور الذي هو في غاية اللطافة لا يكون
مماثلا للطافة الفاطر فيجانسه من جهة فكيف يجوز ذلك من ساير
الجهات حتى يقال هو كل ما في الارض والسموات لان اللطافة عادت صفة
للمفطور واما الفاطر فهو الذي جل مسماه عن اسمه المعروف من اللطافة

واذا لطف عن اللطافة فمحال ان يحتمل الكثافة ولهذا ضرب الامثال لنفسه
ثم قال ليس كمثله واذا خرجت اسماء الله تعالى عن الدخول في العقول فاين
هناك قول القايل هل علمه هو ام غيره   ولنزد البيان ايضاحا فنقول بأمثال
ان بين الحواس تباينا والحاس بها واحد ومن سر ذلك الاعلام بتفنن قدرة
الصانع والاقرار بعجز المصنوع فالبصر يدرك ما قابله من السماء مع بعدها
عنه والسمع لا يدرك الا من بعد يسير دون ادراك البصر بدرجات لا تكاد
تتناهى والشم لا يدرك الا من بعد دون ذلك واللمس لا يدرك الا من قرب
ليس فيه مسافة والذوق لا يدرك الا بواسطة زايدة وهي الرطوبة
التي تصحب الطعام لتغوص في مسام اللسان وتتصل بواسطتها الى العصبة ولهذا
خلقت المايية في الفم لفرط الاحتياج الى ذلك لعجز اللمس عن الادراك بالحواس الخمس
ادراكا واحدا متساويا في المسافة ظاهر وتفنن القدرة من الصانع اظهر ونحن
اذا طلبنا الفرق بين شيئين فذلك تحريضا على مشاهدة القدرة واذا طلبنا
الجمع بين شيئين فذلك تحريضا على مشاهدة الوحدة   فنقول لا يجوز ان
يقال العقل والعاقل والمعقول واحد الا على طريق التوسع او من وجه لا من
كل وجه كما لا يجوز ان يقال الابعاد الثلاثة في الجسم واحد اعني الطول والعرض
والعمق فان قيل الجسم محسوس والوحدة فيه عارية وليس كذلك العقل
فان الوحدة فيه بالوجوب والكمال فالجواب هذا مقبول وهو موضوع
على سواد العين ومصون في حبة القلب ولكن العدد في الشاهد
والغايب محفوظ الصورة لا يكون الكثير منه واحدا ولا الواحد كثيرا

اعني التثليث بالجنس لا يعاند التثليث بالعقل لان طبيعة التثليث واحدة
اين كانت وكيف وجدت الا ان كانت تلك المعاندة بالنوع وهذا لا يدخل
فيما قدمناه فكيف تقوم ثلثة في العقل وترتفع فيه كانه يكذب عند
اياه فمتى صار العقل والعاقل والمعقول شيئا واحدا ارتفع العقل ان
يكون عقلا والعاقل لن يكون عاقلا والمعقول لن يكون معقولا فما ذلك
الواحد وهنا ما هو اعجب كيف تستفاد الوحدة من خارج واما
الوحدة للواحد بالذات ولهذا نعمد الى المربع فنكسوه صورته مرة
ونسلبها اخرى فنقول واحدا بالعارية وليس كذلك الواحد بالحقيقة
فان وحدته لا تسلب وعاريتنا له لا تثبت فتكون هو ولو امكن ان يلحظ
الوجود معري عن الموجود لجاز ان يلحظ الموجود معرى عن الوجود فالوجود
نعت مفتقر الى منعوت يقوم به فان قيل اذا ذكرت الوجود تصريحا فقد
ذكرت الموجود كناية اردت ذلك او لم ترد كقولك اب يلزم عنه ابن فالاول
باختيارك والثاني باضطرارك فالجواب هذا في غاية الحسن ولكن هذه
الجملة مدخولة لان الاب غير قولنا واحد فالواحد ليس فيه تضمين
كما ليس فيه في النور ظلمة فقول القايل الكل هو لا يصح لانه مقابل بالعالم
العلوي والسفلي فان اراد ان العالم قيامه بصانعه واستمداده
منه فهذا غير قوله العالم هو والعقل اقر لصانعه انه مع غناه
به فقير اليه ومع عزه به ذليل له سبحانه فكيف يكون هو وهو فضلا
عن الطبيعة والاعيان المختلفة واذا كان الكل قد تضمن الكثرة والواحد

تنزه عنها بالوحدة فكيف يوصف بالكثرة ولا هو هي وبالعكس وهذا كله
خيال وخبط ومجاز ولا يصح الا باعتبار ما والواحد سبحانه يصح
انه واحد بكل اعتبار فان كان لقولهم الكل هو وهو الكل حقيقة فما
اولاك بالابانة عنها وان لم يكن فما احراك بالبرهان على فساده فان
نقل عن بعض المحققين انه قال ان الله تعالى روح العالم والعالم صورته
او ان الله صورة العالم فالجواب انه لم يرد ان الله تعالى يوصف
بالروح المخلوقة من الامر او هو هي وان كانت غير مكيفة ولانه
تعالى يوصف بالصورة الشخصية او النوعية او بما يلحقه فيه نقص
تعالى عن ذلك ولكنه سبحانه لما سمى نفسه حيا وعالما وقادرا وسميعا
وبصيرا وسمى الانسان ايضا بهذه الاسماء كقوله فجعلناه سميعا
بصيرا اعادت هذه الاسما للصانع والمصنوع وقد تحققنا انه لا شريك
له سبحانه فعلمنا ان هذه الاسما تنسب الى الصانع على معان لا توجب
شبها ولا تقتضي نقصا بل تدل دلالة ثابتة على وجود الصانع من
غير تكييف وكذلك القول في الروح كقوله ونفخت فيه من روحي وكذلك
الصورة في قوله خلق ادم على صورته وكذلك اليد والعين كل هذه الاسماء
مشهودة للمصنوع مسميا بها تعقلا وتيقنا عيانا وعرفانا وللصانع
وجوبا ولزوما تحققا ولزوما وايمانا مع صحة الاعتقاد انه تعالى ليس
كما علمنا عرفانا بل كما اشرنا ايمانا وهذا الكلام المنقول عن بعض المحققين
هو معنى الحديث فيما رواه مسلم ان الله خلق ادم على صورته واذا .

كان الانسان على صورة الرحمن وهو العالم الاصغر فبمثل ذلك قيل ان
العالم على صورة الرحمن وهو الانسان الاكبر وايضاح هذا المقال يفهم
عند اهله بضرب المثال مع غاية التنزيه عن التشبيه بما قيل او
يقال وذلك هو ان قولهم ان الله تعالى روح العالم يفهم المراد من
هذا الكلام بما معناه انه لما كانت روح الانسان محركة لجسمه
والله تعالى محرك الكل بامره قيل من باب التمثيل هو روح العالم
ليصل الينا المقصود بالمثال مع التنزيه عما يخطر من المثلية في
البال وكذلك اذا قيل من هذا الباب هو روح العالم عاد العالم
بما فيه كانه صورة له اذ هو محرك عنه كما تحرك الصورة عن
الروح وهذا مفهوم ظاهر اللفظ ويفهم من باطنه ما هو ادق
من ذلك وكذلك جوزوا ان يقال هو صورة العالم بمعنى ان
الوجود الحقيقي له فلما اعطى العالم بما فيه وجودا من عدم صار
وجود العالم كلا وجود اذ ليس له قوام بذاته وصار هو سبحانه
والعالم كموجود واحد من جهة اتحاد النعت اعني الوجود وصار
كانه صورة له به ظهر كما ظهر لنا المصور بصورة صورها فهو
اعني المصور وان لم نر عيانا فقد تحقق وجوده برهانا ثم ان احكام
تلك الصورة وصحتها ولطايفها ولطافتها دال على ما عند مصورها
فكانه قد صار بهذا الاعتبار صورة مشهودة بما صنعه وصوره
وليس هنا لك جسم له صورة ولا صورة كصورة انسان او غيره بل حاله

عُبّرَ عنها بلفظِ الصُّورَةِ كما يُعبَّرُ بهذِهِ اللَّفظَةِ عَن صُورَةِ المَعنى المقرر
في الأذهانِ عندَ اقامةِ البرهانِ فهي تشهدُ بالايمانِ كما تُشاهدُ الصُّورُ
الجسمانيّةُ بالعيانِ بل هي اشدُّ ظهورًا واقوى تحققًا في بابِ الإيقانِ
ولكن ليس الةُ ادراكِها كآلاتِ المدركاتِ الحسيّةِ بل تلكَ الالةُ هي
النَّفسُ المطمئنّةُ بعدَ كمالِ الإيمانِ كقولِ ابراهيمَ عليهِ السّلامُ بلى
ولكن ليطمئنَّ قلبي ومعَ هذا اذا قلنا العالمُ صورتُهُ يجبُ ان نفهمَ هذا
القولَ مقيدًا باحق لا ملحوظًا بالظّنِّ وتقييدُهُ ان نقولَ العالمُ صورتُهُ
في العالمِ فافهم هذِهِ الكلمةَ وايضاحُها بالمثالِ انّما اذا قلنا الدارُ صورةُ
الباني فلم نرَ الا بعضَ الدارِ لم نرَ صورةَ الباني بل رأينا صورةَ صانعٍ ما رأيناهُ
من الدارِ بما رأيناهُ فقط فتكونُ رؤيتُنا بالنّسبةِ الى صورتِهِ في الدارِ
الواحدةِ ايسرَ اليسيرِ وتكونُ صورتُهُ في الدارِ الواحدةِ بالنّسبةِ الى
رؤيتِنا فوقَ الكثيرِ واذ قد تحققَ هذا المقالُ بضربِ الأمثالِ فيجبُ بعدَ
هذا العرفانِ ان ننظرَ بعينِ الإيمانِ التي قد كحلتها لكَ بجلاءِ البرهانِ فترى
انّهُ اذا كانتِ الدارُ صورةَ الباني على ما شرحناهُ وكما شرطناهُ ونحنُ نتحققُ
انّ البانيَ لهُ قدرةٌ لا تتناهى على ان يبني ما شاءَ من كلِّ دارٍ لا تشبهُ الاخرى
وجبَ ان نعيدَ الكلامَ فنقولُ انّ الدارَ صورةُ البانيِ في الدارِ ولهذا لمّا
كانت صورتُهُ في الدارِ الواحدةِ ابدًا تتبارَكُ في نظرِنا وتتكثرُ لزمَ ان
نقولَ عندَ رؤيةِ كلِّ ما يتعرّفُ الينا بهِ فيها اللهُ اكبرُ وتقدّسَ علوّهُ
مما يكونُ دنوُّنا منهُ والى هذا النّظرِ دواتُنا المطهرةُ من نجاساتِ

الهوي بالتقوى ولقد جهلَ من رامَ ان يدركَ مُدرَكًا بغيرِ آلةِ ادراكِهِ كمن
ارادَ ان يسمعَ بلسانِهِ او يتكلّمَ باذنِهِ وانت تتحققُ بالايقانِ ظهورَ روحِ
الانسانِ فهي المرئيّةُ لكلِّ راءٍ والمظهرُ لكلِّ مرئيٍّ يبرزُ عنها من مصنوعاتِها
فانت لا ترى من الانسانِ الا روحَهُ هي الناظرةُ في ناظرِهِ والمتكلّمةُ بلسانِهِ والمحركةُ
في اعضائِهِ فالجسمُ الةُ الكاتبِ والقلمُ الةُ اليدِ فاذا سقطتِ الالاتُ
في نظرِ امرئٍ لم يرَ الا الفاعلَ اعني روحَ الانسانِ ويجبُ ان تفقهَ انَّ هذا
الفاعلَ وان كانَ قلمَ القدرةِ الالهيّةِ فليسَ هو كالقلمِ من جميعِ الوجوهِ
اعني ليسَ هو الةً فقط لانَّ القلمَ لا يعودُ فعلُهُ عليهِ فهو فاعلٌ فقيرٌ الى فعلِهِ
واللهُ فاعلٌ غنيٌّ عن فعلِهِ ولهذا ليسَ كمثلِهِ وها نحنُ اذا اعتبرنا صورَ
بني ادمَ او اصواتَهم معَ كثرتِها لم نجد فيها واحدًا يشبهُ واحدًا وكذلكَ
كلُّ مخلوقٍ لو امكنَ تدقيقُ النّظرِ لوجدَ انّهُ ليسَ لهُ ثانٍ فهذِهِ الوحدةُ
من المخلوقِ دالّةٌ على وحدةِ الخالقِ ومن هذا البابِ ومثلِهِ قالَ الشاعرُ
وفي كلِّ شيءٍ لهُ آيةٌ تدلُّ على انّهُ واحدٌ ٥ وهذِهِ الصّورةُ المتصوّرةُ
في تصوّرِ الإنسانِ هي مرشدةٌ لهُ الى الاعترافِ بوحدةِ الصّانعِ من غيرِ
حلولٍ ولا سريانِ ذاتٍ ولا مماثلةٍ اذ قد بانَ انّ كلَّ مخلوقٍ منفصلٌ
عنِ المخلوقِ الاخرِ والصّورُ الباطنةُ الروحانيّةُ والمعنويّةُ كالصّورِ
الظّاهرةِ الجسمانيّةِ واللّفظيّةِ اعني لا واحدةَ منها تشبهُ الاخرى
واذا لم يماثلْ مخلوقٌ مخلوقًا والنّسبةُ حاصلةٌ فكيفَ يماثلُ مخلوقٌ خالقًا
ولا نسبةَ هناكَ ام كيفَ تحديدُهُ وان كانَ الكلُّ دالًّا عليهِ دلالةَ

[illegible]

الصورة على المعنى بل ادل من ذلك واظهر اذ الصورة الواحدة دلت على معناها
والجسم على روحه والصانع سبحانه دل عليه كل شيء وضده من الاجسام
والارواح والصور والمعاني في الانوار والظلم وغير ذلك كالعلم والجهل
فالكل صورته بهذا الاعتبار وباعتبارات تحقق للقول وجها تصححه
العقول وتحققه الشرائع ويتعالى به الصانع سبحانه ولا يكون ذلك
كما غلط بالينس الحكيم وامثاله اذ زعموا ان لله تعالى صورة سيالة
في العالم ومنهم من قال ان الله تعالى ثابت في الاشياء وقال قوم هو عين
الاشياء ولكن له مراتب فكل شيء في مرتبته وهو هو وقال قوم
ان كرة العالم هي لله تعالى وان المعلول هو العلة وانما حملهم على هذه الآراء
الفاسدة ما رأوه من سريان الوحدة في الموجودات وان وجود
كل شيء متعلق بوجوده سبحانه وسمعوا قول المحققين من الموحدين
ان الله تعالى مع كل شيء وفي كل شيء ولم يفقهوا مرادهم بهذا ومثله فانتج
لهم هذا التوهم الخبيث لانه لو كان كذلك لكان الله تعالى محمولا في غيره
اذ كل صورة مفتقرة الى موضوع يحملها ويلزم من ذلك ان يكون
العالم قديما فتبطل دلائل الحدوث ويلزمهم ان يكون الله تعالى واقعا
تحت الازمنة محلا في الامكنة في استحالة دائمة لان من شان الهيولى
عندهم ان تلبس الصورة تارة وتخلعها تارة فيكون الله تعالى عندهم تارة
شخصا وتارة نوعا وتارة جنسا وتارة منفعلا وتارة غير ذلك وهو كل ذلك
وشبه هذا من المحالات التي تاباها العقول الصحيحة والشرائع المحققة

وقد اجمع العارفون بالله سبحانه على ان الله تعالى مباين للعالم من جميع
الجهات لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئا مباينة لا تقتضي تحيزا
بمكان وانفصالا وانه موجود مع كل شيء وجودا لا يقتضي ممازجة
واتصالا بل صفته صفة لا تحيط بها العقول فهو المتعرف بصفته
التي لا صفة لها في علم عالم فيجد للعلماء به يقين يعرفونه ولا يعرفونه
بسواه بل يعرفون به سواه واما الجمهور فانهم يعلمون ذلك
بما نزل عليه الدلايل من غير تصوير ولا تمثيل وساير ما نسب
اليه من العين واليد والصورة وساير الاسماء كذلك تثبت ولا
تكيف بل نعلم بما علم انه ليس كما علم وانه معطي المعلومات كلها
فله الاسماء الحسنى وجوبا وهو المتعالي بذاته عما نحيط به علما
من صفاته فافهم هذه الدرة اليتيمة لئلا تعتقد الاتحاد في واحد
متكرر بالمرتبة فليس الاثنان واحدا بل واحدان فهما واحد متكرر
في مرتبتين والواحد الاول سبحانه لا يحتاج الى مراتب بل هو مرتب
المراتب ولا اتحاد له بغيره ان كل من في السموات والارض الا آتي
الرحمن عبدا ومن عز عليه فهم ما قلناه فليسلك سبيل المحبة
التي هي التقرب بالنوافل وهي بعد الفرايض الشرعية فبذلك
اعز مجهود بنيل اعز مطلوب والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا
شعر لو لم تكن سبل الغرام عزيزة لا ترتقي الا بعزمة ماجد
لتوارد الضدان ارباب العلى والارذلون على مقام واحد

فالحمد لله الذي حبب الينا الثنا عليه واحوجنا الى السؤال منه ووفقنا
لعبادته وعرفنا بغناه عن ذلك كله ومكننا تمكيننا بقدر احتياجنا
فما في طاقتنا لا نعجز عنه وغيره لا نقدر عليه ولا نحتاج اليه وصلى
الله على الدليل الأكبر اليه محمد وآله وصحبه اجمعين ٥
نسأل الله حسن الخاتمه

تم الكتاب الخامس من كتاب كشف الأسرار وهتك
الأستار بحمد الله وعونه ومنته وحسن توفيقه
والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم
النبيين وعلى آله واصحابه الأخيار المنتجبين وعلى ازواجه
امهات المومنين وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين

واتفق الفراغ من نسخه بحمد الله تعالى يوم الخميس ثالث عشر ذي القعدة سنة خمس
وتسعين وستمائه غفر الله لكاتبه عبد الله بن عبد الله ولقاريه
ولجميع المسلمين آمين اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل محمد كلما ذكرك الذاكرون
وغفل عن ذكرك الغافلون

٦٩٥

يا كبيكج يا كبيكج يا كبيكج